التبيان

في أقسام القرآن

تأليف

العالم العلامة ناصر السنة وقامع البدعة الإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر
المعروف بابن قيم الجوزية عليه رحمة رب البرية
المتوفى سنة ٧٥١ هـ

الجزء الثاني

حققه وضبطه ونسقه وصححه وعلق عليه بعض التعليقات النافعة

محمد زهري النجار

من علماء الأزهر الشريف

ملتزم الطبع والنشر
المؤسسة السعيدية بالرياض
لصاحبها
فهد بن عبد العزيز السعيد
شارع الخزان هاتف : ٢٥٥٦١ - سجل تجاري ٦٦٩٢

بسم الله الرحمن الرحيم

وما توفيقي إلا بالله

بسم الله الرحمن الرحيم

(٦٥) فصل

ومن ذلك قوله تعالى: (٥٣ النجم : وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ٢ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ٣) أقسم سبحانه ، بالنجم عند هَوِيِّه ، على تنزيه رسوله ، وبراءَته مما نسبه إليه أعداؤه ، من الضلال والغَيِّ .

واختلف الناس فى المراد بالنجم :

فقال الكلبى ، عن ابن عباس : أَقسم بالقرآن إذا نزل مُنَجَّمًا على رسوله : أَربع آيات ، وثلاثا ، والسورة .

وكان بين أَوله وآخره ، عشرون سنة .

وكذلك ، روى عطاءٌ عنه وهو قول مقاتل ، والضحاك ، ومجاهد . واختاره الفراءُ .

وعلى هذا ، فسمى القرآن نجما ، لتفرقه فى النزول والعرب تُسَمِّى التفرق تنجما ، والمفرق نجما ، ونجوم الكتاب ، أَقساطها .

وتقول : جعلت مالى على فلان نجوما منجمة ، كل نجم كذا وكذا .

وأَصل هذا أَن العرب كانت تجعل مطالع منازل القمر ومساقطها مواقيت لحلول ديونها وآجالها . فيقولون : إذا طلع النجم - يريدون الثريا - حَلَّ عليك الدين . ومنه قول زهير ، فى دية جعلت نجوما على العاقلة :

يُنَجِّمُهَا قَوْمٌ لِقَوْمٍ غَرَامَةً
وَلَمْ يُهْرِقُوا مَا بَيْنَهُمْ مِلْءَ مِحْجَمِ

ثم جعل كل تنجيم تفريقا ، وإِن لم يكن موقتا بطلوع نجم .

وقوله (هَوَى) على هذا القول ، أَى : نزل من عُلُوٍّ إلى سُفْل .

قال أَبو زيد : هَوَت العقاب تهوى هَوِيا - بفتح الهاءِ - إذا انقضَّتْ على صيد أَوغيره .

وكذلك قال ابن الأَعرابى وفرق بين الهوى لقوله :

والدَّلْوُ فِى إِصْعَادِهَا عَجْلَ الْهُوِىّ

وقال الليث : العامة تقول الهوِىّ - بالضم - فى مصدر هوى يهوى .

وكذلك قال الأَصمعى : هَوى يَهوِى هو بفتح الهاءِ (١) ، إذا سقط إلى أَسفل .

قال . وكذلك الهوى فى السير إذا مضى .

وههنا أَمر يجب التنبيه عليه غلط فيه أَبو محمد

---

(١) قوله : بفتح الهاء إلخ .

قال فى المختار من الصحاح : هوى يهوى كرمى يرمى . هويا بفتح الهاء (وبالضم كما فى القاموس) سقط إلى أسفل .

وفى المصباح : هوى يهوى ، من باب ضرب : هوياً بضم الهاء وفتحها .

وزاد ابن القوطية « هواء » بالمد ، سقط من أعلى إلى أسفل ، قاله أبو زيد وغيره . قال الشاعر :

هُوِىَّ الدَّلْوِ أَسْلَمَهَا الرِّشَاءُ

يروى بالفتح والضم ، واقتصر الأزهرى على الفتح ، وهوى يهوى أيضاً هوياً ، بالضم لا غير : إذا ارتفع . قال الشاعر :

يَهوِى مَخَارِمَهَا هُوِىَّ الأَجْدَلِ

وقال الآخر :

والدَّلْوُ فِى إصْعَادِهَا عَجْلَ الْهُوِىّ

وهوت العقاب تهوى هرياً وهوياً : انقضت على صيد أو غيره ، ما لم ترغه ، فإذا أراغته ، قيل أهوت له بالألف .

والإراغة : ذهاب الصيد هكذا وهكذا ، وهى تتبعه اهـ محل الحاجة منه .

ابن حزم ، أقبح غلط ، فذكر فى السماء الرب تعالى « الهوى » بفتح الهاء .

واحتج بما فى الصحيح ، من حديث عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول فى سجوده « سبحان ربى الأعلى » الهوى

فظن أبو محمد : إن الهوى ، صفة للرب ، وهذا من غلطه رحمه الله . وإنما الْهَوِيّ على وزن فعيل ، اسم لقطعة من الليل .

يقال : مضى هَوِيٌّ من الليل ، على وزن فعيل .

ومضى هزيع منه ، أى : طرف وجانب .

وكان يقول « سبحان ربى الأعلى » فى قطعة من الليل وجانب منه .

وقد صرحت بذلك فى اللفظ الآخر . فقالت : كان يقول « سبحان ربى الأعلى ؛ الهَوِيّ من الليل .

عُدْنا إلى قوله (والنَّجْمِ إِذَا هَوَى) وقال ابن عباس ، فى رواية على بن أبى طلحة ، وعطية : يعنى الثريا ، ذا سقطت وغابت ، وهو الرواية الأُخرى عن مجاهد .

والعرب ، إذا أَطلقت النجم ، تعنى به الثريا .

قال : فباتت تَعُدُّ النجم .

وقال أَبو حمزة : اليمانى : يعنى : النجوم إذا انتثرت يوم القيامة .

وقال ابن عباس ، فى رواية عكرمة : يعنى النجوم ، التى تُرْمَى بها الشياطين ، إذا سقطت فى آثارها ، عند استراق السمع .

وهذا قول الحسن . وهو أَظهر الأَقوال .

ويكون سبحانه ، قد أَقسم بهذه الآية الظاهرة المشاهدة التى نصبها الله سبحانه آية وحفظاً للوحى ، من استراق الشياطين له ، على أَن ما أَتى به رسوله حق وصدق ، لاسبيل للشيطان ، ولا طريق له إليه .

بل قد أَحرَس بالنجم ، إذا هوى رصدا بين يدى الوحى ، وحرسا له .

وعلى هذا فالارتباط بين المقسم به والمقسم عليه ، فى غاية الظهور . وفى المقسم به ، دليل على المقسم عليه .

وليس بالبيِّن تسمية القرآن عند نزوله ، بالنجم

إذا هوى ، ولاتسمية نزوله هويا . ولا عُهِدَ فى القرآن ذلك ، فيحمل هذا اللفظ عليه .

وليس بالْبَيِّنِ تخصيص هذا القسم بالثريا وحدها : إذا غابت .

وليس بالبين أيضاً : القسم بالنجوم عند انتشارها يوم القيامة .

بل هذا ، مما يقسم الرب عليه ، ويدل عليه بآياته ، فلا يجعله نفسه دليلا ، لعدم ظهوره للمخاطبين ، ولاسيما منكرو البعث ، فإنه ، سبحانه ، إنما استدل بما لا يمكن جحده ولا المكابرة فيه .

فأَظهر الأَقوال ، قول الحسن . والله أَعلم .

وبين المقسم به والمقسم عليه من التناسب ، مالايخفى

فإن النجوم ، التى ترمى الشياطين ، آيات من آيات الله ، يحفظ بها دينه ووحيه ، وآياته المنزلة على رسوله ، بها ظهر دينه وشرعه ، وأَسماؤه ، وصفاته ، وجعلت هذه النجوم المشاهدة خدما وحرسا ، لهذه النجوم الهاوية

ونفى سبحانه عن رسوله ، الضلال المنافى للهدى ، والغىّ المنافى للرشاد .

فنى ضمن هذا النفى ، الشهادة له بأنه على الهدى والرشاد .

فالهدى، فى علمه ، والرشاد ، فى علمه .

وهذان الأصلان ، هما غاية كمال العبد ، وبهماسعادته وفلاحه . وبهما وصف النبي صلى الله عليه وسلم خلفاءه . فقـــال :

« عليكم بسنتى وسنة الخلفاءِ الراشدين المهديين من بعدى (١) » .

فالراشد : ضد الغاوى ، والمهدى : ضد الضال ، وهو الذى زكت نفسه بالعلم النافع والعمل الصالح وهو صاحب الهدى ودين الحق .

ولايشتبه الراشد المهدى بالضال الغاوى ، إلا على أَجهل خلق الله ، وأَعماهم قلبا ، وأَبعدهم من حقيقة الإنسانية . ولله در القائل :

وما انْتِفَاعُ أَخى الدُّنْيا بنَاظره
إِذَا اسْتَوَتْ عِنْدَهُ الْأَنْوَارُ وَالظُّلَمُ

(١) هو من حديث العرباض بن سارية ، رواه أبو داود والترمذى . وابن ماجه ، وابن حبان فى صحيحه ، وقال الترمذى : حسن صحيح .

فالناس أَربعة أَقسام :

(الأَول) ضال فى علمه ، غاو فى قصده وعمله .

وهؤلاءِ ، شرار الخلق ، وهم مخالفو الرسل .

(الثانى) مهتد فى علمه ، غاو فى قصده وعمله ، وهؤلاءِ هم الأُمة الغضبية (١) ومن تشبه بهم ، وهو حال كل من عرف الحق ولم يعمل به .

(الثالث) ضال فى علمه ، ولكن قصده الخير . وهو لا يشعر .

(الرابع) مهتد فى علمه ، راشد فى قصده . وهؤلاءِ ورثة الأَنبياءِ .

وهم ، وإِن كانوا الأَقلين عددا ، فهم الأَكثرون عند الله قدرا .

وهم صفوة الله من عباده ، وحزبه من خلقه .

وتأَمل كيف قال سبحانه(٥٣ النجم : مَاضَلَّ صَاحِبُكُم ٢)

---

(١) وهى أمة اليهود ، قال تعالى :

(٥ المائدة قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِك مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ٦٠) .

ولم يقل « ماضل محمد » . تأكيدا لإقامة الحجة عليهم ، بأنه صاحبهم ، وهم أعلم الخلق به ، وبحاله ، وأقواله وأعماله ، وأنهم لايعرفونه بكذب ولاغيٍّ ، ولاضلال ، ولا ينقمون عليه أمراً واحداً قط .

وقد نبه على هذا المعنى بقوله (٢٣ المؤمنون : أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ ٦٩) وبقوله (٨١ التكوير : وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ٢٢) .

(٦٦) فصل

ثم قال سبحانه (٥٣ النجم : وَمَا يَنْطقُ عَنِ الْهَوَى ٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ٤) .

ينزه نطق رسوله ، أن يصدر عن هوًى . وبهذا الكمال ، هداه ورشده وقال (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى) ولم يقل « وما ينطق بالهوى » . لأن نطقه عن الهوى ، أبلغ ، فإنه يتضمن ، أن نطقه لايصدر عن هوى ، وإذا لم يصدر عن هوى ، فكيف ينطق به .

فتضمن نفى الأمرين ، نفى الهوى عن مصدر النطق ، ونفيه عن النطق نفسه .

فنطقه بالحق ، ومصدره ، الهدى والرشاد ، لا الغى والضلال .

ثم قال (إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى) فأَعاد الضمير على المصدر المفهوم من الفعل ، أَى : ما نطقه إلا وحيٌ يوحى

وهذا أَحسن من قول من جعل الضمير ، عائداً إلى القرآن .

فإنه يعم نطقه بالقرآن والسنة ، وأن كليهما وحى يوحى .

وقد احتج الشافعى لذلك فقال : لعل من حجة من قال بهذا ، قوله : (٤ النساءِ : وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ والْحِكْمَةَ ١١٣) .

قال : ولعل من حجته أَن يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأَبى الزانى بامرأة الرجل ، الذى صالحه على الغنم والخادم « والذى نفسى بيده ، لأَقضين بينكما بكتاب الله : الغنم والخادم رد عليك ـ الحديث (١) » .

---

(١) روى أحمد ، والبخارى ، ومسلم ، وأصحاب السنن ، عن أبى هريرة وزيد بن خالد ، أنهما قالا : إن رجلا من الأعراب ، أتى رسول الله ﷺ . فقال : يا رسول الله أنشدك الله ، إلا قضيت لى بكتاب الله .

وفى الصحيحين أَن يعلى بن أُمية كان يقول لعمر: ليتنى أَرى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين ينزل عليه الوحى .

فلما كان بالجِعرانة(١) سأَله رجل ، فقال : كيف ترى فى رجل أَحرم بعمرة فى جبته ، بعد ما تضمخ بالْخَلُوق .

فنظر إليه النبى صلى الله عليه وسلم ساعة ، ثم سكت ، فجاءَ الوحى .

= وقال الخصم الآخر — وهو أفقه منه — نعم فاقض بيننا بكتاب الله، وائذن لى .

فقال رسول الله ﷺ « قل » .

قال : إن ابنى كان عسيفاً على هذا ، فزنى بامرأته ، وإنى أخبرت أن على ابنى الرجم ، وافتديت منه بمائة شاة ووليدة .

فسألت أهل العلم ، فأخبرونى أن على ابنى جلد مائة ، وتغريب عام وأن على امرأة هذا ؛ الرجم .

فقال رسول الله ﷺ : والذى نفسى بيده ، الحديث .

إلى أن قال : وعلى ابنك جلد مائة ، وتغريب عام . واغد يا أنيس — لرجل من أسلم — على امرأة هذا : فإن اعترفت فارجمها .

قال : فغدا عليها ، فاعترفت ، فأمر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرجمت .

(١) مكان قريب من مكة ، نزله ﷺ فى عودته من غزوة حنين ، ومنه أحرم ، ليعتمر فى رجوعه إلى المدينة ، العمرة الثالثة .

فأشار عمر بيده إلى « يعلى » ، فجاء ، فأدخل رأسه ، فإذا النبي صلى الله عليه وسلم ، محرم يَغُطُّ . ثم سُرِّى عنه . فقال « أين السائل آنفا ؟ »

فجىء به ، فقال « انزع عنك الجبة ، واغسل أثر الطيب ، واصنع فى عمرتك ماتصنع فى حجك» .

وقال الشافعى : أخبرنا مسلم عن ابن جريج ، عن أبى طاووس ، عن أبيه ، أن عنده كتابا نزل به الوحى ، وما فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم من صدقة ، وعقول (١) فإنما نزل به الوحى .

وذكر الأوزاعى ، عن حسان بن عطية قال : كان جبريل ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسنة ، كما ينزل عليه بالقرآن ، يعلمه إياها .

وذكر الأوزاعى أيضاً ، عن أبى عبيد ، صاحب سليمان ، أخبرنى القاسم بن مخيمرة ، حدثنى ابن فضيلة قال : قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : سَعِّرْ لنا .

قال « لاتسألُنِّى عن سُنَّةٍ أحدثها فيكم ، لم يأمرنى الله بها ، ولكن سلوا الله من فضله » .

---

(١) جمع عقل ، وهو الدية .

وابن فضيلة هذا ، يسمى طلحة .

وقد صح عنه أنه قال : « ألا إنى أوتيت الكتاب ومثله معه » .

وهذا هو السنة بلاشك ، وقد قال تعالى (٤ : النساء : وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ١١٣) وهما : القرآن والسنة وبالله التوفيق .

(٦٧) فصل

ثم أخبر تعالى عن وصف من علمه الوحى والقرآن ، مما يعلم أنه مضاد لأوصاف الشيطان معلم الضلال والغواية. فقال (٥٣ النجم : عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ٥) وهذا نظير قوله (٨١ التكوير : ذى قُوَّةٍ عِنْدَ ذِى الْعَرْشِ ٢٠) وذكرنا هناك ، السر فى وصفه بالقوة .

وقوله (ذُو مِرَّةٍ) أى : جميل المنظر ، حسن الصورة ، ذو جلالة .

ليس شيطانا ، أقبح خلق الله ، وأشوههم صورة . بل هو من أجمل الخلق وأقواهم ، وأعظمهم أمانة ومكانة عند الله .

وهذا تعديل لسند الوحى والنبوة ، وتزكية له . كما تقدم نظيره فى سورة التكوير .

فوصفه بالعلم والقوة ، وجمال المنظر وجلالته .

وهذه كانت أوصاف الرسول البشرى ، والملكى .

فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أشجع الناس ، وأعلمهم ، وأجملهم ، وأجلهم .

والشياطين وتلامذتهم ، بضد من ذلك . فهم أقبح الخلق صورة ومعنى . وأجهل الخلق وأضعفهم ، هِمما ونفوسا .

ثم ذكر استواءَ هذا المعلم بالأُفق الأَعلى ، ودُنُوَّه وتدلِّيَه ، وقربه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإيحاءَ الله ما أَوحى .

فصور سبحانه ، لأَهل الإِيمان ، صورة الحال ، من نزول جبريل من عنده ، إلى أَن استوى بالأُفق ، ثم دنا وتدلَّى ، وقرب من رسوله ، فأَوحى إليه ما أَمره الله بإِيحائه ، حتى كأَنهم يشاهدون صورة الحال ويعاينونها ، هابطا من السماءِ إلى أَن صار بالأُفق الأَعلى . مستويا عليه .

ثم تنزل وقرب من محمد صلى الله عليه وسلم وخاطبه بما أمره الله به ، قائلا : ربك يقول لك كذا وكذا .

وأخبر سبحانه عن مسافة هذا القرب ، بأنه قدر قوسين ، أو أدنى من ذلك .

وليس هذا على وجه الشك ، بل تحقيق لقدر المسافة وأنها لاتزيد عن قوسين ألبتة كما قال تعالى (٣٧ الصافات وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ١٤٧) تحقيق لهذا العدد ، وأنهم لاينقصون عن مائة ألف رجل واحداً .

ونظيره قوله (٢ البقرة : ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ٧٤) أى :لاتنقص قسوتها عن قسوة الحجارة ، بل إن لم تزد على قسوة الحجارة ، لم تكن دونها .

وهذا المعنى أحسن وألطف وأدق من قول من جعل « أو » فى هذه المواضع بمعنى « بل » ومن قول من جعلها للشك بالنسبة إلى الرأى ، وقول من جعلها بمعنى الواو . فتأمله . انتهى .

(٦٨) فصل

ثم أخبر تعالى ، عن تصديق فؤاده ، لما رأته عيناه ،

وأن القلب صدق العين ، وليس كمن رأى شيئا على خلاف ماهو به ، فكذب فؤاده بصره .

بل ما رآه ببصره ، صدقه الفؤاد ، وعلم أنه كذلك . وفيها قراءتان :

إحداهما ، بتخفيف كَذَب .

والثانية بتشديدها . يقال : كذبته عينه ، وكذبه قلبه ، وكذبه جسده ، إذا أخلف ماظنه وحدسه . قال الشاعر :

كَذَبَتْكَ عَيْنُكَ ، أَمْ رَأَيْتَ بوَاسِطٍ
غَلَسَ الظَّلَامِ مِنَ الرَّبَاب خَيَالًا

أى : أرتك مالاحقيقة له . فنفى هذا عن رسوله . وأخبره أن فؤاده ، لم يكذب مارآه .

و (ما) إما أن تكون مصدرية ، فيكون المعنى : ماكذب فؤاده ، رؤيته .

وإما أن تكون موصولة ، فيكون المعنى : ماكذب الفؤاد ، الذى رآه بعينه .

وعلى التقديرين ، فهو إخبار عن تطابق رؤية

القلب ، لرؤية البصر ، وتوافقهما ، وتصديق كل منهما لصاحبه . وهذا ظاهر جدا ، فى قراءة التشديد.

وقد استشكلها طائفة ، منهم المبرد ، وقال : فى هذه القراءة بُعْدٌ .

قال : لأنه إذا رأى بقلبه ، فقد علمه أيضا بقلبه .

وإذا وقع العلم ، فلا كذب معه . فإنه إذا كان الشيءُ فى القلب معلوما ، فكيف يكون معه تكذيب ؟

قلت : وجواب هذا من وجهين .

(أحدهما) أن الرجل قد يتخيل الشيء على خلاف ماهو به ، فيكذبه قلبه ، إذ يريه صورة المعلوم ، على خلاف ما هى عليه ، كما تكذبه عينه ، فيقال : كذبه قلبه ، وكذبه ظنه ، وكذبته عينه .

فنفى سبحانه ، ذلك عن رسوله ، وأخبر أن مارآه الفؤاد ، فهو كما رآه .

كمن رأى الشيء على حقيقة ماهو به . فإنه يصح أن يقال : لم تكذبه عينه .

(الثانى) أن يكون الضمير فى (رأى) عائدا إلى الرأى ، لا إلى الفؤاد .

ويكون المعنى : ما كذب الفؤاد ، مارآه البصر .

وهذا ـ بحمد الله ـ لا إشكال فيه .

والمعنى : ماكذب الفؤاد مارآه البصر ، بل صدقه .

وعلى القراءتين ، فالمعنى : ما أوهمه الفؤاد ، أنه رأى ولم ير ، ولا اتهم بصره .

ثم أنكر ، سبحانه عليهم ، مكابرتهم وجحدهم له على مارآه ، كما ينكر على الجاهل مكابرته ، للعالم ، ومماراته له على ما علمه .

وفيها قراءتان « أَفَتُمَارُونَهُ » و « أَفتَمْرُونَهُ » وهذه المماراة ، أصلها من الجحد والدفع .

تقول : مريت الرجل حقه ، إذا جحدته . كما قال الشاعر :

لَئِنْ هَجرْتَ أَخَا صِدْقٍ ومكْرُمَةٍ
لَقَدْ مَرَيْتَ أَخاً مَا كَانَ يَمْرِيكَا

ومنه : المماراة ، وهى : المجادلة والمكابرة . ولهذا عُدِّىَ هذا الفعل بـ « على » وهى على بابها ، وليست بمعنى « عن » كما قاله المبرد ، بل الفعل ، متضمن معنى المكابرة وهذا فى قراءة الألف ، أظهر .

ورجح أبو عبيدة : قراءة من قرأ (أَفَتَمْرُونَهُ)

قال : وذلك أن المشركين إنما شأنهم ، الجحود لما كان يأتيهم من الوحي ، وهذا كان أكثر من المماراةمنهم

يعني : أن من قرأ (أفتمارونه) فمعناه : أفتجادلونه؟

ومن قرأ (أفتمرونه) معناه : أفتجحدونه ؟ وجحودهم لما جاء به ، كان هو شأنهم ، وكان أكثر من مجادلتهم له .

وخالفه أبو على وغيره ، واختاروا قراءة (أفتمارونه)

قال أبو على : من قرأ « أفتمارونه » فمعناه : أفتجادلونه جدالا ترومون به دفعه عما علمه وشاهده ؟ ويقوى هذا الوجه قوله تعالى ؛ (٨ الأنفال : يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّن ٦) ومن قرأ (أفتمرونه) كان المعنى ، أفتجحدونه ؟

قال : والمجادلة ، كأنها أشبه فى هذا ، لأن الجحود ، كان منهم فى هذا وغيره . وقد جادله المشركون فى الإسراء .

قلت : القوم جمعوا بين الجدال والدفع والإنكار .

فكان جدالهم ، جدال جحود ودفع ، لاجدال استرشاد وتبيُّن للحق .

وإثبات الأَلف ، يدل على المجادلة ، والإتيان بـ«على» يدل على المكابرة .

فكانت قراءة الأَلف ، منتظمة للمعنيين جميعا . فهى أَولى . وبالله التوفيق .

(٦٩) فصل

ثم أَخبر سبحانه ، عن رؤيته لجبريل مرة أُخرى ، عند سدرة المنتهى .

فالمرة الأُولى ، كانت دون السماء بالأُفق الأَعلى .

والثانية ، كانت فوق السماء ، عند سدرة المنتهى .

وقد صح عنه صلى الله عليه وسلم أَنه جبريل عليه الصلاة والسلام، رآه على صورته التى خلق عليها مرتين كما فى الصحيحين ، عن زرِّ بن حُبيش ، أَنه سئل عن قوله تعالى (فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى) قال : أَخبرنى ابن مسعود ، أَن النبى صلى الله عليه وسلم ، رأى جبريل ، له ستمائة جناح .

وفى الصحيحين أَيضاً ، عن عبد الله بن مسعود

(مَاكَذَبَ الْفُؤَادُ مَارَأَى) قال : رأى جبريل فى صورته ، له ستمائة جناح .

وقال البخارى ، عنه : رأى رفرفا أخضر ، يسد الأفق (١) .

وفى صحيح مسلم ، عن أبى هريرة (٥٣النجم «ولقد رآه نزلة أخرى ١٣) قال : رأى جبريل عليه السلام .

وفى صحيحه أيضا . عن مسروق قال : كنت متكئا عند عائشة فقالت :

ثلاث من تكلم بواحـــدة منهن ، فقـد أعظم على الله الْفِرْيَةَ .

---

(١) قال الحافظ ابن حجر فى الفتح (٨ : ٤٣٢ والحاصل أن ابن مسعود كان يذهب فى ذلك ، إلى أن الذى رآه النبي ﷺ : هو جبريل ، كما ذهبت إلى ذلك عائشة .

والتقدير على رأيه : فأوحى — أى جـبريل — إلى عبده — أى عبد الله — محمد ، لأنه يرى أن الذى دنا فتدلى هو جبريل ، وأنه هو أوحى إلى محمد صلى الله عليه وسلم .

وكلام أكثر المفسرين من السلف ، يدل على أن الذى أوحى هو الله ، أوحى إلى عبده ، محمد صلى الله عليه وسلم . ومنهم من قال : إلى جبريل .

قلت : ماهن ؟

قالت : من زعم أَن محمداً رأى ربه ، فقد أَعظم على الله الفرية .

قال : وكنت متكئا ، فجلست ، فقلت : ياأُم المؤمنين أَنظريني ولاتعجليني ؛ أَلم يقل الله عز وجل (وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ) (وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى) ؟

فقالت : أَنا أَول هذه الأَمة سأَل عن ذلك ، رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « إِنما هو جبريل ، لم أَره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين ، رأَيته منهبطا من السماءِ ، سادًّا عظم خلقه ، مابين السماءِ والأَرض ،

فقالت : أَولم تسمع أَن الله عز وجل يقول (٦ الأَنعام : لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ وهُو يُدْرِكُ الْأَبْصار وَهُوَ اللطِيفُ الْخَبِيرُ ١٠٣) أَو لم تسمع أَن الله عز وجل يقول (٤٢ الشورى : وما كَانَ لبشَر أَنْ يُكَلِّمَهُ الله إِلَّا وحْيًا أَوْ منْ وراءِ حِجابٍ أَوْ يُرْسِلَ رسُولًا فَيُوحِيَ بإِذْنِهِ مايشَاءُ إِنَّهُ علَىٌّ حكِيمٌ ٥١ » .

قالت : ومن زعم أَن محمداً كتم شيئاً من كتاب الله فقد أَعظم على الله الفرية ، والله عز وجل يقول :

٥ المائدة (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ٦٧) .

قالت : ومن زعم أنه يخبر بما يكون فى غد فقد أعظم على الله الفرية . والله عز وجل يقول (٢٧ النمل قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ٦٥) .

ولو كان محمد كاتما شيئا مما أُنزل عليه ، لكتم هذه الآية (٣٣ الأحزاب : وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ٣٧) .

وفى الصحيحين عن مسروق أيضاً قال : سألت عائشة رضى الله عنها ، هل رأى محمد ربه ؟

فقالت : سبحان الله ! لقد قَفَّ شعرى مما قلت .

وفيهما أيضا قال ، قلت لعائشة : فأين قوله عز وجل (٥٣ النجم ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ٩ ؟

قالت : إنما ذاك جبريل ، كان يأتيه فى صورة الرجال .

وإنه أَتاه فى هذه المرة ، فى صورته ، التى هى صورته ، فَسدَّ الأُفق .

وفى صحيح مسلم أَن أَبا ذر سأَله ، صلى الله عليه وسلم : هل رأَيت ربك ؟

فقال : « نور أَنَّى أَراه ؟ ! » .

وفى صحيح مسلم أَيضاً ، من حديث أَبى موسى الأَشعرى ، قال : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس كلمات ، فقال :

« إن الله لاينام ، ولا ينبغى له أَن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل ، قبل النهار ، وعمل النهار ، قبل الليل ، حجابه النور . لو كشفه ، لأَحرقت سبحات وجهه ، ماانتهى إليه بصره من خلقه »

وهذا الحديث ، ساقه مسلم بعد حديث أَبى ذر المتقدم ، وهو كالتفسير له .

ولا ينافى هذا قوله ، فى حديث الصحيح ، حديث الرؤية يوم القيامة .

« فيكشف الحجاب . فينظرون إليه » .

فإن النور الذى هو حجاب الرب تعالى ، يراد به

الحجاب الأدنى إليه ، وهو لو كشف ، لم يقم له شيءٌ ، كما قال ابن عباس فى قوله عز وجل (٦ الأنعام لَاتُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ ١٠٣) .

قال : ذاك نوره الذى هو نوره ، إذا تجلى به ، لم يقم له شيءٌ .

وهذا الذى ذكره ابن عباس ، يقتضى أن قوله (لاتدركه الأبصار) على عمومه ، وإطلاقه فى الدنيا والآخرة ، ولايلزم من ذلك ، أن لايرى .

بل يرى فى الآخرة بالأبصار ، من غير إدراك .

وإذا كانت أبصارنا لاتقوم لإدراك الشمس ، على ما هى عليه ، وإن رأتها مع القرب ، الذى بين المخلوق والمخلوق .

فالتفاوت الذى بين أبصار الخلائق ، وذات الرب جل جلاله ، أعظم وأعظم .

ولهذا لما حصل للجبل ، أدنى شيءٍ من تجلىٍّ الرب ، تسافَى الجبل ، واندكَّ لسبحات ذلك القدر من التجلى .

وفى الحديث الصحيح المرفوع « جنتان من ذهب ، آنيتهما وحليتهما وما فيهما ، وجنتان من فضة ، آنيتهما وحليتهما وما فيهما ؛ ومابين القوم ، وبين أن ينظروا

إلى ربهم ، إلا رداء الكبرياء على وجهه ، فى جنة عدن » .

فهذا يدل أن رداء الكبرياء على وجهه تبارك وتعالى ، هو المانع من رؤية الذات .

ولا يمنع من أصل الرؤية ، فإن الكبرياء والعظمة ، أمر لازم لذاته تعالى .

فإذا تجلى سبحانه لعباده يوم القيامة ، وكشف الحجاب بينهم وبينه ، فهو الحجاب المخلوق .

وأما أنوار الذات ، الذى يحجب عن إدراكها ، فذاك صفة للذات ، لا تفارق ذات الرب جل جلاله .

ولو كشف ذلك الحجاب ، لأحرقت سبحات وجهه ، ما أدركه بصره من خلقه .

وتكفى هذه الإشارة فى هذا المقام ، للمصدق الموقن .

وأما المعطل الجهمى ، فكل هذا عنده ، باطل ومحال.

والمقصود : أن المخبر عنه بالرؤية فى سورة النجم ، هو جبريل .

وأما قول ابن عباس : رأى محمد ربه بفؤاده مرتين ، فالظاهر أن مستنده هذه الآية .

وقد تبين أن المرئى فيها ، جبريل ، فلادلالة فيها على ماقاله ابن عباس .

وقد حكى عثمان بن سعيد الدارمى ، الإجماع على ماقالته عائشة .

فقال – فى نقضه على بشر المريسى ، فى الكلام على حديث ثوبان ومعاذ ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « رأيت ربى البارحة فى أحسن صورة » فحكى تأويل المريسى الباطل .

ثم قال : ويلك ، إن تأويل هذا الحديث على غير ماذهبت إليه .

أما إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى حديث أبى ذر « إنه لم ير ربه » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لن تروا ربكم حتى تموتوا » .

وقالت عائشة رضى الله عنها : « من زعم أن محمدا رأى ربه ، فقد أعظم على الله الفرية » وأجمع المسلمون على ذلك ، مع قول الله (لَاتُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ) يعنون أبصار أهل الدنيا ، وإنما هذه الرؤية ، كانت فى المنام ، يمكن رؤية الله على كل حال كذلك .

وروى معاذ بن جبل ، عن النبى صلى الله عليه وسلم : أنه قال « صليت ماشاء الله من الليل ، ثم وضعت جنبى ، فأتانى ربى فى أحسن صورة » .

فهذا تأويل هذا الحديث ، عند أهل العلم .

وقد ظن القاضى أبو يعلى ، أن الرواية اختلفت عن الإمام أحمد : هل رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه ليلة الإسراء ، أم لا ؟ على ثلاث روايات :

(إحداها) أنه رآه ، قال المروزى : قلت لأبى عبد الله : يقولون : إن عائشة قالت : « من زعم أن محمدا رأى ربه ، فقد أعظم على الله الفرية » فبأى شىء يدفع قول عائشة ؟

فقال : بقول النبى صلى الله عليه وسلم « رأيت ربى » قول النبى صلى الله عليه وسلم ، أكبر من قولها .

قال : وذكر المروزى فى موضع آخر ، أنه قال لأبى عبد الله : ههنا رجل يقول : إن الله يُرَى فى الآخرة ، ولا أقول إن محمدا رأى ربه فى الدنيا .

فغضب ، وقال : هذا أهل أن يخفى ، يسلم الخبر كما جاء .

قال : فظاهر هذا ، أنه أثبت رؤية عين .

ونقل حنبل قال : قلت لأبى عبد الله ، النبى صلى

الله عليه وسلم رأى ربه رؤيا حلم بقلبه ؟ قال : فظاهر ، هذا نفى الرؤية .

وكذلك نقل الأثرم ، وقد سأله عن حديث عبد الرحمن بن عابس ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، « رأيت ربى فى أحسن صورة » .

فقال : معمر مضطرب ، لأن معمرا ، رواه عن أيوب ، عن معبد ، عن عبد الرحمن بن عابس ، عن النبي صلى الله عليه وسلم .

ورواه حماد ، عن قتادة ، عن عكرمة ، عن ابن عباس

ورواه يوسف بن عطية ، عن قتادة ، عن أنس .

ورواه عبد الرحمن بن يزيد ، عن جابر ، عن خالد ابن اللجلاج ، عن عبد الرحمن ابن عابس ، عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم .

ورواه يحيي بن أبي كثير فقال : عن ابن عابس ، عن معاذ ، عن النبي صلى الله عليه وسلم . وأصل الحديث واحد .

قال الأثرم : فقلت لأبى عبد الله : فإلى أى شىء تذهب ؟

فقال : قال الأعمش ، عن زياد بن الحصين ، عن أبي العالية ، عن ابن عباس قال : رأى محمد ربه بقلبه .

ونقل الأثرم ، أن رجلا قال لأحمد عن الحسين الأشيب ، أنه قال : لم ير النبي صلى الله عليه وسلم ربه تعالى ، فأنكره عليه إنسان ، وقال : لم تقول رآه ؟ ، ولا تقول بعينه ولا بقلبه ؟ كما جاء الحديث .فاستحسن ذلك ، الأشيب .

فقال أبو عبد الله حسن . قال : وظاهر هذا ، إثبات رؤية لايعقل معناها ، هل كانت بعينه ، أم بقلبه ؟

فهذه نصوص أحمد .

وقد جعلها القاضي مختلفة ، وجعل المسألة على ثلاث روايات .

ثم احتج للرواية الأولى ، بحديث أم الطفيل ، وحديث عبد الرحمن بن عابس الحضرمي .

ولا دلالة فيهما . لأنها رؤية منام فقط . واحتج لها بما لايرضى أحمد : أن يحتج به ، وهو حديث لايصح عن أبي عبيدة بن الجراح مرفوعا .

« لما كانت ليلة أسري بي ، رأيت ربي في أحسن

صورة ، فقال : فيم يختصم الملأُ الأَعلى ؟ » وذكر الحديث .

وهذا غلط قطعا ، فإن القصة إنما كانت بالمدينة كما قال معاذ بن جبل :

احتبس عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صلاة الصبح ، حتى كدنا نتراءى عين الشمس . ثم خرج ، فصلى بنا ، ثم قال « رأَيت ربى البارحة ، فى أَحسن صورة فقال : يا محمد فيم يختصم الملأُ الأَعلى ؟ » وذكر الحديث .

فهذا كان بالمدينة ، والإسراءُ كان بمكة .

وليس عن الإمام أَحمد ، ولا عن النبى صلى الله عليه وسلم ، نص أَنه رآه بعينه يقظة ، وإنما حمل القاضى ، كلام أَحمد مالا يحتمله ، واحتج لما فهم منه ، بما لايدل عليه ، وكلام أَحمد يصدق بعضه بعضا .

والمسأَلة رواية واحدة عنه ، فإنه لم يقل بعينه . وإنما قال رآه .

واتبع فى ذلك قول ابن عباس « رأَى محمد ربه » .

ولفظ الحديث « رأَيت ربى » وهو مطلق ، وقد جاءَ بيانه فى الحديث الآخر .

ولكن فى رد أحمد قول عائشة ، ومعارضته بقول النبي صلى الله عليه وسلم ، إشعار بأنه أثبت الرؤية ، التى أنكرتها عائشة ، وهى لم تنكر رؤية المنام.

ولم تقل « من زعم أن محمداً رأى ربه فى المنام ، فقد أعظم على الله الفرية » .

وهذا يدل على أحد أمرين .

إما أن يكون الإمام أحمد ، أنكر قول من أطلق نفى الرؤية ، إذ هو مخالفته للحديث .

وإما أن يكون رواية عنه ، بإثبات الرؤية ، وقد صرح بأنه رآه رؤيا حلم بقلبه ، وهذا تقييد منه للرؤية ، وأطلق أنه رآه ، وأنكر قول من نفى مطلق الرؤية ، واستحسن قول من قال رآه ، ولايقول بعينه ولابقلبه.

وهذه النصوص عنه ، متفقة لامختلفة .

وكيف يقول أحمد ، رآه بعينى رأسه يقظة ، ولم يجىء ذلك فى حديث قط ؟ .

فأحمد إنما اتبع ألفاظ الحديث كما جاءت ، وإنكاره قول من قال لم يره أصلًا لايدل على إثبات رؤية اليقظة بعينه . والله أعلم .

(٧٠) فصل

وقوله تعالى (٥٣ النجم مَازَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ١٧) قال ابن عباس : مازاغ البصر ، يمينا ولا شمالا ، ولا جاوز ما أمر به . وعلى هذا ، المفسرون .

فنفى عن نبيه ، مايعرض للرائى ، الذى لا أدب له بين يدى الملوك والعظماء ، من التفاته يمينا وشمالا ، ومجاوزة بصره لما بين يديه .

وأخبر عنه ، بكمال الأدب فى ذلك المقام ، وفى تلك الحضرة ، إذ لم يلتفت جانباً ، ولم يمد بصره إلى غير ما أُرِىَ من الآيات ، وما هناك من العجائب .

بل قام مقام العبد ، الذى أوجب أدبه ، إطراقه ، وإقباله على ما أُرِىَ ، دون التفاته إلى غيره ، ودون تَطلُّعه إلى مالم يره ، مع ما فى ذلك من ثبات الجأش ، وسكون القلب ، وطمأنينته . وهذا غاية الكمال .

وزيغ البصر ، التفاته جانباً ، وطغيانه ، مدُّه أمامه ، إلى حيث ينتهى .

فنزه فى هذه السورة ، علمه عن الضلال ، وقصده ،

وعمله عن الغى ، ونطقه عن الهوى ، وفؤاده ، عن تكذيب بصره ، وبصره عن الزيغ والطغيان ، وهكذا يكون المدح .

تِلْكَ الْمَكَارِمُ لَاقَعْبَانِ مِنْ لَبَنٍ
شِيبَا بِمَاءٍ فَعَادَا بَعْدُ أَبْوالَا

(٧١) فصل

ولما ذكر رؤيته لجبريل عند سدرة المنتهى ،استطرد منها ، وذكر أن جنة المأْوى عندها ، وأنه يغشاها من أمره وخلقه ما يغشى .

وهذا من أحسن الاستطراد ، وهو أسلوب لطيف جداً ، فى القرآن ، وهو نوعان :

(أحدهما) أن يستطرد من الشيء إلى لازمه ، مثل هذا ، ومثل قوله (٤٣ الزخرف : وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ٩) .

ثم استطرد من جوابهم إلى قوله (الَّذِى جعلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعلَّكُمْ تَهْتَدُون ١٠ وَالَّذِى نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً

مَيْتًا كَذٰلِكَ تُخْرَجُونَ ١١ والَّذِى خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَاوَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ١٢ لِتَسْتَوُوا على ظُهُورِهِ ١٣) وهذا ليس من جوابهم ولكن تقرير له ، وإقامة الحجة عليهم . ومثله قوله تعالى (٢٠ طه : فَمَنْ ربُّكُمَا يَا مُوسَى ؟ ٤٩ قَالَ : رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ٥٠ قَالَ : فَمَا بَالُ الْقُرُون الْأُولَى ؟ ٥١ قَالَ : عِلْمُهَا عِنْد ربِّى فِى كِتَابٍ لَايَضِلُّ ربِّى وَلَايَنْسى ٥٢) فهذا جواب موسى .

ثم استطرد سبحانه منه إلى قوله : (الَّذِى جعل لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وسلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا و أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْواجاً مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى ٥٣ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعامَكُمْ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِأُولِى النُّهَى ٥٤ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وفِيهَا نُعِيدُكُمْ ومِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارةً أُخرى ٥٥) ثم عاد إلى الكلام الذى استطرد منه .

(والنوع الثانى) أن يستطرد من الشخص إلى النوع ، كقوله (٢٣ المؤمنون : وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَة مِنْ طِينٍ ١٢ ثُمَّ جَعلْنَاهُ نُطْفَةً فِى قَرارٍ مكِينٍ ١٣) إلى آخره فالأول آدم ، والثانى بنوه .

ومثله قوله (٧ الأعراف : هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْس وَاحِدة وَجعلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ، فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بهِ ، فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ١٨٩ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا ١٩٠ إلى آخر الآيات .

فاستطرد من ذكر الأَبوين ، إلى ذكر المشركين من أولادهما . والله أعلم .

(٧٢) فصل

ومن ذلك قوله تعالى : (٥٢ : والطُّور ١ وكِتاب مسْطُور ٢ فِى رَقٍّ منْشُورٍ ٣ والْبَيْتِ الْمَعْمُور ٤ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ٥ والْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ٦ إنَّ عذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ٧ مالَهُ مِنْ دَافِعٍ ٨) .

تضمن هذا القسم خمسة أَشياءَ ، وهى مظاهر آياته ، وقدرته ، وحكمته الدالة على ربوبيته ، ووحدانيته .

فالطور ، هو : الجبل الذى كلم الله عليه نبيه وكليمه موسى بن عمران ، عند جمهور المفسرين ، من السلف والخلف .

وعرفه ههنا باللام ، وعرفه فى موضع آخر بالإضافة ، فقال : (٩٥ التين : وَطُورِ سِينِينَ ٢) .

وهذا الجبل ، مظهر بركة الدنيا والآخرة ، وهو الجبل الذى اختاره الله لتكليم موسى عليه.

قال عبد الله بن أحمد ، فى كتابٌ « الزهد » لأبيه : حدثنى محمد بن عبيد بن حبان ، قال : حدثنا جعفر ابن سليمان ، قال : حدثنا أبو عمران الجَوْنِى ، عن نَوْف البكَّالى قال :

أوحى الله عز وجل إلى الجبال : إنى نازل على جبل منكم .

قال : فشمخت الجبال كلها ، إلا جبل الطور ، فإنه تواضع ، وقال : أرضى بما قسم الله لى ، فكان الأمرعليه .

وجبل هذا شأنه ، حقيق أن يقسم الله به ، وإنه لسيد الجبال .

(الثانى) الكتاب المسطور ، فى الرَّقِّ المنشور .

واختلف فى هذا الكتاب ، فقيل: هو اللوح المحفوظ ، وهذا غلط ، فإنه ليس بِرَقٍّ .

وقيل : هو الكتاب الذى تضمن أعمال بنى آدم .

وقال مقاتل : تخرج إليهم أعمالهم يوم القيامة ، فى رق منشور .

وهذا وإن كان أقوى وأصح من القول الأول ، واختاره جماعة من المفسرين ، ومنهم من لم يُزَكِّ غيره ، فالظاهر أن المراد به ، الكتاب المنزل من عند الله .

وأقسم الله به ، لعظمته وجلالته ، وما تضمنه من آيات ربوبيته ، وأدلة توحيده وهداية خلقه .

ثم قيل : هو التوراة ، التى أنزل الله على موسى .

وكأن صاحب هذا القول ، رأى اقتران الكتاب بالطور ، فقال : هو التوراة ، ولكن التوراة إنما أُنزلت فى ألواح ، لافى رق .

إلا أن يقال . هى فى رق فى السماء ، وأُنزلت فى ألواح .

وقيل : هو القرآن ؛ ولعل هذا أرجح الأقوال ، لأنه سبحانه ، وصف القرآن بأنه فى صحف مطهرة ، بأيدى سفرة * كرام بررة .

فالصحف هى الرق ، وكونه بأيدى سفرة ، هو كونه منشوراً .

وعلى هذا ، فيكون قد أقسم بسيد الْجبال ، وسيد الكتب .

ويكون ذلك متضمنا للنبوتين المعظمتين . نبوة موسى ، ونبوة محمد .

وكثيراً مايقرن بينهما ، وبين محلهما ، كما فى سورة التين والزيتون .

ثم أَقسم بسيد البيوت ، وهو البيت المعمور .

وفى وصفه الكتاب بأَنه مسطور ، تحقيق لكونه مكتوباً مفروغا منه .

وفى وصفه بأَنه منشور ، إيذان بالاعتناءِ به ، وأنه بأَيدى الملائكة منشور ، غير مهجور .

وأَما البيت المعمور ، فالمشهور أَنه الضُّرَاحُ الذى فى السماءِ ، الذى رفع للنبى صلى الله عليه وسلم ليلة الإِسراءِ . يدخله كل يوم ، سبعون أَلف ملك ، ثم لايعودون إِليه ، آخر ماعليهم ، وهو بحيال البيت المعمور ، فى الأَرض .

وقيل : هو البيت الحرام . ولاريب ، أَن كلا منهما معمور .

فهذا معمور بالملائكة وعبادتهم .

وهذا معمور بالطائفين ، والقائمين ، والرُّكَّع ، والسُّجود .

وعلى كلا القولين ، فكل منهما سيد البيوت .

ثم أَقسم - سبحانه - بمخلوقين عظيمين من بعض مخلوقاته ، وهما مظهر آياته ، وعجائب صنعته .

وهما : السقف المرفوع ، وهو السماءُ ، فإنها من أَعظم آياته قدراً ، وارتفاعا ، وسعة وسمكا ، ولونا ، وإشراقا . وهى محل ملائكته .

وهى سقف العالم ، وبها انتظامه ، ومحل النيرين اللذين بهما ، قوام الليل والنهار ، والسنين والشهور ، والأَيام ، والصيف ، والشتاء ، والربيع ، والخريف .

ومنها تنزل البركات . وإليها ، تصعد الأَرواح ، وأَعمالها ، وكلماتها الطيبة .

(والثانى) البحر المسجور ، وهو آية عظيمة من آياته ، وعجائبه ، لا يحصيها إلا الله .

واختلف فى هذا البحر ، هل هو الذى فوق السموات أَو البحر الذى نشاهده ؟ على قولين .

فقالت طائفة : هو البحر الذى عليه العرش ، وبين أَعلاه وأَسفله ، مسيرة خمسمائة عام ، كما فى الحديث الذى رواه أَبو داود ، من حديث سماك عن عبد الله بن مخيمرة ، عن الأَحنف بن قيس ، قال :

كنت بالبطحاءِ فى عصابة ، فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمرت بهم سحابة ، فنظر إِليها فقال :

« ماتسمون هذه ؟ » قالوا : السحاب .

قال : « والمزن » قالوا : والمزن .

قال « والعنان » قالوا : والعنان .

قال : « هل تدرون ما بين السماءِ والأَرض ؟ »

قالوا : لاندرى .

قال : « إن بُعْدَ مابينهما إما واحدة ، أَو اثنتان ، أَو ثلاث وسبعون سنة ، ثم السماءُ فوقها كذلك ، حتى عد سبع سموات .

ثم فوق السابعة بحرا ، بين أَسفله وأَعلاه ، مثل مابين سماءٍ إلى سماءٍ .

ثم فوق ذلك ثمانية أَوعال ، بين أَظلافهم ورُكَبِهِمْ ، مثل مابين سماءٍ إلى سماءٍ ، ثم على ظهورهم العرش ، مابين

أسفله وأعلاه ، مثل مابين سماء إلى سماء ، ثم الله فوق ذلك » .

وهذا لايناقض ما فى جامع الترمذى « إن بين كل سمائين ، مسيرة خمسمائة عام » .

إذ المسافات ، تختلف مقاديرها ، باختلاف المقدر به

فالخمسمائة ، مقدرة بسير الإبل ، والسبعون ، بسير البريد ، وهو يقطع بقدر ماتقطعه الإبل سبعة أضعاف .

وهذا القول فى البحر ، الذى تحت العرش ، محكى عن على بن أبى طالب .

و (الثانى) : أنه بحر الأرض .

واختلف فى المسجور ، فقيل : المملوءُ . هذا قول جميع أهل اللغة .

قال الفراءُ : المسجور فى كلام العرب : المملوءُ . يقال : سجرت الإناء إذا ملأْته ، قال لبيد :

فَتَوَسَّطَا عَرْضَ السُّرَى وَصَدَّعَا
مَسْجُورَةً مُتَجَاوِر أَقْلَامُهَا

وقال المبرد : المسجور : المملوءُ عند العرب ، وأنشد للنمر بن تولب :

إِذَا شَاءَ طَالِعٌ مَسْجُورَةٌ

يريد عينا مملوءَة ماءً ، وكذا قال ابن عباس : المسجور : الممتلئُ .

وقال مجاهد : المسجور : الموقد ، قال الليث : السجر : إيقادك فى التنور ، تسجره سجرا ، والسجر : اسم الحطب . وهذا قول الضحاك ، وكعب وغيرهما .

قال : البحر يسجر ، فيزداد فى جهنم ، وحكى هذا القول عن على بن أَبى طالب رضى الله عنه قال : مسجور موقد

قال الفراءُ : وهذا يرجع إلى القول الأَول ، لأَنك تقول : سجرت التنور ، إذا ملأَته حطبا .

وروى ذو الرمة الشاعر ، عن ابن عباس ، أَن المسجور : اليابس الذى قد نضب ماؤه وذهب . وليس لذى الرمة ، رواية عن ابن عباس غير هذا الحرف .

وهذا القول ، اختيار أَبى العالية .

قال أَبو زيد : المسجور : المملوءُ . والمسجور ، الذى ليس فيه شىءٌ ، جعله من الأَضداد .

وقد روى عن ابن عباس ، أن المسجور : المحبوس .

ومنه ساجور الكلب ، وهو القلادة ، من عود ، أو حديد تمسكه .

والمعنى على هذا ، أنه محبوس بقدرة الله ، أن يفيض على الأرض فيغرقها .

فإن ذلك مقتضى الطبيعة ، أن يكون الماءُ غامراً للأرض فوقها ، كما أن الهواءَ فوق الماءِ ، ولكن أمسكه الذى يمسك السموات والأرض ، أن تزولا .

وفى هذا حديث ذكره أحمد مرفوعا « مامن يوم إلا والبحر يستأذن ربه أن يغرق بنى آدم » .

وهذا الموضع مما هدم أصول الملاحدة والدهرية ، فإنه ليس فى الطبيعة مايقتضى حبس الماءِ عن بعض جوانب الأرض ، مع كون كرة الماءِ عالية على كرة الأرض بالذات .

ولو فرض أن فى الطبيعة ، مايقتضى بروز جوانبها ، لم يكن فيها مايقتضى تخصيص هذا الجانب بالبروز ، دون غيره .

وماذكره الطبائعيون والمتفلسفة ، أن العناية الإلهية

اقتضت ذلك لمصلحة العالم ، فنعم ، هو كما ذكروا ولكن عناية من يفعل بقدرته ومشيئته ، وهو بكل شيء عليم ، وعلى كل شيء قدير ، وهو أحكم الحاكمين – غير معقولة .

فإن العناية الإلهية ، تقتضى حياته ، وقدرته ، ومشيئته ، وعلمه ، وحكمته ، ورحمته ، وإحسانه إلى خلقه ، وقيام الأفعال به .

فإثبات العناية الإلهية مع نَفْىِ هذه الأُمور ، ممتنع . وبالله التوفيق .

وأقوى الأقوال فى المسجور ، أنه الموقد . وهذا هو المعروف فى اللغة من المسجور . ويدل عليه قوله تعالى (٨١ التكوير : وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ٦) .

قال على وابن عباس : أُوقِدَتْ ، فصارت نارا .

ومن قال : يبست وذهب ماؤها ، فلا يناقض كونها نارا موقدة .

وكذا من قال ملئت : فإنها تملأُ ناراً .

وإذا اعتبرت أُسلوب القرآن ، ونظمه ، ومفرداته رأيت اللفظة ، تدل على ذلك كله ، فإن البحر ،

محبوس بقدرة الله . ومملوءٌ ماءً ، ويذهب ماؤه يوم القيامة ، ويصير نارا .

فكل من المفسرين ، أخذ معنًى من هذه المعانى . والله أعلم .

(٧٣) فصل

وأقسم سبحانه بهذه الأمور ، على المعاد والجزاء ، فقال (٥٢ الطور : إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ٧ مَالَهُ مِنْ دَافِعٍ ٨) ولما كان الذى يقع قد يمكن دفعه أخبر سبحانه أنه لا دافع له . وهذا يتناول أمرين : أحدهما أنه لادافع لوقوعه ، والثانى : أنه لادافع له إذا وقع .

ثم ذكر سبحانه وقت وقوعه فقال (٥٢ الطور : يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْراً ٩ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْراً ١٠) :

وَالْمَوْر : قد فسر بالحركة ، وفسر بالدوران ، وفسر بالتَّمَوُّج والاضطراب .

والتحقيق : أنه حركة ، فى تَمُوُّج ، وتكفُّؤٍ ، وذهاب ومجىءٍ ، ولهذا فرق بين حركة السماء وحركة الجبال . فقال :

(٥٢ الطور : وَتَسِيرُ الْجبالُ سيْراً ١٠) ،

وقال : (٨١ التكوير: وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ٣) ، من مكان إلى مكان .

وأما السماءُ ، فإنها تتكفأُ ، وتموج ، وتذهب ، وتجىءُ .

قال الجوهرى : مار الشىءُ يمور موراً ، تَرَهْيأً أى : تحرك وجاءَ وذهب ، كما تكفأُ النخلة العَيْدَانة ، أى : الطويلة . ومنه قوله تعالى (يَوْمَ تَمور السماءُ مَوْراً) .

قال الضحاك : تموج موجاً . وقال أبو عبيدة ، والأخفش : تكفأُ .

وأنشد للأعشى :

كَأَنَّ مِشْيَتَهَا مِنْ بيْتِ جارتِهَا
مَوْرُ السَّحابةِ ، لَا رَيْثٌ وَلَا عَجَلُ

ثم ذكر وعيد المكذبين بالمعاد والنبوة ، وذكر أعمالهم وعلومهم ، التى كانوا عليها ، وهى الخوض ، الذى هو كلام باطل ، واللعب ، الذى هو سَعْىٌ ضائع .

فلا علم نافع ، ولا عمل صالح . بل علومهم ، خوض بالباطل ، وأعمالهم لعب .

ولما كانت هذه العلوم والأَعمال ، مستلزمة لدفع الحق بعنف وقهر ، أُدخلوا جهنم وهم يُدَعُّون إليها دَعًّا ، أَى : يُدْفَع فى أَقفيتهم وأَكتافهم ، دفعاً بعد دفع .

فإذا وقفوا عليها وعاينوها ، وقفوا ، وقيل لهم (٥٢ الطور : هَذِهِ النَّارُ الَّتِى كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ١٤) وتقولون : لاحقيقة لها ، ولا من أَخبر بها صادق .

ثم يقال (٥٢ الطور : أَفَسِحْرٌ هَذَا ؟١٥) الآن كما كنتم تقولون للحق ، لما جاءَتكم به الرسل : إنه سحر ، وإنهم سحرة . فهذا الآن سحر لاحقيقة له ، كما قلتم .

أَم على أَبصاركم غشاوة ، فلا تبصرونها ، كما كان عليها غشاوة فى الدنيا ، فلاتبصرون الحق ؟

أَفعميت أَبصاركم اليوم ، عن رؤية هذا الحق ، كما عميت فى الدنيا ، فلاتبصرون الحق ؟

ثم سلب عنهم نفع البصر ، الذى كانوا فى الدنيا إذا دهمتهم الشدائد ، وأَحاطت بهم ، لجأُوا إليه وتعللوا بانقضاءِ البلية ، لانقضاءِ أَمدها . فقيل لهم يومئذ :

(اصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا (١)) كلاهما سواءٌ عليكم ، لا يُجْدِى عنكم الصبر ، ولا الجزع .

فلا الصبر يخفف عنكم حمل هذا العذاب . ولا الجزع ، يعطف عليكم قلوب الخزنة ، ولايستنزل لكم الرحمـة .

ثم أُعلموا بأَن الرب تعالى ، لم يظلمهم بذلك ، وإنما هو نفس أَعمالهم ، صارت عذابا . فلم يجدوا من اقترانهم به ، بُدًّا ، بل صارت عذابا لازما لهم ، كما كانت إرادتهم وعقائدهم الباطلة وأَعمالهم القبيحة ، لازمة لهم .

ولزوم العذاب لأَهله فى النار ، بحسب لزوم تلك الإرادة الفاسدة ، والعقائد الباطلة ، ومايترتب عليها من الأَعمال لهم فى الدنيا .

فإذا زال ذلك اللزوم ، فى وقت مَّا ، بضده ، وبالتوبة

---

(١) نص الآية فى سورة الطور ، المسوق فيه الكلام هنا هكذا :
(اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ١٦) .
وإنما أتينا بنص الآية لئلا يظن القارىء أنها بعض آية ، والمؤلف ، إنما قصد المعنى ، لا نص الآية .

النصوح ، زوالا كُلِّيًّا ، لم يُعذَّبوا عليه فى الآخرة ، لأَن أَثره قد زال من قلوبهم وأَلسنتهم وجوارحهم ، ولم يبق له أَثر يترتب عليه ، فالتائب من الذنب ، كمن لاذنب له .

والمادة الفاسدة إذا زالت من البدن بالكلية ، لم يبق هناك أَلَمٌ ينشأُ عنها .

وإن لم تَزُلْ تلك الإرادة والأَعمال ، ولكن عارضها معارض أَقوى منها ، كان التأْثير للمعارض . وغلب الأَقوى الأَضعف .

وإن تساوى الأَمران تدافعا ، وقاوم كل منهما الآخر ، وكان محل صاحبه ، جبال الأَعراف ، بين الجنة والنار .

فهذا حكم الله وحكمته فى خلقه ، وأَمره ونهيه وعقابه ، (ولا يظلم ربك أَحدا) .

(٧٤) فصل

ثم ذكر سبحانه ، أَرباب العلوم النافعة ، والأَعمال الصالحة ، والاعتقادات الصحيحة ، وهم المتقون .

فذكر مساكنهم ، وهم فى الجنان ، وحالهم فى المساكن وهو النعيم .

وذكر نعيم قلوبهم وراحتهم بكونهم (٥٢ الطور : فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهمْ ١٨) والفاكه : المعجب بالشىء ، المسرور المغتبط به ، وفعله فَكِهَ - بالكسر - يَفْكَهُ فهو فَكِهٌ وفاكه ، إذا كان طيب النفس ، والفاكه البال ، ومنه الفاكهة ، وهى المرح ، الذى ينشأُ عن طيب النفس ، وتفكهت بالشىء . إذا تمتعت به .

ومنه الفاكهة ، التى يتمتع بها ، ومنه قوله (٥٦ الواقعة فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ٦٥) .

قيل : معناه تندمون ، وهذا تفسير بلازم المعنى .

وإنما الحقيقة ، تزيلون عنكم التفكه ، وإذا زال التفكه ، خَلَفَهُ ضده يقال : تَحَنَّث ، إذا زال الحنث عنه ، وتحرَّج ، وتحوَّب وتأَثَّم . ومنه تفكَّه .

وهذا البناء (١) يقال للداخل فى الشىء : كتعلَّم وتحلَّم ، وللخارج منه : كتحرَّج وتأَثَّم .

---

(١) قوله : وهذا البناء إلخ يعنى أن الأفعال الآتية على هذا الوزن تفيد الدخول فى الشىء والخروج منه . والأمثلة واضحة فى كلام المؤلف .

والمقصود ، أنه سبحانه ، جمع لهم بين النعيمين : نعيم القلب بالتفكه ، ونعيم البدن بالأكل والشرب والنكاح.

ووقاهم عذاب الجحيم ، فوقاهم مما يكرهون ، وأعطاهم ما يحبون ، جزاءً وفاقا ؛ لأنهم تركوا ما يكره ، وأتوا بما يحب .

فكان جزاؤهم ، مطابقا لأعمالهم .

ثم أخبر عن دوام ذلك لهم بما أفهمه قوله (هَنِيئًا) فإنهم لوعلموا زواله وانقطاعه ، لنغَّص عليهم ذلك نعيمهم ، ولم يكن هناءً لهم .

ثم ذكر مجالسهم وهيئاتهم فيها فقال (٥٢ الطور : مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ ٢٠) وفى ذكر اصطفافها تنبيه على كمال النعمة عليهم بقرب بعضهم من بعض ، ومقابلة بعضهم بعضا . كما قال تعالى (٥٦ الواقعة : مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ١٦) فإن من تمام اللذة والنعيم ، أن يكون مع الإنسان ، فى بستانه ومنزله ، من يحب معاشرته ، ويؤثر قربه ، ولا يكون بعيداً منه ، قد حيل بينه وبينه ، بل سريره إلى جانب سرير من يحبه .

وذكر أَزواجهم ، وأَنهم الحور العين ، وقد تكرر وصفهم فى القرآن بهاتين الصفتين .

قال أَبو عبيدة : جعلناهم أَزواجا ، كما يزوج البعل بالبعل ، جعلناهم اثنين اثنين .

وقال يونس : قرنَّاهم بهن . وليس من عقد التزويج .

واحتج على هذا ، بأَن العرب لاتقول ، تزوجت بها ، وإنما تقول تزوجتها .

قال تعالى (٣٣ الأَحزاب : فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا ٣٧)

وفى الحديث « زوجتكها ، بما معك من القرآن » .

وقال غيره : العرب تقول : تزوجت بامرأَة .

وقال الأَزهرى : العرب تقول : زوجته امرأَة ، وتزوجت امرأَة ، وليس فى كلامهم ، تزوجت بامرأَة . ومنه قوله تعالى (٥٢ الطور : وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ٢٠) أَى قرَنَّاهم .

وعلى هذا « فزوجناهم » عند هؤلاء ، من الاقتران والشفع ، أَى : شفعناهم وقَرنَّاهُمْ بهن .

وقالت طائفة ، منهم مجاهد : زوجناهم بهن ، أَى : أَنكحناهم إياهن .

قلت : وعلى هذا ، فتلويح فعل التزويج ، قددل على النكاح ، وتعديته بالباءِ المتضمنة معنى الاقتران والضم ، فالقولان واحد . والله أَعلم .

وأَما الحور العين ، فقال مجاهد : التى يحار فيها الطرف باديًا مُخُّ سوقهن من وراءِ ثيابهن ، ويرى الناظر وجهه ، فى كَبد إحداهن كالمرآة ، من رقة الجلد ، وصفاءِ اللون .

وقال قتادة بِحُورٍ ، أَى بِيضٍ . وكذا قال ابن عباس

وقال مقاتل : الحور : البيض الوجوه ، العين : الحسان الأَعين . وعين حوراءُ : شديدة السواد ، نقية البياض ، طويلة الأَهداب مع سوادها ، كاملة الحسن .

ولا تسمى المرأَة حوراءَ ، حتى يكون مع حَوَرِ عينها ، بياض لون الجسد .

فوصفهن بالبياض والحسن والملاحة ، كما قال (٥٥ الرحمن : فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ٧٠) .

فالبياض فى ألوانهن ، والحسن ، فى وجوههن ، والملاحة ، فى عيونهن .

وقد وصف الله سبحانه ، نساءَ أَهل الجنة ، بأَحسن الصفات ، ودل بما وصف ، بما سكت عنه .

فإن شئت التفصيل ، فالذى يحمد ويستحب من وجه المرأَة وبدنها وأَخلاقها ، البياض فى أَربعة أَشياءَ : اللون ، وبياض العين ، والفرق ، والثغر .

والسواد فى أَربعة ، سواد العين ، وسواد شعر الرأْس والجفن ، وسواد الحاجبين .

والحمرة فى أَربعة : اللسان ، والشفتين ، والوجنتين ، وحمرة تشوب البياض ، فتحسنه وتزينه .

ومن التدوير : أَربعة أَشياءَ ، الوجه ، والرأْس ، والكعب ، والمقعد .

ومن الطول أَربعة : القامة ، والعنق ، والشعر ، والحاجب .

والسعة فى أَربعة : الجبهة ، والعين ، والوجه ، والصدر .

ومن الصغر فى أَربعة : الثدى ، والفم ، والكف ، والقدم .

ومن الطيب فى أربعة : الفم ، والأنف ، والفرق ، والفرج .

ومن الضيق فى موضع واحد (١) .

ومن الأخلاق كما قال تعالى (٥٦ الواقعة : عُرُبًا أَتْرابًا ٣٧) إذ العُرُب جمع « عَرُوب » وهى المرأة المتحببة إلى زوجها ، بأخلاقها ، ولطافتها ، وشمائلها .

قال ابن الأعرابى : العروب من النساء(٢) ، المطيعة لزوجها ، المتحببة إليه .

وقال أبو عبيدة : هى الحسنة التبعُّل .

قال المبرد : هى العاشقة لزوجها .

وقال البخارى فى صحيحه : هى الغنجة ،ويقال الشكلة .

فهذا وصف أخلاقهن . وذلك وصف خَلْقِهِنَّ .

وأنت إذا تأملت الصفات التى وصفهن الله بها ،

---

(١) قوله (ومن الضيق إلخ) يقصد فى الموضع الواحد (فرج المرأة) كما صرح بذلك الأدباء فى كتبهم .

(٢) قال فى المختار من الصحاح :

والعروب من النساء بوزن « العروس » المحببة إلى زوجها ، والجمع عُرُب . بضمتين اهـ .

رأيتها مستلزمة لهذه الصفات ، ولما وراءها . والله المستعان .

(٧٥) فصل

ثم أخبر سبحانه عن تكميل نعيمهم بإلحاق ذُرِّيَّاتِهِمْ بهم فى الدرجة ، وإن لم يعملوا أعمالهم ، لِتَقَرَّ أعينهم بهم ، ويتم سرورهم وفرحهم . وأخبر سبحانه أنه لم ينقص الآباءَ من عملهم من شيءٍ بهذا الإلحاق فينزلهم من الدرجة العليا إلى الدرجة السفلى ، بل ألحق الأَبناءَ بالآباءِ ، ووفَّر على الآباءِ أُجورهم ودرجاتهم .

ثم أخبر سبحانه أن هذا إنما هو فعله فى أهل الفضل ، وأما أهل العدل فلايفعل بهم ذلك ، بل (٥٢ الطور : كُلُّ امْرِىءٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ٢١) .

ففِى هذا ، دفع لتوهم التسوية بين الفريقين بهذا الإلحاق ، كما فى قوله : (٥٢ الطور : وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْىءٍ ٢١) دفْعٌ لتوهم حط الآباءِ إلى درجة الأَبناءِ ، وقسمة أُجور الآباءِ بينهم وبين الأَبناءِ ، فينقص أَجر أَعمالهم ، فرفع هذا التوهم بقوله (وما أَلتناهم من عملهم من شيءٍ) أَى : مانقصناهم ،

ثم ذكر إمدادهم باللحم والفاكهة والشرب ، وأنهم يتعاطون كؤوس الشراب بينهم ،يشرب أحدهم ويناول ، صاحبه ، ليتم بذلك فرحهم وسرورهم .

ثم نزه ذلك الشراب عن الآفات ، من اللغو من أهله عليه ، ولحوق الإثم لهم فقال (٥٢ الطور : لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ٢٣) .

فنفى باللغو ، السِّباب ، والتخاصم ، والهجر والفحش فى المقال ، والعربدة .

ونفى بالتأْثيم ، جميع الصفات المذمومة التى أَثَّمت شارب الخمر .

وقال سبحانه (ولا تأْثيم) ولم يقل « ولا إِثْم » ، أَى : ليس فيها مايحملهم على الإثم ولا يُؤثم بعضهم بعضا بشربها ، ولا يؤثمهم الله بذلك ، ولا الملائكة فلايلغون ، ولا يأْثمون .

قال ابن قتيبة : لايذهب بعقولهم فيلغوا ، ولم يقع منهم مايؤثمهم .

ثم وصف خَدَمَهُمْ ، الطائفين عليهم ، بأَنهم كاللؤلؤ فى بياضهم ، والمكنون : المصون ، الذى لاتدنسه الأَيدى .

فلم تذهب الخدمة تلك المحاسن ، وذلك اللون ، والصفاء والبهجة .

بل مع انتصابهم لخدمتهم ، كأنهم لؤلؤ مكنون .

ووصفهم فى موضع آخر (٧٦ الإنسان : إِذَا رَأَيْتَهَمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً ١٩) .

ففى ذكره المنثور ، إشارة إلى تفرقهم فى حوائج ساداتهم وخدمتهم ، وذهابهم ، ومجيئهم ، وسعة المكان ، بحيث لايحتاجون أن ينضم بعضهم إلى بعض فيه ، لضيقه .

ثم ذكر سبحانه ، ما يتحدثون به هناك ، وأنهم يقولون :

(٥٢ الطور : إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِى أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ٢٦) أى : كنا خائفين فى محل الأمن ، بين الأهل والأقارب والعشائر .فأوصلنا ذلك الخوف والإشفاق إلى أن مَنَّ الله علينا ، فَأَمِنَّامما نخاف (٥٢الطور :وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ٢٧) .

وهذا ضد حال الشقى ، الذى كان فى أهله مسرورا . فهذا كان مسرورا مع إساءته .

وهؤلاءِ ، كانوا مشفقين مع إحسانهم .

فبدل الله سبحانه ، إشفاقهم بأعظم الأَمن ، وبدل أَمْنَ أُولئك ، بأعظم المخاوف. فبالله سبحانه ، المستعان.

ثم أَخبر عن حالهم فى الدنيا . وأَنهم كانوا يعبدون الله فيها .

فأَوصلتهم عبادته وحده ، إلى قربه وجواره ، ومحل كرامته .

والذى جمع لهم ذلك كله ، بِرُّه ورحمته ؛ فإنه هو البَرُّ الرحيم .

فهذا هو المُقْسَم عليه بتلك الأَقسام الخمسة ، فى أَول السورة . والله أَعلم .

(٧٦) فصل

ومن ذلك قوله (٥١ الذاريات : وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً ١ فَالْحَامِلَاتِ وِقْراً ٢ فَالْجَارِيَاتِ يُسْراً ٣ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً ٤)

أَقسم بالذاريات ، وهى الرياح تذرو المطر ، وتذرو التراب ، وتذرو النبات إذا تهشَّم ، كما قال تعالى (١٨ الكهف : فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ٤٥)

أَى : تفرقه وتنشره .

ثم بما فوقها ، وهى : السحاب ، الحاملات وقراً ، أى : ثِقْلاً من الماءِ ،وهى روايا الأرض ، يسوقها الله سبحانه ، على متون السحاب الرياح . كما فى جامع الترمذى من حديث الحسن عن أبى هريرة قال :

بينما نَبىُّ الله ، صلى الله عليه وسلم ، جالس فى أَصحابه إذ أتى عليهم سحابٌ .

فقال نبى الله ، صلى الله عليه وسلم « هل تدرون ماهذا ؟ » .

قالوا : الله ورسوله أعلم .

قال : « هذا العنان ، هذه روايا الأَرض ، يسوقها الله تبارك وتعالى إلى قوم لايشكرونه ، ولايدعونه » .

ثم أَقسم سبحانه بما فوق ذلك ، وهى (الجاريات يسرا) . وهى النجوم التى من فوق الغمام ، و(يسرا) أى : مسخرة مذللة منقادة .

وقال جماعة من المفسرين : إنها السفن ، تجرى ميسرة فى الماءِ جريا سهلا . ومنهم من لم يذكر غيره .

واختار شيخنا رحمه الله ، القول الأَول . وقال : هو أَحسن فى الترتيب ، والانتقال من السافل إلى العالى ؛

فإنه بدأ بالرياح ، وفوقها السحاب ، وفوقه النجوم ، وفوقها الملائكة المقسمات أمر الله ، الذى أُمِرْت به ، بين خلقه .

والصحيح أن (المقسمات أمرا) لاتختص بأربعة .

وقيل : هم جبريل ، يقسم الوحى والعذاب ، وأنواع العقوبة ، على من خالف الرسل .

وميكائيل ، على القَطْرِ والْبَرَدِ ، والثلج ، والنبات ، يقسمها بأمر الله .

وملك الموت ، يقسم المنايا بين الخلق بأمر الله

وإسرافيل ، يقسم الأرواح على أبدانها ، عند النفخ فى الصور ، وهم المدبرات أمرا .

وليس فى اللفظ مايدل على الاختصاص بهم . والله أعلم

وأقسم سبحانه بهذه الأُمور الأَربعة ، لمكان العبرة والآية ، والدلالة الباهِرة على ربوبيته ووحدانيته ، وعظم قدرته .

فى الرياح ، من العبر : هبوبها وسكونها ، ولينها وشدتها ، واختلاف طبائعها وصفاتها ومهابِّها وتصريفها ، وتنوع منافعها ، وشدة الحاجة إليها .

فللمطر خمسة رياح : ريح ينشر سحابه ، وريح يؤلف بينه ، وريح تلقحه ، وريح تسوقه حيث يريد الله ، وريح تذرو أمامه وتفرقه .

وللنبات ريح ، وللسفن ريح ، وللرحمة ريح ، وللعذاب ريح ، إلى غير ذلك من أنواع الرياح .

وتلك تقضى بوجود خالق مصرف لها مدبر لها ، يصرفها كيف يشاءُ .

ويجعلها رُخَاءً تارة ، وعاصفة تارة ، ورحمة تارة ، وعذابا تارة .

فتارة يحيي بها الزرع والثمار ، وتارة يغطيها بها ، وتارة ينجى بها السفن ، وتارة يهلكها بها ، وتارة ترطب الأَبدان ، وتارة تذيبها ، وتارة عقيما ، وتارة لاقحة ، وتارة جنوبا ، وتارة دَبورا (١) ، وتارة صبا(٢) ، وتارة شمالا ، وتارة حارة ، وتارة باردة .

---

(١) قال فى المختار من الصحاح :
الدبور : ريح تقابل الصبا اهـ أى : ريح تهب من الغرب .

(٢) الصبا : ريح تهب من مطلع الشمس إذا استوى الليل والنهار اهـ . من المختار من الصحاح (أى ريح تهب من الشرق) .

وهى - مع غاية قوتها - ألطف شىء ، وأقبل المخلوقات لكل كيفية .

سريعة التأثُّر والتأْثير ، لطيفة المسارق بين السماء والأَرض .

إذا قُطِعَتْ عن الحيوان ، الذى على وجه الأَرض هلك ، كبحر الماءِ ، الذى إذا فارقه حيوان الماءِ ، هلك .

يحبسها الله سبحانه ، إذا شاءَ ، ويرسلها إذا شاءَ .

تحمل الأَصوات إلى الآذان ، والرائحة إلى الأَنف . والسحاب إلى الأَرض الجرز .

وهى من روح الله ، تأْتى بالرحمة ، ومن عقوبته ، تأْتى بالعذاب ، وهى أَقوى خلق الله ، كما رواه الترمذى فى جامعه ، من حديث أَنس بن مالك ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

لما خلق الله الأَرض ، جعلت تميد . فخلق الجبال ، فقال بها عليها ، فاستقرت ، فعجبت الملائكة من شدة الجبال وقالوا : يارب ، هل من خلقك شىءٌ أَشد من الجبال ؟ قال : نعم ، الحديد .

قالوا : يارب ، فهل من خلقك شىءٌ أَشد من الحديد ؟ قال : نعم ، النار .

قالوا : يارب ، فهل من خلقك شيءٌ أشد من النار ؟
قال : نعم ، الماءُ .

قالوا : يارب ، فهل من خلقك أَشد من الماء ؟
قال : نعم ، الريح .

قالوا : يارب ، فهل من خلقك أَشد من الريح ؟
قال : نعم ، ابن آدم ، تصدق بصدقة بيمينه ، يخفيها عن شماله » ورواه الإمام أَحمد فى مسنده .

وفى الترمذى ، فى حديث قصة عاد ، أَنه لم يرسل عليهم من الريح ، إلا قدر حلقة الخاتم ، فلم تذر من شيء أَتت عليه ، إلا جعلته كالرميم ، وقد وصفها الله بأَنها عاتية .

قال البخارى فى صحيحه : عتت على الخزنة ، فلم يستطيعوا أَن يردوها .

والمقصود أَن الرياح من أَعظم آيات الرب الدالة على عظمته ، وربوبيته وقدرته .

(٧٧) فصل

ثم أَقسم بالسحاب ، وهو من أَعظم آيات الله فى الجو. فى غاية الخفة ، ثم يحمل الماءَ والبرد ، فيصير أَثقل شيء

فيأمر الرياح ، فتحمله على متونها ، وتسير به حيث أمرت .

فهو مسخر بين السماء والأرض ، حامل لأرزاق العباد والحيوان .

فإذا أفرغه حيث أمر به ، اضمحل وتلاشى بقدرة الله ، فإنه لو بقى ، لأضرّ النبات والحيوان .

فأنشأه سبحانه ، فى زمن يصلح إنشاؤه فيه ، وحمّله من الماء ما يحمله ، وساقه إلى بلد شديد الحاجة إليه

فَسَلِ السحاب ، من أنشأه بعد عدمه ؟ وحمّله الماء والثلج والبرد ؟

ومن حمله على ظهور الرياح ؟ ومن أمسكه بين السماء والأرض بغير عماد ؟

ومن أغاث بقطره العباد ، وأحيا به البلاد ، وصرفه بين خلقه كما أراد ، وأخرج ذلك القطر بقدر معلوم ، وأنزله منه ، وأفناه بعد الاستغناء عنه ، ولو شاء لأدامه عليهم ، فلم يستطيعوا إلى دفعه سبيلا ، ولو شاء لأمسكه عنهم ، فلا يجدون إليه وصولا .

فإن لم يجبك جوابا حباك اعتبار مرسل (١) الرياح ، من أنشأها بقدرته ؟ وصرفها بحكمته ،وسخرها بمشيئته ، وأرسلها بشرا بين يدى رحمته ، جعلها سببا لتمام نعمته ، وسلطانا على من شاء بعقوبته ؟

ومن جعلها رُخَاءً ، وذارية . ولاقحة ، ومثيرة ، ومؤلفة ، ومغذية لأبدان الحيوان ، والشجر ، والنبات ، وجعلها قاصفا ،وعاصفا ،ومهلكة وعاتية ؟ إلى غير ذلك من صفاتها ؟ .

فهل ذلك لها من نفسها وذاتها ، أم تدبير مدبر ، شهدت الموجودات بربوبيته ، وأقرت المصنوعات بوحدانيته ، بيده النفع والضر ، وله الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين ؟

وسل الجاريات يسراً من السفن : من أمسكها على وَجْهِ الماءِ ، وسخر لها البحر ؟

ومن أرسل لها الرياح ، التى تسوقها على الماءِ ، سَوْق السحاب على متون الرياح ؟

---

(١) هكذا فى الأصل ، وهو خطأ شنيع ، وصوابه : « فإن لم يجبك حواراً أجابك اعتباراً ؛ وسل الرياح — إلخ » أبو رجاء محيي الدين عبد الحميد . رحمه الله .

ومن حفظها ، فى مجراها ومرساها ، من طغيان الماء ، وطغيان الريح ؟

فمن الذى جعل الريح لها بقدر ، لو زاد عليها لأغرقها ، ولو نقص عنه لعاقها ؟

ومن الذى أجرى لها ريحا واحدة ، تسير بها ، ولم يسلط على تلك الريح مايصادمها ويقاومها ، فتتموج فى البحر يمينا وشمالا ، تتلاعب بها الريح ؟

ومن الذى علم الخلق الضعيف ، صنعة هذا البيت العظيم ، الذى يمشى على الماء ، فيقطع المسافة البعيدة ، ويعود إلى بلده ، يشق الماء ويمخره ، مقبلا ومدبراً ، بريح واحدة ، تجرى فى موج كالجبال (٤٢ الشورى : وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَار فى الْبَحْر كَالْأَعْلَام ِ ٣٢ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ٣٣ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ٣٤) .

ومن الذى حمل فى هذا البيت ، نبيه وأولياءه خاصة ، وأغرق جميع أهل الأرض سواهم ؟

وسل الجاريات يُسْرًا من الكواكب ، والشمس ، والقمر .

من الذى خلقها ، وأَحسَن خلقها ، ورفع مكانها ، وزيَّن بها قبة العالم ، وفاوت بين أَشكالها ، ومقاديرها ، وأَلوانها ، وحركاتها ، وأَماكنها من السماءِ ؟ ، فمنها الكبير ،ومنها الصغير ، والمتوسط ، والأَبيض ،والأَحمر والزجاجى اللون ، والدُّرِّىُّ اللون ، والمتوسط فى قبة الفلك ، والمتطرف فى جوانبها ، وبين ذلك ؟

ومنها مايقطع الفلك فى شهر ، ومنها مايقطعه فى عام ، ومنها مايقطعه فى ثلاثين عاما ، ومنها مايقطعه فى أَضعاف ذلك . ومنها مالا يزال ظاهراً لايغيب بحال ، فهو أَبدى ، ومنها أَبَدِىُّ الخفاءِ .

ومنها ماله حالتان ، ظهور واختفاءٌ ، ومنها ماله حركتان ، حركة عرضية من المشرق إلى المغرب ، وحركة ذاتية من المغرب إلى المشرق .

فحالما يأْخذ الكوكب فى الغروب ، فإذا كوكب آخر فى مقابلته ، وكوكب آخر قد طلع ، وهو آخذ فى الارتفاع والتصاعد .

وكوكب آخر فى الربع الشرقىّ ، وكوكب آخر فى وسط السماء ، وكوكب آخر ، قد مال عن الوسط ، وآخر قد دنا من الغروب ، وكأنه رقيبه ينتظر بطلوعه غيبتــه .

وأنت إذا تأملت أحوال هذه الكواكب ، وجدتها تدل على المعاد ، كما تدل على المبدإ ، وتدل على وجود الخالق ، وصفات كماله ، وربوبيته وحكمته ، ووحدانيته أعظم دلالة .

وكل مادل على صفات جلاله ونعوت كماله ، دَلَّ على صدق رسله .

فكما جعل الله النجوم هداية فى طريق البر والبحر ، فهى هداية فى طريق العلم بالخالق سبحانه ، وقدرته وعلمه ، وحكمته ، والمبدإ والمعاد ، والنبوة .

ودلالتها على هذه المطالب ، لاتقصر عن دلالتها ، على طرق البر والبحر .

بل دلالتها للعقول على ذلك ، أظهر من دلالتها على الطرق الحسية . فهى هداية فى هذا وهذا .

(٧٨) فصل

وأما دلالة (٥١ : الذاريات : فالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً ٤) وهم : الملائكة ، فَلِأَنَّ ما يشاهد من تدبير العالم العلوى والسفلى ، وما لايشاهد ، إنما هو على أيدى الملائكة .

فالرب تعالى ، يدبر بهم أمر العالم ، وقد وكَّل بكل عمل من الأعمال ، طائفة منهم .

فوكل بالشمس والقمر والنجوم ، والأفلاك ، طائفة منهم .

ووكل بالقطر والسحاب ، طائفة ، ووكل بالنبات طائفة ، ووكل بالأَجِنَّة والحيوان ، طائفة .

ووكل بالموت طائفة ، وبحفظ بنى آدم طائفة .

وبإحصاء أعمالهم وكتابتها ، طائفة .

وبالوحى ، طائفة ، وبالجبال طائفة .وبكل شأن من شئون العالم ، طائفة .

هذا ، مع مافى خلق الملائكة ، من البهاء والحسن ، ومافيهم من القوة والشدة ، ولطافة الجسم ، وحسن الخلقة ، وكمال الانقياد لأمره ، والقيام فى خدمته ، وتنفيذ أوامره فى أقطار العالم .

ثم أقسم سبحانه بهذه الأمور على صدق وعده ، ووقوع جزائه بالثواب والعقاب فقال : (٥١ الذاريات : إِنَّمَا تُوعَدُون لصَادِقٌ ٥) أى : ما توعدون من أمر الساعة ، والثواب والعقاب ، لحقٌّ كائن ، وهو وعد صدق لا كذب.

(٥١ الذاريات وَإِنَّ الدِّين لوَاقِعٌ ٦) أى : إن الجزاء لكائن لا محالة .

ويجوز أن تكون (ما) موصولة ، والعائدمحذوف .

والمعنى : إن الذى توعدونه لصادق ، أى : كائن وثابت .

وأن تكون مصدرية ، أى : إن وعدكم ، لَحقٌّ وصدق .

وَوَصْفُ الوعد بكونه صادقا ، أَبْلَغُ من وصفه بكونه صدقا .

ولا حاجة إلى تكلُّف جعله بمعنى : مصدوق فيه ، بل هو صادق نفسه .

كما يوصف المتكلم بأنه صادق فى كلامه . فوصف كلامه بأنه صادق .

وهذا مثل قولهم : سر كاتم ، وليل قائم ، ونهار صائم وماءٌ دافق .

ومنه (٦٩ الحاقة : فَهُوَ فِى عيشةٍ راضيةٍ٢١) وليس ذلك بمجاز ، ولامخالف لمقتضى التركيب .

واذا تأملت هذا التناسب والارتباط بين المقسم به والمقسم عليه ، وجدته دالًّا عليه ، مرشدا إليه .

ثم أَقسم سبحانه ٥١ الذاريات : بـ(بالسَّماءِ ذَاتِ الْحُبُكِ٧).

أَصل الحبك فى اللغة ، إجادة النسج . يقال : حبك الثوب ، إذا أَجاد نسجه ، وحبل محبوك ، إذا كان شديد الفتل ، وفرس محبوك الكفل ، أَى : مدمجه .

وقال شمر : المحبوك فى اللغة ، ما أُجيد عمله . ودابة محبوكة : إذا كانت مدمجة الخلق .

وقال أَبو عبيدة ، والمبرد : الحبك : الطريق ، واحدها : حباك ، وحباك الحمام : طرائق على جناحيه . وحبك الماءِ ، طريقه .

وقال الفراءُ : الحبك : تكسير كل شيءٍ ، كالرمل ، إذا مرت به الريح ، والماء الدائم ، إذا مرت به الريح . وتجعد الشعر : حبك أَيضا ، واحدها حبيكة ، مثل طرق وطريقة ، وحِباك مثل « مِثال » و « مُثُل » .

والمقصود ، بهذا كله ، ما أفصح به ابن عباس ، فقال : يريد الخلق الحسن .

وروى سعيد بن جبير عنه قال : الحبك : حسنها واستواؤها .

وقال قتادة : ذات الخلق الشديد .

وقال مجاهد : متقنة البنيان . وقال أيضاً : ذات الطرائق ولكنها بعيدة من العباد فلا يرونها ، كحبك الماء ، إذا ضربته الريح ، وكحبك الرمل ، وكحبك الشعر .

وقال عكرمة : بنيانها كالبرد المسلسل .

قلت : وفى الحديث فى صفة الدجال « ورأسه حُبُكٌ » أى : جعد الشعر .

ومن أحسن ماقيل فى تفسير الحبك ، ماذكره الترمذى فى تفسير الجامع ، من حديث الحسن ، عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« هل تدرون مافوقكم ؟ » .

قالوا : الله ورسوله أعلم .

قال : « فإنها الرَّقِيعُ سَقْفٌ محفوظ ، وموج مكفوف ، وذكر الحديث (١) .

---

(١) روى الترمذى فى تفسير « سورة الحديد » عن الحسن عن أبى هريرة قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس وأصحابه ، إذ أتى عليهم سحاب .

فقال نبى الله صلى الله عليه وسلم : « هل تدرون هذا ؟ » .

قالوا : الله ورسوله أعلم .

قال : « هذا العنان . هذه روايا الأرض ، يســوقها الله إلى قوم لا يشكرونه ولا يدعونه » .

ثم قال : « هل تدرون ما فوقكم ؟ » .

قالوا : الله ورسوله أعلم .

قال : « فإنها الرقيع ، سقف محفوظ ، وموج مكفوف » .

ثم قال : « هل تدرون كم بينكم وبينها ؟ » .

قالوا : الله ورسوله أعلم .

قال : «بينكم وبينها ،خمسمائة سنة » .

ثم قال : « هل تدرون ما فوق ذلك ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم .

قال : « فإن فوق ذلك سماءين ، ما بينهما مسيرة خمسمائة عام » .

حتى عد سبع سموات ، ما بين كل سماءين ، ما بين السماء والأرض .

ثم قال : « هل تدرون ما فوق ذلك » قالوا : الله ورسوله أعلم .

قال : « فإن فوق ذلك ، العرش ، بينه وبين السماء بعد ما بين السماءين » .

ثم قال : « هل تدرون ما الذى تحتكم ؟ » : قالوا : الله ورسوله أعلم .

ثم قال : « فإنها الأرض » . =

(٧٩) فصل

ثم ذكر المقسم عليه فقال : (٥١ الذاريات : إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ٨ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ٩) .

فالقول المختلف : أقوالهم فى القرآن ، وفى النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو خِرْصٌ (١) كله .

فإنهم لما كذبوا بالحق ، اختلفت مذاهبهم ، وآراؤهم وطرائقهم ، وأقوالهم .

= ثم قال : « هل تدرون ما الذى تحت ذلك ؟ » . قالوا : الله ورسوله أعلم .

قال : « فإن تحتها أرضاً أخرى ، بينهما مسيرة خمسمائة سنة » . حتى عد سبع أرضين ، بين كل أرْضَينِ ، مسيرة خمسمائة سنة .

ثم قال : « والذى نفس محمد بيده ، لو أنكم دليتم بحبل إلى الأرض السفلى ، لهبط على الله » .

ثم قرأ (هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم) قال الترمذى : هذا حديث غريب من هذا الوجه . ويروى عن أيوب ويونس بن عبيد ، وعلى بن زيد .

قالوا : لم يسمع الحسن من أبى هريرة .

وفسر بعض أهل العلم هذا الحديث ، فقالوا :

إنما هبط على علم الله وسلطانه ، وعلم الله وقدرته وسلطانه ، فى كل مكان ، وهو على العرش ، كما وصف فى كتابه ا هـ .

(١) خرص : أى : كذب.

فإن الحق شيءٌ واحد ، وطريق مستقيم .

فمن خالفه ، اختلفت به الطرق والمذاهب ، كما قال تعالى (٥٠ قٓ : بَلْ كَذَّبُوا بالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فِى أَمْرٍ مَرِيجٍ ٥) أى : مختلط ملتبس .

وفى ضمن هذا الجواب : أنكم فى أقوال باطلة متناقضة ، يكذب بعضها بعضاً ، بسبب تكذيبهم بالحق .

ثم أَخبر سبحانه ، أَنه يَصْرِفُ بسبب ذلك القول المختلف ، من صُرِفَ .

ف « عن » ههنا ، فيها طرف من معنى التسبيب ، كقوله (١١هود : وَمَا نَحْنُ بتَارِكِى آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ ٥٣) .

وقوله (مَنْ أُفِكَ) أَى من سبق فى علم الله أَنه يضل ، ويؤفك .

كقوله (٣٧ الصافات : فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ١٦١ مَا أَنْتُمْ عَلَيهِ بفَاتِنِينَ ١٦٢ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ١٦٣) .

وقالت طائفة : الضمير يرجع إلى القرآن ، وقيل : إلى الإيمان ، وقيل إلى الرسول .

والمعنى ، يصرف عنه من صرف ، حتى يكذب به .

ولما كان هذا القول المختلف ، خرصا وباطلا قال .

(٥١ الذاريات : قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ١٠) أى المكذبون

(٥١ الذاريات الَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ١١)

وجهالة قد غمرت قلوبهم أى : غطتها وغشتها ، كغمرة الماءِ ، وغمرة الموت .

فالغمرات : ماغطاها من جهل ، أو هوى ، أوسكر ، أو غفلة ، أو حُبٍّ ، أَو بغض ، أَو خوف ، أَوغم ، ونحو ذلك .

قال تعالى (٢٣ المؤمنون : بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا ٦٣) أَى : غفلة ، وقيل : جهالة .

ثم وصفهم بأَنهم ساهون فى غمرتهم .

والسهو : الغفلة عن الشيءِ ، وذهاب القلب عنه .

والفرق بينه وبين النسيان ، أَن النسيان : الغفلة بعد الذكر والمعرفة .

والسهو ، لايستلزم ذلك .

ثم قال (٥١ الذاريات : يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ؟ ١٢) استبعاداً للوقوع ، وجحدا .

فأَخبر تعالى أَن ذلك (٥١ الذاريات : يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ١٣) .

والمشهور فى تفسير هذا الحرف ، أنه بمعنى : يحرقون ولكن لفظة «على» تعطى معنى زائدا على ماذكروه .

ولو كان المراد ، نفس الحرق ، لقيل : يوم هم فى النار يفتنون .

ولهذا ، لما علم هؤلاءِ ذلك ، قال كثير منهم : «على» بمعنى « فى » كما تكون « فى » بمعنى « على » .

والظاهر أَن فتنتهم على النار ، قيل فتنتهم فيها لهم ، عند عرضهم عليها ، ووقوفهم عليها فتنة ، وعند دخولهم ، والتعذيب بها ، فتنة أَشد منها .

ومن جعل الفتنة ههنا ، من الحريق ، أَخذه من قوله تعالى (٨٥ البروج : إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا ١٠) واستشهد على ذلك أَيضا بهذه اللفظة ، التى فى « الذاريات » .

وحقيقة الأَمر أَن الفتنة تطلق على العذاب وسببه ، ولهذا سمى الله الكفر : فتنة .

فهم لما أَتوا بالفتنة ، التى هى أَسباب العذاب فى الدنيا ، سمى جزاءَهم فتنة .

ولهذا قال (٥١ الذاريات : ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ ١٤) .

وكان وقوفهم على النار ، وعرضهم عليها ، من أعظم فتنتهم .

وآخر هذه الفتنة ، دخول النار والتعذيب بها .

ففتنوا أولاً ، بأسباب الدنيا وزينتها . ثم فتنوا بإرسال الرسل إليهم .

ثم فتنوا بمخالفتهم وتكذيبهم ، ثم فتنوا بعذاب الدنيا .

ثم فتنوا بعذاب الموت ، ثم يفتنون فى موقف القيامة .

ثم إذا حشروا إلى النار ، ووقفوا عليها ، وعرضوا عليها ، وذلك من أعظم فتنتهم .

ثم الفتنة الكبرى ، التى أنستهم جميع الفتن قبلها .

(٨٠) فصل

ثم ذكر سبحانه ، جزاءَ من خلص من هذه الفتن بالتقوى ، وهو الجنات والعيون ، وأنهم (آخذون ما آتاهم ربهم (١)) من الخير والكرامة .

---

(١) ما بين القوسين ليس لفظ الآية ، وإنما هو من تمام نظم الأسلوب من المؤلف ونص الآية . (٥١ الذاريات : آخذينَ مَا آتاهُمْ رَبهُمْ إنهُمْ كانُوا قبْلَ ذَلكَ مُحْسنين ١٦) .

وفى ذلك دليل على أمور :

منها : قبولهم له . ومنها : رضاهم به .

ومنها : وصولهم إليه ، بلا مانع ولاعائق .

ومنها : أَن جزاءَهم من جنس أَعمالهم .

فكما أَخذوا ماأَمرهم به فى الدنيا وقابلوه بالرضا والتسليم وانشراح الصدر ، أَخذوا ماآتاهم من الجزاء كذلك .

ثم ذكر السبب الذى أَوصلهم إلى ذلك ، وهوإحسانهم المتضمن لعبادته وحده لاشريك له ، والقيام بحقوقه ، وحقوق عباده . ثم ذكر ليلهم وأَنهم قليل هجوعهم منه .

وقد قيل : إن (ما) نافية ، والمعنى : مايهجعون قليلا من الليل ، فكيف بالكثير ؟ وهذا ضعيف لوجوه .

(أَحدها) أَن هذا ليس بلازم لوصف المتقين ، الذين يستحقون هذا الجزاءَ .

(الثانى) أَن قيام من نام من الليل نصفه ، أَحب إلى الله ، من قيام من قامه كله .

(الثالث) أَنه لو كان المراد بذلك إحياءُ الليل

جميعه ، لكان أولى الناس بهذا ، رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وماقام ليلة حتى الصباح .

(الرابع) أن الله سبحانه إنما أمر رسوله أن يتهجد بالقرآن من الليل لا فى الليل كله ، فقال (١٧ الإسراء : وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ ٧٩) .

(الخامس) أنه سبحانه لما أمره بقيام الليل فى سورة المزمل ، إنما أمره بقيام النصف ، أو النقصان منه ، أو الزيادة عليه .

فذكر له هــــذه المراتب الثلاثة ، ولم يذكر قيامه كله .

(السادس) أنه صلى الله عليه وسلم ، لما بلغه عن عثمان بن مظعون ، أنه لاينام من الليل ، بعث إليه فجاء فقال :

يا عثمان ، أرغبت عن سنتى ؟ » .

قال : لا والله يارسول الله ، ولكن سنتك أطلب .

قال « فإنى أنام وأصلى ، وأصوم ، وأفطر ، وأنكح النساء ، فاتق الله ياعثمان ، فإن لأهلك عليك حقاً ، وإن

لضيفك عليك حقا ، وإن لنفسك عليك حقا ، فصم وأَفْطِرْ ، وصَلِّ ونَمْ (١) .

ولما بلغه عن زينب بنت جحش ، أنها تصلى الليل كله ، حتى جعلت حبلا بين ساريتين ، إذا فَتَرَتْ تَعَلَّقَتْ به ، أنكر ذلك وأمر بحله (٢) .

(السابع) أن الله أثنى عليهم بأنهم كانت (٣٢ السجدة : تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ١٦) وتقلق عنها حتى يقوموا إلى الصلاة ، ولهذا جازاهم عن هذا التجافى – الذى سببه قلق القلب واضطرابه ، حتى يقوم إلى الصلاة – بقرة الأعين .

(الثامن) أن الصحابة الذين هم أول ، وأولى من دخل فى هذه الآية – لم يفهموا منها عدم نومهم بالليل أَصْلًا .

فروى بجير بن سعد ، عن سعيد ، عن قتادة ، عن أنس فى قوله :

(٥١ الذاريات : كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَايَهْجَعُونَ ١٧)

قال : كانوا يصلون مابين المغرب والعشاء .

---

(١) رواه البخارى ومسلم ، وأبو داود ، والترمذى ، من حديث عائشة .

(١) رواه البخارى ومسلم ، عن أنس بن مالك .

(التاسع) أَن فى هذا التقرير ، تفكيكا للكلام ، وتقديما لمعمول العامل المنفى عليه ، لأَنك تجعل « قليلا» مفعول « يهجعون » ، وهو منفى ، والبصريون لا يجيزون ذلك ، وإن أَجازه الكوفيون .

وفصَّل بعضهم ، فأَجازه فى الظرف ، ولم يُجِزْهُ فى غيره .

(٨١) فصل

وقيل : « ما » زائدة ، وخبر كان (يَهْجَعُونَ).

و (قَلِيلاً) منصوب إما على المصدرية ، أَى : هجوعا قليلا . وإما على الظرف ، أَى زمنا قليلا .

واستشكل هذا ، بأَن نوم نصف الليل وقيام ثلثه ، ثم نوم سدسه ، أَحب القيام إلى الله . فيكون وقت الهجوع ، أَكثر من وقت القيام .

فكيف يُثْنَى عليهم ، بما الأَفضل خلافه ؟

وأَجيب عن ذلك ، بأَن من قام هذا القيام ، فزمن هجوعه ، أَقل من زمن يقظته قطعا . فإنه مستيقظ من المغرب إلى العشاءِ ، ومن الفجر إلى طلوع الشمس . فيبقى مابين العشاءِ ، إلى طلوع الفجر .

فيقومون نصف ذلك الوقت ، فيكون زمن الهجوع ، أقل من زمن الاستيقاظ .

وقيل : « ما » مصدرية ، وهى فى موضع رفع بـ « قليلا » أى كانوا قليلا هجوعهم . وهو قول الحسن .

وقيل : إنها موصولة بمعنى « الذى » ، والعائد محذوف. أى : قليلا من الليل ، الوقت الذى يهجعون . وفيه تكلف .

وقيل « مايهجعون » ، بدل اشتمال من اسم كان . والتقدير : كان هجوعهم من الليل قليلا .

ويرد عليه : أن « من الليل » متعلق بـ « يهجعون » ، ومعمول المصدر ، لايتقدم عليه .

وأجيب عنه ، أنه منصوب على التفسير .

ومعناه : أن يقدر له فعل محذوف ، ينصبه مفسره هذا المذكور ، و« قليلا » خبر « كان » . وتم الكلام بذلك .

والمعنى : كانوا صنفا ، أو جنسا قليلا .

ثم قال (مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ) .

وأصحاب هذا القول يجعلون « ما » نافية ، فيعود الكلام إلى نفى هجوعهم شيئا من الليل ، وقد تقدم مافيه .

ثم أَخبر عنهم ، بأَنهم — مع صلاتهم بالليل — كانوا يستغفرون الله عند السحر .

فختموا صلاتهم بالاستغفار والتوبة ، فباتوا لربهم سُجَّداً وقِيَامًا ، ثم تابوا إليه ، واستغفروه عقيب ذلك .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم ، إذا سلم من صلاته استغفر ثلاثا .

وأَمره الله سبحانه أَن يختم عمره ، بالاستغفار .

وأَمر عباده ، أَن يختموا إِفاضتهم من عرفات ، بالاستغفار .

وشرع ، صلى الله عليه وسلم للمتوضئ ، أَن يختم وضوءَه بالتوبة .

فأَحسن ماختمت به الأَعمال ، التوبة والاستغفار .

ثم أَخبر سبحانه عن إِحسانهم إلى الخلق ، مع إِخلاصهم لربهم . فجمع لهم بين الإِخلاص والإِحسان ، ضد (١٠٧ الماعون : : (الَّذِين هُمْ يُرآءُونَ ٦ وَيَمْنَعُون الْمَاعُونَ ٧)

وأَكد إِخلاصهم فى هذا الإِحسان ، بأَن مصرفه للسائل

والمحروم ، الذى لايقصد بإعطائه الجزاء منه ، ولا الشكور . والمحروم : المتعفف الذى لايسأل .

وتأمل حكمة الرب تعالى ، فى كونه حرمه بقضائه ، وشرع لأصحاب الجدة (١) إعطاءه ، وهو أغنى الأغنياء ، وأجود الأجودين .

فلم يجمع عليه ، بين الحرمان بالقدر وبالشرع .

شرع عطاءه بأمره ، وحرمه بقدره ، فلم يجمع عليه حرمانين .

(٨٢) فصل

ثم ذكرهم سبحانه ، بآياته الأفقية والنفسية ، فقال (٥١ الذاريات : وَفِى الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ٢٠ . وَفِى أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ؟ ٢١) .

فآيات الأرض أنواع كثيرة .

منها : خلقها وحدوثها ، بعد عدمها ، وشواهد الحدوث والافتقار إلى الصانع عليها ، لاتجحد . فإنها شواهد قائمة بها .

---

(١) أصحاب الجدة » أى الأغنياء . وفى هذا المعنى قال الشاعر :

إن الشَّبَابَ وَالْفَرَاغَ وَالْجِدَةَ   مُفْسِدَةٌ لِلْمَرْءِ أَىَّ مَفْسَدَة

ومنها : بروز هذا الجانب فيها عن الماء ، مع كون مقتضى الطبيعة ، أن يكون مغموراً به .

ومنها : سعتها ، وكبر خلقها .

ومنها تسطيحها ، كما قال تعالى (٨٨ الغاشية : وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ٢٠) ولاينافى ذلك كونها كُريَّة . فهى كرة فى الحقيقة ، لها سطح ، يستقر عليه الحيوان .

ومنها : أنه جعلها فراشا ، لتكون مقر الحيوان ومساكنه. وجعلها قرارا. وجعلها مهادا. وجعلها ذلولا، توطأُ بالأَقدام ، وتضرب بالمعاول ، والفئوس ، وتحمل على ظهرها الأَبنية الثقال .

فهى ذلول ، مسخرة لما يريد العبد منها .

وجعلها بساطاً وجعلها كفاتا للأَحياء ، تضمهم على ظهرها ، وللأَموات ، تضمهم فى بطنها .

وطحاها ، فمدها وبسطها ، ووسعها ودحاها ،

فهيأَها لما يرادمنها ، بأَن أَخرج منها ماءَهاومرعاها ، وشق فيها الأَنهار ، وجعل فيها السبل والفجاج .

ونبه بجعلها مهادا ، وفراشا ، على حكمته فى جعلها

ساكنة . وذلك آية أُخرى ، إذ لادعامة تحتها تمسكها ، ولا علاقة فوقها .

ولكنها لما كانت على وجه الماءِ ، كانت تكَفَّأُ فيه تَكُّفأَ السفينة .

فاقتضت العناية الأَزلية ، والحكمة الإلهية ، أَن وضع عليها رواسى يثبتها بها ، لئلا تميد ، وليستقر عليها الأَنام

وجعلها ذلولا على الحكمة فى أَن لم تكن فى غاية الصلابة والشدة ، كالحديد ، فيمتنع حفرها وشقها ، والبناءُ فيها ، والغرس ، والزرع ، وبعث النوم عليها ، والمشى فيها .

ونبه بكونها قراراً على الحكمة ، فى أَنها لم تُخلق فى غاية اللين والرخاوة والدماثة . فلا تمسك بناءً ، ولايستقر عليها الحيوان ولا الأَجسام الثقيلة .

بل جعلها بين الصلابة والدماثة .

وأَشرف الجواهر عند الإنسان ، الذهب ، والفضة ، والياقوت ، والزمرد .

فلو كانت الأَرض من هذه الجواهر ، لفاتت مصالح العباد والحيوان منها ، وتعطلت المنافع المقصودة منها .

وبهذا يعلم ، أن جواهر التراب ، أَشرف من هذه الجواهر وأَنفع وأَبرك ، وإن كانت تلك أَغلى وأَعز ، فغلاؤها وعزتها ، لِقِلَّتِهَا . وإلا ، فالتراب أَنفع منها ، وأَبْرَكُ وأَنْفَسُ .

وكذلك لم يجعلها شفافة ، فإن الجسم الشفاف ، لايستقر عليه النور .

وما كان كذلك ، لم يقبل السخونة ، فيبقى فى غاية البرد ، فلا يستقر عليه الحيوان ، ولا يتأَتى فيه النبات .

وكذلك لم يجعلها ، صقيلة براقة ، لئلا يحترق ما عليها ، بسبب انعكاس أَشعة الشمس ، كما يشاهد من احتراق القطن ونحوه ، عند انعكاس شعاع الجسم الصقيل الشفاف .

فاقتضت حكمته سبحانه ، أَن جعلها كثيفة غبراء ، فصلحت أَن تكون مستقرا للحيوان ، والأَنام والنبات .

ولما كان الحيوان الهوائى ، لايمكنه أَن يعيش فى الماء كالحيوان المائى ، أَبرز له جانبها كما تقدم ، وجعله على أَوفق الهيئات لمصالحه ، وأَنشأَ منها طعامه وقوته . وكذلك خلق منها النوع الإِنسانى ، وأَعاده إِليها ، ويخرجه منها .

(٨٣) فصل

ومن آياتها ، أَن جعلها مختلفة الأَجناس ، والصفات والمَنافع ، مع أَنها قِطَعٌ متجاورات ، متلاصقة .

فهذه سهلة ، وهذه حَزْنَة ، تجاورها وتلاصقها .

وهذه طيبة تنبت ، وتلاصقها أَرض لا تنبت .

وهذه تربة ، وتلاصقها رمال .

وهذه صلبة ، ويلاصقها ويليها رخوة .

وهذه سوداءُ ، وتليها أَرض بيضاءُ .

وهذه حَصًى كلها ، ويجاورها أَرض ، لايوجد فيها حجر .

وهذه تصلح لنبات كذا وكذا ، وهذه لاتصلح له بل تصلح لغيره .

وهذه سبخة مالحة . وهذه بضدها .

وهذه ليس فيها جبل ، ولا معلم . وهذه مسجرة بالجبال .

وهذه لاتصلح إلا على المطر . وهذه لا ينفعها المطر ، بل لاتصلح إلا على سَقْيِ الأَنْهار .

فيمطر الله سبحانه ، الماءَ على الأَرض البعيدة ، ويسوق الماءَ إِليها ، على وجه الأَرض .

فلو سأَلتها من نَوَّعها هذا التنوع ؟ ومن فَرَّق أَجزاءَها هذا التفريق ؟

ومن خصص كل قطعة منها ، بما خصها به ؟

ومن أَلقى عليها رواسيها ، وفتح فيها السبل ، وأَخرج منها الماءَ والمرعى ؟

ومن أَمسكها عن الزوالِ ؟ ومن بارك فيها ، وقدر فيها أَقواتها ، وأَنشأَ منها حيوانها ونباتها ؟

ومن وضع فيها معادنها وجواهرها ومنافعها ؟

ومن هيأَها مسكنا ، ومستقرًّا للأَنام ؟

ومن يبدأُ الخلق منها ، ثم يعيده إِليها ، ثم يخرجه منهـــا ؟

ومن جعلها ذَلُولاً ، غير مستعصية ، ولا ممتنعة ؟

ومن وطَّأَ مناكبها ، وذلل مسالكها ، ووسع مخارجها ، وشق أَنهارها وأَنبت أَشجارها ، وأَخرج ثمارها ؟

ومن صدعها عن النبات ، وأَودع فيها جميع الأَقوات ؟

ومن بسطها ، وفرشها ، ومهدها وذللها ، وطحاها (١) ودحاها (٢) ، وجعل ما عليها زينة لها ؟

ومن الذى يمسكها أَن تتحرك فتتزلزل فيسقط ما عليها من بناءٍ ومعلم ، أَو يخسفها بمن عليها فإذا هى تمور (٣) ؟

ومن الذى أَنشأَ منها النوع الإنسانى ، الذى هو أَبدع المخلوقات ، وأَحسن المصنوعات ؟

بل أَنشأَ منها آدم ، ونوحا ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمدا صلى الله عليه وسلم عليهم أَجمعين . وأَنشأَ منها أَولياءَه ، وأَحباءَه وعباده الصالحين ؟

ومن جعلها حافظة لما استودع فيها من المياه والأَرزاق ، والمعادن ، والحيوان ؟

ومن جعل بينها وبين الشمس والقمر ، هذا القدر من المسافة ؟

---

(١) طحاها ؛ بسطها . مثل دحاها . وبابه عدا ، يعدو .

(٢) دحاها : بسطها وأوسعها .ومهدها لسكنى أهلها .

(٣) فى المختار من الصحاح .

«مار »من باب . قال : تحرك ،وجاء، وذهب . ومنه قوله تعالى : (٥٢ الطور : يَوْمَ تَمُورُ السَّماءُ مَوْراً ٩) ، قال الضحاك : تموج موجاً . وقال أبو عبيدة والأَخفش تَكَفّأُ . ا هـ .

فلو زادت على ذلك ، لضعف تـأثرها بحرارة الشمس ونور القمر ؛ فتعطلت المنفعة الواصلة إلى الحيوان ، والنبات ، بسبب ذلك .

ولو زادت في القرب ، لاشتدت الحرارة والسخونة كما نشاهده فى الصيف ـ فاحترقت أَبدان الحيوان والنبـات .

وبالجملة ، فكانت تفوت هذه الحكمة التى بها انتظام العـالم ؟

ومن الذى جعل فيها الجنات والحدائق ، والعيون ؟

ومن الذى جعل باطنها بيوتا للأَموات وظاهرها بيوتا للأَحياءِ (١) ؟

ومن الذى يحييها بعد موتها ، فَيُنْزِلُ عليها الماءَ من السماءِ ، ثم يرسل عليها الريح ، ويُطْلِعُ عليها الشمس ، فتأْخذ فى الْحَبَل ؟

فإِذا كان وقت الولادة ، مخضت للوضع ، واهتزت ، وأَنبتت من كل زوج بهيج .

---

(١) هذه العبارة تفسير لقوله تعالى (ألم نجعل الأرض كفاتا) قال « فى المختار من الصحاح » : والكفات ؛ الموضع الذى يكفت فيه شيء ؛ أى يضم ومنه قوله تعالى (ألم نجعل الأرض كفاتا) .

فسبحان من جعل السماء كالأَب ، والأَرض كالأُم ، والقطر كالماء ، الذى ينعقد منه الولد .

فإذا حصل الحب فى الأَرض ، ووقع عليه الماءُ ، أَثَّرت نداوة الطين فيه ، وأَعانتها السخونة المختفية فى باطن الأَرض .

فوصلت النداوة والحرارة إلى باطن الحبة ، فاتسعت الحبة وربت ، وانتفخت ، وانفلقت عن ساقين : ساق من فوقها ، وهو الشجرة . وساق من تحتها ، وهو العــرق .

ثم عظم ذلك الولد ،حتى لم يبق لأَبيه نسبة إليه .

ثم وضع من الأَولاد بعد أَبيه ، آلافا مؤلفة .

كل ذلك صنع الرب الحكيم فى حبة واحدة ، لعلها تبلغ فى الصغر إلى الغاية .

وذلك من البركة ، التى وضعها الله سبحانه ، فى هذه الأُم .

فيالها من آية تكفى وحدها ، فى الدلالة على وجود الخالق ، وصفات كماله وأَفعاله ، وعلى صدق رسله

فيما أَخبروا به عنه ، بإخراج من فى القبور ، ليوم البعث والنشور .

فتأَمل اجتماع هذه العناصر الأَربعة وتجاورها . وامتزاجها ، وحاجة بعضها إلى بعض ، وانفعال بعضها عن بعض ، وتأْثيره فيه ، وتأَثُّره به ، بحيث لا يمكنه إلا الاتباع ، من التأَثُّر والانفعال .

ولا يستقل الآخر بالتأْثير ، ولا يستغنى عن صاحبه .

وفى ذلك أَظهر دلالة ، على أَنها مخلوقة ، مصنوعة ، مربوبة ، مُدَبَّرة ، حادثة بعد عدمها ، فقيرة إلى موجد غنى عنها ، مُؤثِّر غير متأَثِّر ، قديم غير حادث .

تنقاد المخلوقات كلها لقدرته ، وتجيب داعى مشيئته ، وتُلبِّى داعِىَ وحدانيته وربوبيته ، وتشهد بعلمه وحكمته ، وتدعو عباده إلى ذكره وشكره وطاعته وعبوديته ومحبته .

وتحذرهم من بأْسه ونقمته ، وتحثهم على المبادرة إلى رضوانه وجنته .

فانظر إلى الماء والأَرض ، كيف لما أَراد الرب تعالى

امتزاجهما وازدواجهما أَنشأَ الرياح ، فحركت الماءَ ، وساقته إلى أَن قذفته فى عمق الأَرض ، ثم أَنشأَ لها حرارة لطيفة سماوية ، وحصل بها الإنبات .

ثم أَنشأَ لها حرارة أُخرى ، أَقوى منها حصل بها الانفتاح .

وكانت حالته الأُولى تضعف عن الحرارة الثانية ، فادخرت إلى وقت قوته وصلابته .

فحرارة الربيع للإخراج . وحرارة الصيف للإنضاج. هذا ، وإن الأُم واحدة ، والأَب واحد ، واللقاح واحد ، والأَولاد فى غاية التباين والتنوع . كما قال تعالى

(١٣ الرعد : وَفِى الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ وَجنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وزَرْعٌ ونَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّل بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِى الْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ٤) .

فهذا بعض آيات الأَرض ، ومن الآيات التى فيها وقائعه سبحانه التى أَوقعها بالأُمم المكذبين لرسلهم ، المخالفين لأَمره ، وأَبقى آثارهم دالة عليهم ، كما قال

تعالى (٢٩ العنكبوت : وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ ٣٨) .

وقال فى قوم لوط (٣٧ الصافات : وإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ١٣٧ وباللَّيْلِ أَفَلَاتَعْقِلُونَ ١٣٨) ؟

وقال (١٥ الحجر : فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ٧٣ فَجَعَلْنَا عالِيَهَا سافِلَهَا و أَمْطَرْنَا علَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ٧٤ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْمُتَوسِّمِينَ ٧٥ وإِنَّهَا لَبِسَبيلٍ مُقِيمٍ ٧٦) أى بطريق ثابت ، لا يزول عن حاله .

وقال (١٥ الحجر : وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ٧٨ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ ٧٩) أى ديار هاتين الأُمتين ، لبطريق واضح ، يَمُرُّبه السالكون .

وقال تعالى (١٤ إبراهيم : وَسَكَنْتُمْ فِى مَساكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ ٤٥) .

وقال عن قوم عاد (٤٦ الأَحقاف : فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ٢٥) .

وقال (٣٢ السجدة : أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَاكِنِهِم ٢٦) .

فأَىُّ دلالة أَعظم ، من رجل يخرج وحده ، لاعُدَّة له ولاعدد ، ولا مال .

فيدعو الأُمة العظيمة ، إلى توحيد الله والإِيمان به وطاعته ، ويحذرهم من بأْسه ونقمته .

فتتفق كلمتهم ، أَو أَكثرهم ، على تكذيبه ، ومعاداته

فيذكرهم بأنواع العقوبات الخارجة عن قدرة البشر ، فيغرق المكذبين كلهم تارة ، ويخسف بغيرهم الأَرض تارة

ويهلك آخرين بالريح ، وآخرين بالصيحة ، وآخرين بالمسخ ، وآخرين بالحجارة ، وآخرين بظلمة من النار من فوقهم ، وآخرين بالصواعق وآخرين بأَنواع العقوبات ، وينجو داعيهم ومن معه .

والهالكون ، أَضعاف أَضعافهم ، عددا وقوة ، ومنعة وأَموالا :

فَيَالَكِ مِنْ آيَاتِ حَقٍّ لَو اهْتَدَى
بِهِنَّ مُرِيدُ الْحَقِّ ، كُنَّ هَوَادِيَا
وَلَكِنْ عَلَى تِلْكَ الْقُلُوب أَكِنَّـةٌ
فَلَيْسَتْ وَإِنْ أَصْغَتْ تُجِيبُ الْمُنَادِيَا

فهلا امتنعوا – إن كانوا على الحق ، وهم أَكثر

عددا ، وأقوى شوكة - بقوتهم وعددهم ، من بأسه وسلطانه ؟ .

وهلا اعتصموا من عقوبته ، كما اعتصم من هو أضعف منهم من أتباع الرسل ؟

ومن الآيات التى فى الأرض ، مما يحدثه الله فيها كل وقت ، مايصدق به رسله فيما أخبرت به .

فلا تزال آيات الرسل وأعلام صدقهم ، وأدلة نبوتهم ، يحدثها الله سبحانه وتعالى فى الأرض ، إقامةً للحجة على من لم يشاهد تلك الآيات التى قاربت عصر الرسل ، حتى كأن أهل كل قرن يشاهدون ما يشاهده الأولون أو نظيره ، كما قال الله تعالى (٤١ فصلت : سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الْآفَاقِ وَفِى أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ٥٣)

وهذه الإرادة ، لاتختص بقرن دون قرن ، بل لا بد أن يُرِىَ الله سبحانه ، أهل كل قرن ، من الآيات ، ما يبين لهم أنه الله الذى لا إله إلا هو ، وأن رسله صادقون ، .

وآيات الأرض أعظم مما ذكر ، وأكثر ، فَنَبَّه باليسير منها ، على الكثير .

(٨٤) فصل

ثم قال : (٥١ الذاريات : وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ٢١ ؟) لما كان أقرب الأشياء إلى الإنسان ، نفسه ، دعاه خالقه وبارئه ومصوره ، وفاطره من قطرة ماءٍ ، إلى التبصر ، والتفكر فى نفسه .

فإذا تفكر الإنسان فى نفسه ، استنارت له آيات الربوبية ، وسطعت له أنوار اليقين ، واضمحلت عنه ، غمرات الشك والريب ، وانقشعت عنه ، ظلمات الجهل .

فإنه إذا نظر فى نفسه ، وجد آثار التدبير فيه قائمات وأدلة التوحيد على ربه ناطقات ، شاهدة ، لمدبره ، دالة عليه ، مرشدة إليه .

إذ يجده مُكَوَّناً من قطرة ماءٍ : لحوما منضدة ، وعظاما مركبة ، وأوصالا متعددة ، مأسورة مشدودة بحبال العروق والأعصاب .

قد قمطت وشدت ، وجمعت بجلد متين ، مشتمل على ثلاثمائة وستين مفصلا ، مابين كبير وصغير ، وثخين ودقيق ، ومستطيل ومستدير ، ومستقيم ومُنْحَنٍ .

وشدت هذه الأَوصال ، بثلاثمائة وستين عرقا ، للاتصال والانفصال ، والقبض والبسط ، والمد والضم ، والصنائع والكتابة .

وجعل فيه تسعة أَبواب : فبابان للسمع ، وبابان للبصر ، وبابان للشم ، وبابان للكلام والطعام والشراب والتنفس ، وبابان لخروج الفضلات التى يؤذيه احتباسها

وجعل داخل بَابَى السمع ، مُرًّا قاتلا ، لئلا تلج فيها دابة ، تخلص إلى الدماغ فتؤذيه .

وجعل داخل بَابَىِ البصر مالحا ، لئلا تذيب الحرارة الدائمة ، ما هناك من الشحم .

وجعل داخل باب الطعام والشراب حلواً ، ليسيغ به ما يأْكله ويشربه . فلا يتنغص به ، لو كان مُرًّا أَو مالحا .

وجعل له مصباحين من نور ، كالسراج المضىء ، مركبين فى أَعلى مكان منه ، وفى أَشرف عضو من أَعضائه ، طليعة له .

وركب هذا النور ، فى جزء صغير جدا ، يبصر به السماءَ والأَرض ، وما بينهما .

وغشاه بسبع طبقات ، وثلاث رطوبات ، بعضها فوق بعض ، حماية له ، وصيانة وحراسة .

وجعل على محله غلقا بمصراعين ، أعلاه وأسفل .

وركب فى ذيل المصراعين ، أهدابا من الشعر ، وقاية للعين ، وزينة وجمالا .

وجعل فوق ذلك كله ، حاجبين من الشعر ، يحجبان العين من العرق النازل . ويتلقيان عنها ، ما ينصب من هناك .

وجعل سبحانه ، لكل طبقة من طبقات العين ، شغلا مخصوصا ، ولكل واحد من الرطوبات ، مقدارا مخصوصاً ، لوزاد على ذلك أو نقص منه ، لاختلَّتْ المنافع والمصالح المطلوبة .

وجعل هذا النور الباصر ، فى قدر عدسة . ثم أظهر فى تلك العدسة ، صورة السماء والأرض ، والشمس والقمر والنجوم ، والجبال ، والعالم العلوى والسفلى ، مع اتساع أطرافه ، وتباعد أقطاره .

واقتضت حكمته سبحانه ، أن جعل فيها بياضا وسوادا ، وجعل القوة الباصرة فى السواد ، وجعل

البياض مستقراً لها ومسكنا ، وزين كلا منهما بالآخر .

وجعل الحدقة مصونة بالأَجفان والحواجب ، كما تقدم ، والحواجب بالأَهداب ، وجعلها سوداءَ .

إذ لو كانت بيضاءَ ، لتفرق النور الباصر ، فضعف الإدراك ، فإن السواد يجمع البصر ، ويمنع من تفرق النور الباصر .

وخلق سبحانه ، لتحريك الحدقة وتقليبها ، أَربعا وعشرين عضلة ، لو نقصت عضلة واحدة ، لا ختلَّ أَمر العين .

ولما كانت العين كالمرآة ، التى إنما تنطبع فيها الصُّورُ ، إذا كانت فى غاية الصقالة والصفاءِ ، جعل سبحانه ، هذه الأَجفان متحركة جدًّا بالطبع إلى الانقباض من غير تكلف ، لتبقى هذه المرآة ، نقية صافية من جميع الكدورات .

ولهذا لما لم يخلق لعين الذبابة أَجفانا ، فإنها لاتزال تراها تنظف عينها بيدها ، من آثار الغبار والكدورات .

(٨٥) فصل

وكما جعل سبحانه ، العينين مؤديتين للقلب مايريانه ، فيوصلانه إليه كما تريانه جعلهما مرآتين للقلب ، يظهر فيهما ، ماهو مودع فيه من الحب والبغض والخير والشر ، والبلادة والفطنة ، والزيغ والاستقامة .

فيستدل بأَحوال العين ، على أَحوال القلب ، وهو أَحد أَنواع الفراسة الثلاثة :

وهى فراسة العين ، وفراسة الأُذن ، وفراسةالقلب .

فالعين مرآة للقلب ، وطليعة ورسول .

ومن عجيب أَمرها ، أَنها من أَلطف الأَعضاءِ ، وأَبعدها تـأَثُّراً بالحر والبرد .

على أَن الأُذن – على صلابتها وغلظها – لتتـأَثر بهما ، أَكثر من تـأَثُّر العين على لطافتها .

وليس ذلك بسبب الغطاءِ ، الذى عليها من الأَجفان ؛ فإِنها لو كانت منفتحة ، لم تتـأَثر بذلك ، تـأَثر الأَعضاءِ اللطيفـة .

(٨٦) فصل

ومن ذلك : الأذنان ، شقهما تبارك وتعالى ، فى جانِبَى الوجه ، وأَودعهما من الرطوبة ، مايكون مُعِينا على إدراك السمع . وأَودعهما القوة السمعية .

وجعل سبحانه فى هذه الصدفة انحرافات واعوجاجات لتطول المسافة قليلا ، فلايصل الهواءُ إلا بعد انكسار حدته ، فلايصدمها وهلة واحدة ، فيؤذيها .

وأَيضاً ، لئلا يفجأَها الداخل إليها من الدبيب والحشرات .

بل إذا دخل إلى عوجة من تلك الانعطافات ، وقف هناك ، فسهل إخراجه .

وكانت العينان فى وسط الوجه ، والأُذنان فى جانبيه ، لأَن العينين محل الملاحة والزينة والجمال ، وهما بمنزلة النور ، الذى يمشى بين يَدَىِ الإنسان .

وأَما الأُذنان ، فكان جعلهما فى الجانبين ، لكون إدراكهما لِمَا خَلْفَ الإنسان ، وأَمامه ، وعن يمينه ، وعن شماله ، سواء .

فتأْتى المسموعات إليهما على نسبة واحدة .

وخلقت العينان بغطاءٍ ، والأُذنان بغير غطاءٍ . وهذا فى غاية الحكمة .

إذ لو كان للأُذنين غطاءٌ ، لمنع الغطاءُ إدراك الصوت ، فلا يحصل إلا بعد ارتفاع الغطاءِ .

والصوت عَرَضٌ ، لاثبات له ، فكان يزول قبل كشف الغطاءِ .

وبخلاف ماتراه العين ، فإنه أَجسام وأَعراض لاتزول ، فيما بين كشف الغطاءِ ، وفتح العين .

وجعل سبحانه ، الأُذن عضواً غُضْرُوفِيًّا ، ليس بلحم مُسْتَرْخٍ ، ولا عظم صلب ، بل هى بين الصلابة واللين ، فتقبل بلينها ، وتحفظ بصلابتها .

ولا تنصدع انصداع العظام ، ولا تتأَثر بالحر والبرد ، والشمس والسَّمُوم ، تأَثُّر اللحم .

إذ المصلحة فى بروزها ، لتتلقَّى مايرد عليها من الأَصوات والأَخبار .

(٨٧) فصل

ومن ذلك ، الأَنف ، نصبه سبحانه فى وسط الوجه ، قائما معتدلا ، فى أَحسن شكل وأَوفقه للمنفعة ،وأَودعه حاسة الشم ، التى يدرك بها الروائح وأَنواعها ، وكيفياتها ومنافعها ، ومضارها .

ويستدل بها ، على مضار الأَغذية والأَدوية ، ومنافعها

وأَيضاً فإنه يستنشق بالمنخرين الهواءَ البارد الرطب ، فيؤديه إلى القلب ، فيتروح به ، فيستغنى بذلك ، عن فتح الفم أَبدا .

وجعل تجويفه بقدر الحاجة ، فلم يوسعه عن ذلك ، فيدخله هواءٌ كثير .

ولم يضيقه ، فلا يدخله من الهواءِ مايكفيه .

وجعل ذلك التجويف مستطيلا ، لينحصر فيه الهواءُ ، وينكسر برده وحدته ، قبل أَن يصل إلى الدماغ . فلولا ذلك ، لصدمه بحدته وقوته .

والهواءُ الذى يستنشقه الأَنف ينقسم شطرين : شطرا يصعد إلى الدماغ ، وشطرا ينزل إلى الرئة ، وهو من آلات النطق ، فإن له إعانة على تقطيع الحروف .

وكما أن تجويفه جعل لاستنشاق الهواء ، فإنه جعل مَصَبًّا لفضلات الدماغ . تنحدر منه فى تلك القصبة ، فيخرج ، فيستريح الدماغ .

ولذلك جعل عليها سترا ، ولم يجعلها بارزة ، فتستقبحها العيون .

وجعل فيها تجويفا . فإنه قد ينسد أحدهما ، أو يعرض له آفة تمنعه من الإدراك والاستنشاق ، فيبقى التجويف الثانى ، نائبا عنه يعمل عمله ، كما اقتضت الحكمة مثل ذلك فى العينين .

ثم تأمل الهواء الذى يستنشقه الأنف . كيف يدخله أولا من المنخرين ، وينكسر برده هناك ، ثم يصل إلى الحلق ، فيعتدل مزاجه هناك .

ثم يصل إلى الرئة ألطف مايكون . ثم تبعثه الرئة إلى القلب ، فيروِّح عن الحرارة الغريزية التى فيه .

ثم ينفذ من القلب إلى العروق المتحركة ، ويبلغ إلى أقاصى أطراف البدن .

ثم إذا سخن فى الباطن ، وخرج عن حد الانتفاع ، خرج عن تلك الأقاصى إلى البدن ، ثم إلى الرئة ، ثم إلى الحلقوم . ثم إلى المنخرين خارجا .

فأما إخراج النفس ، فهو جار مجرى دفع الفضلة الفاسدة .

فصرف ذلك ، سبحانه ، إلى رعاية مصلحة ، ومنفعة أُخرى . وجعله سببا للأصوات والحروف والكلام

ثم إنه سبحانه ، جعل الحناجر مختلفة الأشكال : فى الضيق ، والسعة ، والخشونة ، والملاسة ، لتختلف الأصوات باختلافها .

فيخرج منهما ، ويعود عوضه ، هواءٌ بارد نافع .

والنَّفَسُ الواحد من أنفاس العبد ، إنما يتم بمجموع هذه الأُمور والقوى ، والأَفعال .

وهو له فى اليوم والليلة . أَربعة وعشرون أَلف نَفَسٍ ، لله فى كل نَفَس عدة نِعَمٍ ، قد وقفت على القليل منها ، فما ظنك بما وراء التنفس من الأَعضاء ، والقوى ، ومنافعها ، وتمام النعمة بها ؟ .

فلا يتشابه صوتان ، كما لا تتشابه صورتان . وهذا من أَظهر الأَدلة .

فإن هذا الاختلاف - الذى بين الصور والأَصوات على كثرتها وتعددها - فقلما يشتبه صوتان أَو صورتان - ليس فى الطبيعة مايقتضيه .

وإنما ، هو صنع الله الذى أَتقن كل شىءٍ ، وأَحسن كل شىءٍ خلقه . فتبارك الله رب العالمين ، وأَحسن الخالقين .

فميز سبحانه ، بين الأَشخاص ، بما يدركه السمع والبصـــر .

(٨٩) فصل

وأَودع اللسان من المنافع منفعة الكلام - وهى أَعظمها - ومنفعة الذوق والإدراك ، وجعله دليلا على اعتدال مزاج القلب وانحرافه ، كما جعله دليلا على استقامته واعوجاجه .

فترى الطبيب ، يستدل بما يبدو للبصر على اللسان ، من الخشونة ، والملاسة ، والبياض والحمرة ، والتشقق وغيره ، على حال القلب والمزاج .

الصوت فى الحنجرة ، والحنك ، واللسان ، والشفتين ، والأسنان مقاطع ، ومخارج مختلفة

وبسبب اختلافها ، تميزت الحروف بعضها عن بعض .

ثم ألهم العبد ، تركيب تلك الحروف ، ليـ دى بها عن القلب ، ما يأمر به .

فتأمل الحكمة الباهرة ، حيث لم يُضِعْ سبحانه ، ذلك النفس المستغنى عنه ، المحتاج إلى دفعه وإخراجه .

بل جعل فيه ، إذا اسْتُغْنِىَ عنه ، منفعة ومصلحة هى من أكمل المنافع والمصالح .

فإن المقصود الأصلى من النفس ، هو اتصال الريح البارد إلى القلب .

فأما إخراج النفس ، فهو جار مجرى دفع الفضلة الفاسدة .

فصرف ذلك ، سبحانه ، إلى رعاية مصلحة ، ومنفعة أُخرى . وجعله سببا للأصوات والحروف والكلام

ثم إنه سبحانه ، جعل الحناجر مختلفة الأشكال : فى الضيق ، والسعة ، والخشونة ، والملاسة ، لتختلف الأصوات باختلافها .

فلا يتشابه صوتان ، كما لا تتشابه صورتان . وهذا من أظهر الأدلة .

فإن هذا الاختلاف ـ الذى بين الصور والأصوات على كثرتها وتعددها ـ فقلما يشتبه صوتان أو صورتان ـ ليس فى الطبيعة مايقتضيه .

وإنما ، هو صنع الله الذى أتقن كل شىء ، وأحسن كل شىء خلقه . فتبارك الله رب العالمين ، وأحسن الخالقين .

فميز سبحانه ، بين الأشخاص ، بما يدركه السمع والبصر .

(٨٩) فصل

وأودع اللسان من المنافع منفعة الكلام ـ وهى أعظمها ـ ومنفعة الذوق والإدراك ، وجعله دليلا على اعتدال مزاج القلب وانحرافه ، كما جعله دليلا على استقامته واعوجاجه .

فترى الطبيب ، يستدل بما يبدو للبصر على اللسان ، من الخشونة ، والملاسة ، والبياض والحمرة ، والتشقق وغيره ، على حال القلب والمزاج .

وهو دليل قوى على أَحوال المعدة والأَمعاءِ .

كما يستدل السامع بما يبدو عليه من الكلام ، على ما فى القلب ، فيبدو عليه صحة القلب وفساده ، معنى وصورة .

(٩٠) فصل

وجعل سبحانه اللسان عضواً لحميا ، لا عظم فيه ولاعصب ، لتسهل حركته . ولهذا لا تجد فى الأَعضاءِ ، من لا يكترث بكثرة الحركة سواهُ .

فإن أَىَّ عضو من الأَعضاءِ ، إذا حركته ، كما تحرك اللسان ، لم يطق ذلك ، ولم يلبث أَن يَكِلَّ ويُخْلِدَ إلى السكون ، إلا اللسان .

وأَيضاً ، فإنه من أَعدل الأَعضاءِ وأَلطفها ، وهو فى الأَعضاءِ ، بمنزلة رسول الملك ونائبه .

فمزاجه ، من أَعدل أَمزجة البدن ويحتاج إلىقبض وبسط ، وحركة ، فى أَقاصى الفم وجوانبه .

فلو كان فيه عظام ، لم يتهيأْ منه ذلك ، ولم يتهيأْ منه الكلام التام ، ولا الذوق التام .

فكوَّنه الله ، كما اقتضاهُ السبب الفاعليُّ والغائيُّ ، والله أَعلم .

(٩١) فصل

وجعل سبحانه على اللسان غلقين :

أَحدهما : الأَسنان ، والثانى : الفم ، وجعل حركته اختيارية .

وجعل على العين غطاءً واحداً .

ولم يجعل على الأُذن غطاءً . وذلك لخطر اللسان وشرفه ، وخطر حركاته ، وكونه فى الفم ، بمنزلة القلب فى الصدر . وذلك من اللطائف .

فإن آفة الكلام ، أكثر من آفة النظر ، وآفة النظر ، أكثر من آفة السمع .

فجعل للأَكثر آفات ، طبقين ، وللمتوسط ، طبقا . وجعل الأَقل آفة ، بلاطبق .

(٩٢) فصل

وجعل سبحانه ، الفم أكثر الأَعضاءِ رطوبة ، والريق يتحلل إليه دائما لايفارقه .

وجعله حلواً لامالحاً ، كماءِ العين ، ولا مُرًّا ، كالذى

فى الأُذن ، ولاعفنا ، كالذى فى الأَنف ، بل هو أَعذب مياه البدن وأَحلاها . حكمة بالغة .

فإن الطعام والشراب يخالطه ، بل هو الذى يحيل الطعام ، ويمتزج به امتزاج العجين بالماءِ .

فلولا أَنه حلو ، لَمَا التذَّ الإنسان ، بل ولا الحيوان ، بطعام ولا شراب ، ولا ساغه إلا على كرُه وتنغيص .

ولما كان كثير من الطعام ، لايمكن تحوله إلا بعد طبخه ، جعل الرب تعالى له ، آلة للتقطيع والتفصيل ، وآلة للطحن .

فجعل آلة القطع - وهى الثنايا ، وما يليها - حادة الرءُوس ، ليسهل بها القطع .

وجعل النواجذ ، وما يليها من الأَضراس ، مسطحة الرءُوس ، عريضة ، ليتأَتَّى بها الطحن .

ونظمها أَحسن نظام ، كاللؤلؤ المنظم فى سلك ، وجعلها من الجانب الأَعلى والأَسفل ، ليتأَتَّى بها القطع والطحن .

وجعلها من الجانب الأَيمن والأَيسر ، إذ ربما كلَّت

إحدى الآلتين ، أَو تعطلت ، أَو عرض لها عارض . فينتقل إلى الآلة الأُخرى .

وأَيضاً لو كان العمل على جانب واحد دائما ، أَوشك أَن يتعطل ويضعف .

وتأَمل كيف أَنبتها سبحانه ، من نفس اللحم ، وتخرج من خلاله نابتة ، كما ينبت الزرع فى الأَرض .

ولم يكسها سبحانه لحما ، كسائر العظام سواها ، إذ لو كساها اللحم ، لتعطلت المنفعة المقصودة .

ولما كانت العظام محتاجة إلى لحم يكسوها ويحفظها ويتلقى عنها الحرارة والبرد ، ويحفظ عليها رطوبتها لم تكمل مصلحة الحيوان إلا بهذه الكسوة .

ولما كانت عظام الإِنسان ، محتاجة إلى ذلك من وجه ، مستغنية عنه من وجه ، جعلت كسوتها ، منفصلة عنها ، وجعلت هى : المكتسية العارية ، لتمام المنفعة بذلك

ولما كانت آلة القطع ، والكسر ، والطحن ، لم تنشأْ مع الطفل ، من أَول نشأَته ـ كسائر عظامه ، لعدم الحاجة إليها ـ عطل عنها وقت استغنائه عنها بالرضاع ، وأَعطيها وقت حاجته إليها .

وفيه حكمة أُخرى ، وهى : أَنه لو نشأَت معه من حين يولد ، لأَضرت بحلمة الثدى. إذ لا عقل له يحرزه عن عضها ، فكانت الأُم تمتنع من إرضاعه .

ومن عجيب أَمرها ، الاتفاق والموالاة ، التى بينها وبين المعدة .

فإنه يسلم إليها الشىءُ اليابس والصلب ، فتطحنه ، ثم تسلمه إلى اللسان فيعجنه .

ثم اللسان يسلمه إلى الحلق ، فيوصله إلى المعدة ، فتنضجه و تطبخه .

ثم يرسل إليها منه ، معلومها المقدر لها .

فإذا عجزت عن قطع شىءٍ وطحنه ، عجزت المعدة عن إنضاجه وطبخه .

وإذا كلَّت الأَسنان كلت المعدة ، وإذا ضعفت ، ضعفت .

وهى تصحب الإنسان وتخدمه مالم يرها ، فإذا وقعت عينه عليها ، فارقته الأَبد(١) وهى سلاح ومنشار ، وسكين ، وروح ، و زينة . وفيها منافع ومصالح غيرهذه .

---

(١) كأن الشيخ رحمه الله يريد الرؤية التى تـكون بخلعها عن موضعها ، لا التى تكون بالمرآة مثلا .

(٩٣) فصل

ثم تأمل حال الشعر ومنبته وسببه .

فإن البدن ، لما كان حارا رطبا . والحرارة إذا عملت فى الرطوبة ، فلا بد أن تثير بخارا وتلك الأبخرة ، تتصاعد من عمق البدن إلى سطحه ، وتريد الانفصال من هناك ، فلا بد أن تحدث مساما ومنافذ فى ظاهر الجلـــد .

وتلك الأبخرة ، إما أن تكون رطبة لطيفة ، فحينئذ تنفصل من المسام ، ولا تحدث شيئا .

وإما أن تكون دخانية يابسة غليظة ، فالجلد حينئذ ، إما أن يكون فى نهاية النعومة والنضارة ، كجلد الصبيان ، أو فى غاية اليبس والقشف ، أو يكون معتدلا .

فإذ ذاك ، لايتولد فيه الشعر . لأن البخار إذا شق سطح الجلد ، وانفصل ، عاد الجلد فى الحال إلى اتصاله الأول ، بسبب كثرة رطوبته ونعومته .

مثاله ، السمك إذا رفع رأسه من الماء ، انشق له الماءُ ، فإذا عاد إلى الماء ، عاد الماءُ إلى اتصاله الأول .

وكذلك نشاهد الأشياءَ الرطبة — كالنشاءِ مثلا — إذا أُغلِيَ فخرج البخار من موضع الغليان ، عادت الرطوبة إلى الموضع الذى خرج منه ذلك البخار فسدَّتْه .

فإن كان الجلد فى غاية اليبس ، لم يتولد الشعر ؛ لأَن الجلد اليابس إذا انثقب ، بقيت تلك الثقب مفتوحة ، ليبس الجلد ، فيفرق أَجزاءُه البخار ، ولا يجتمع بعضه إلى بعض . فإن الجلد متوسط بين النعومة والكثافة ، فإنه ينفتح فيه المسام بسبب تلك الأَبخرة ، ولا يعود ينسد بعد خروج البخار .

ولكن لا تبقى المسام شديدة الانفتاح ، وحينئذ يبقى ذلك البخار الدخانى فى تلك الثقبة ، لا يزال يمده بخار آخر يدفعه أَولا فأَولا إلى خارج ، من غير أَن ينقطع أَصله

فيبقى بعضه مركوزا فى الجلد ، منزلته ، منزلة أَصل النبات .

وبعضه يطلع إلى خارج ، منزلته منزلة ساق النبات .

وكذلك الشعر . فمادة الشعر ، هى البخار الدخانى اليابس . وسببه ، هو الحرارة الطبيعية المحرقة لذلك البخار ، والآلة التى بها يتم أَمره ، هى المسام ، التى

ارتكن فيها البخار ، فتلبد هناك ، فصار شعرا ، بإذن الله تعالى .

والغاية التى من أجلها وجد ، شيئان :

أحدهما عام ، وهو : تنقية البدن من الفضول الدخانية الغليظة .

والآخر خاص ، وهو إما للزينة ، وإما للوقاية .

وإذا بان أن الشعر إنما يتولد مع الحرارة واليبس المعتدل ، بقيت ثلاثة أقسام :

أحدها : حرارة غالبة على اليبس ، كالصبيان .

الثانى : عكسه ، وهو يبس غالب على الحرارة ، كالمشايخ .

الثالث : حرارة ضعيفة ويبس ضعيف ، كأبدان النساء ، ففى هذه الأقسام يقل الشعر .

وأما الشباب ، فإن حرارة أبدانهم ويبسهم معتدل ، فيقوى تولد الشعر فيهم .

وفى شعر الرأس منافع ومصالح :

منها : وقايته عن الحر والبرد والمرض .

ومنها : الزينة والحسن .

والسبب الذى صار به شعر الرأس ، أكثر من شعر البدن ، هو أن البخار ، شأنه أن يصعد من جميع البدن إلى الدماغ ، ومن الدماغ إلى فوق .

وكان هذا الشعرناميا على الدوام ؛ لأن البخاريتصاعد إلى الرأس أبدا ، وهو مادة الشعر ، فَبِنَمَاءِ الشعر ، ينمو البخار . وكان فيه تخليص للبدن ، من تلك المواد ، وتكثير لوقايته وغطائه .

(٩٤) فصل

وأما شعر الحاجبين ، ففيه — مع الحسن والزينة والجمال — وقاية العين ، مما ينحدر من الرأس .

وجعل على هذا المقدار ، لأنه لو نقص عنه ، لزالت منفعة الجمال والوقاية .

ولو زاد عليه ، لغطّى العين وأضرَّ بها ، وحال بينها وبين ماتدركه .

وقد ذكرنا منفعة شعر الهدب .

ولما كان الأنفع والأصلح أن يكون شعر الهدب ، قائما منتصباً ، وأن يكون باقيا على حال واحد ، فى

مقدار واحد ، جعل منبت هذا الشعر ، فى جرم صلب ، شبيه بالغضروف ، يمتد فى طول الجفن ، لئلا يطول وينمو

وهذا ، كما نشاهد النبات ، الذى ينبت فى الأرض الرخوة اللينة ، فإنه يطول ويزداد .

والذى ينبت فى الأرض الصخرية الصلبة ، لا ينمو إلا نموا يسيرا .

فكذلك الشعر النابت فى الأعضاء اللينة الرطبة ، فإنه سريع النمو ، كشعر الرأس والعانة .

(٩٥) فصل

وأما شعر اللحية ، ففيه منافع : منها الزينة ، والوقار ، والهيبة .

ولهذا لايرى على الصبيان والنساء من الهيبة والوقار ، مايرى على ذوى اللحى .

ومنها ، التمييز بين الرجال والنساء .

فإن قيل : لو كان شعر اللحية زينة ، لكان النساء أولى به من الرجال ، لحاجتهن إلى الزينة ، وكان التمييز يحصل ، بخلو الرجال منه ، ولكان أهل الجنة أولى به . وقد ثبت أنهم جُرْدٌ مُرْدٌ ؟ .

قيل : الجواب أَن النساءَ ، لما كُنَّ محل الاستمتاع والتقبيل ، كان الأَحسن والأَولى ، خُلُوُّهُنَّ عَنَ اللِّحَى .

فإن محل الاستمتاع ، إذا خلا عن الشعر ، كان أتم .

ولهذا المعنى ـ والله أَعلم ـ كان أَهل الجنة مُرْداً ، ليكمل استمتاع نسائهم بهم ، كما يكمل استمتاعهم بهن .

وأَيضاً ، فإنه أَكشف لمحاسن الوجوه . فإن الشعر ، يستر ماتحته من البشرة ، أَن يمس بشرة المرأَة . والله أَعلم بحكمته فى خلقه .

(٩٦) فصل

وأَما شعر العانة ، والإِبط ، والأَنف ، فمنفعته ، تنقية البدن من الفضلة .

ولهذا ، إذا أُزيل من هذا الموضع ، وجد البدن خفة ونشاطا . وإذا وفر (١) وجد ثِقلاً وكَسَلاً وغَمًّا .

ولهذا جاءَت الشريعة ، بحلق العَانة ، ونتف الإِبط .

وكان حلق العانة ، أَولى من نتفها ، لصلابة الشعر وتأَذِّى صاحبها بنتفه .

---

(١) قوله : (وإذا وفر) يعنى : إذا كثر وطال شعر الإبط والعانة يعنى (الشعر الذى ينبت حول ذكر الإنسان) .

وكان نتف الإبط أولى من حلقه ، لضعف الشعر هناك ، وشدته ، وتعجُّل نباته بالحلق .

فجاءت الشريعة بالأنفع ، فى هذا وهذا .

(٩٧) فصل

وتأمل حكمة الرب تعالى ، فى كونه أخلى الكفين والجبهة ، والأخمصين (١) من الشعر .

فإن الكفين خُلِقَا ، حاكمين على الملموسات .

فلو حصل الشعر فيهما ، لأَخلَّ بذلك ، وخُلِقَا للقبض ، وإلصاق اللحم على المقبوض ، أعوَنُ على جودته من التصاق الشعر به .

وأيضاً فإنهما آلة الأخذ والعطاء ، والأكل ، ووجود الشعر فيهما ، يُخِلُّ بتمام هذه المنفعة .

وأما الأخمصان ، فلو نبت الشعر فيهما ، لأضر بالماشى ، وأعاقه فى المشى كثيرا مما يعلق بشعره ، مما على الأرض ، ويتعلق شعره بما عليها أيضا .

هذا ، مع أن أكثر الأوتار والأغشية فى الكفين ، مانع من نفوذ الأبخرة فيها .

---

(١) الأخمصين : باطن القدمين .

وأما الأخمصان فإن الأبخرة تتصاعد إلى علو ، وكلما تصاعد ، كان الشعر أكثر .

وأيضاً ، فإن كثرة وطء الأرض بالأخمصين ، يصلبهما ، ويجعل سطحهما أملس ، لاينبت شيئا ، كما أن الأرض التى توطأ كثيراً لاتنبت شيئا .

وأما الجبهة ، فلو نبت الشعر عليها ، لستر محاسنها ، وأظلم الوجه ، وتدلَّى على العين . وكان يحتاج إلى حلقه دائما ، ومنع العينين من كمال الإدراك .

والسبب المؤدى لذلك ، أن الذى تحت عظم الجبهة ، هو مقدم الدماغ ، وهو بارد رطب ، والبخار لا يتحرك منحرفا إلى الجبهة ، بل صاعدا إلى فوق .

فإن قيل : لم نبت شعر الصبى على رأسه وحاجبيه وأجفانه معه ، من الصغر ، دون سائر الشعور ؟

قيل : لشدة الحاجة إلى هذه الشعور الثلاثة ، أوجدها الله سبحانه معه ، وهو جنين فى بطن أُمه .

فإن شعر الرأس ، كالغطاء الواقى له من الآفات . والأهداب والأجفان ، وقاية للعين .

فإن قيل : فَلِمَ لَمْ تنبت له اللحية ، إلا بعد بلوغه ؟

قيل : لأنه عند البلوغ ، تجتمع الحرارة فى بدنه ، وتكون أقوى ما هى .

ولهذا ، يعرض له فى مثل هذا الطور ، الْبُثُرَات والدمامل ؛ وكثرة الاحتلام .

وإذا كثرت الحرارة ، كثرت الأبخرة ، بسبب التحلل . وزادت على القدر المحتاج إليه فى شعر الرأس .

فصرفها أحكم الحاكمين ، إلى نبات اللحية والعانة .

وأيضاً ، فإن بين أوعية الْمَنِىِّ ، وبين اللحية ارتباط : إذ العروق والمجارى متصلة بينهما .

فإذا تعطلت أوعية المنى ويبست ، تعطل شعر اللحية.

وإذا قلّت الرطوبة والحرارة هناك ، قلّ شعر اللحية ؛ ولهذا ، فإن الخِصيَانَ ، لاينبت لهم لِحًى .

فإن قيل : فما العلة فى الكوسج ؟ قيل : برد مزاجه ، ونقصان حرارته .

فإن قيل : فما السبب فى الصلع ؟ قيل : عدم احتباس الأبخرة فى موضع الصلع .

فإن قيل : فلم كان فى مقدم الرأس دون جوانبه ومؤخره ؟

قيل : لأَن الجزءَ المقدم من الرأْس ، بسبب رطوبة الدماغ ، يكون أَكثر لينـا وتـحللا . فتتحلل الفضلات التى يكو ن منها الشعر ، فلا يبقى للشعر مادة هناك .

فإن قيل : فلم لم يحدث فى الأَصداغ ؟

قيل : إن الرطوبة فى الأَسافل ، أَكثر منها فى الأَعالى. وشاهده ، الأَرض العالية والمنخفضة .

فإن قيل : فلم لم تصلع المرأَة إلا نادرا ، وكان الصلع فى الرجال أَكثر ؟

قيل : لأَن الأَصل أَنه يحدث من يبس فى الجلد ، بمنزلة احتراقه ذلك ، لقوة الحرارة .

وأَما النساءُ ، فالرطوبة والبرودة ، أَغلب عليهن .

ولهذا فإن جلودهن أَرطب ، من جلود الرجال ، فلا تَجِفُّ جلود رءُوسهن . فلا يعرض لهن الصلع . ولهذا لايعرض للصبيان .

وإن عرض للمرأَة صلع ، فذلك فى سن يبسها ، وبلوغها من الكبر عِتِيًّا .

فإن قيل : فما السبب فى شدة سواد الشعر ؟

قيل : شدة البخارات الخارجة من البدن واعتدالها ، وصحة مادتها ، كخضرة الزرع .

فإن قيل : ماسبب الصهوبة (١) .

قيل : برد المزاج ، فتضعف الحرارة عن صبغ الشعر وتسويده .

فإن قيل : فما سبب الشقرة والحمرة ؟

قيل : زيادة الحرارة ، فتصبغ الشعر . ولهذا تجد الشقر ، أشد حرارة ، وأكثر حركة وهمة .

فإن قيل : فما سبب البياض ؟

قيل : البياض نوعان : أحدهما طبيعى ، وهو الشيب .

والثانى خارج عن الطبيعة ، وهو ما يوجد فى أواخر الأمراض المجففة بسبب تحلل الرطوبات ، كما يعرض للنبات عند الجفاف .

---

(١) قال فى المصباح : الصهبة والصهوبة : احمرار الشعر . وصهب صهبا من باب تعب ، فالذكر ، أصهب ، والأنثى ، صهباء والجمع صهب مثل أحمر وحمراء وحمر اهـ

وفى القاموس : الصهب محركة (يعنى مفتوح الصاد والهاء) حمرة أو شقرة فى الشعر كالصهبة بالضم والصهوبة اهـ محل الحاجة .

فإن قيل : فما سبب الطبيعى ؟

قيل : اختلف فى ذلك .

فقالت طائفة : سببه الاستحالة إلى لون البلغم ، بسبب ضعف الحرارة فى أبدان الشيوخ .

وقالت طائفة : سببه ، أن الغذاءَ الصائر إلى الشعر ، يصير باردا ، بسبب نقصان الحرارة ، ويكون بطىءَ الحركة مدة نفوذه إلى المسام .

وجمعت طائفة بين القولين ، وقالوا : العلة فى الأمرين واحدة ، وسببها ، نقصان الحرارة .

فإن قيل : فلم اختص الشيب بالإنسان من بين سائر الحيوان ؟

قيل : لأن لحم الإنسان وجلده رخوين ، وجلود الحيوانات ولحومها ، أقوى وأصلب .

فلما غلظت مادة الشعر فيها ، لم يعرض له مايعرض لشعر الإنسان . ولهذا يكون شعرها كلها معها ، من حين ولادتها ، بخلاف الإنسان .

وأيضاً ، فإن الإنسان يستعمل المطاعم المركبة المتنوعة ، وكذا المشارب ، ويتناول أكثر من حاجته .

فتجتمع فيه فضلات كثيرة ، فتدفعها الطبيعة إلى ظاهر البدن .

فمادامت الحرارة قوية ، فإنها تقوى على إحراق تلك الفضلات ، فيتولد من إحراقها ، الشعر الأسود .

فإذا بلغ الشيخوخة ، ضعفت الحرارة ، وعجزت عن إحراق تلك الفضلات ، فتعمل فيها عملا ضعيفا .

وأما سائر الحيوانات ، فلا تتناول الأغذية المركبة ، وتتناول منها ، على قدر الحاجة . فلا يشيب شعرها . كما يشيب شعر الإنسان .

وأيضاً ، فإن فى زمن الشيخوخة ، يكون أقل حرارة وأكثر رطوبة ، فيتولد البلغم .

وأما الحيوانات ، فاليبس غالب عليها .

فإن قيل : فلم كان شيب الأصداغ ـ فى الأكثر ـ مقدما على غيره ؟

قيل : لقرب هذا الموضع من مقدم الدماغ ، والرطوبة فى مقدم الدماغ كثيرة ، لأن الموضع مفصل ، والمفصل ، تجتمع فيه الفضلات الكثيرة ، فيكثر البرد هناك ، فيسرع الشيب .

فإن قيل : فلم أسرع الشيب فى شعور الخصيان والنساء ؟

قيل : أما النساءُ ، فَلِبَرْدِ مزاجهن فى الأَصل . ولاجتماع الفضلات الكثيرة فيهن .

وأَما الخصيان ، فلتوافر المنى على أَبدانهم ، يصير دمهم غليظا بلغميا ، ولهذا لايحدث لهم الصلع .

فإن قيل : فلم كان شعر الإِبط لايبيض ؟

قيل : لقوة حرارة هذا الموضع ، بسبب قربه من القلب ، ومسامه كثيرة بلغمية ؛ لأَنها تتحلل بالعرق الدائم .

فإن قيل : فلم أَبطأَ بياض شعر العانة ؟

قيل : لأَن حركة الجماع ، تحلل البلغم ، الذى فى مسامه .

فإن قيل : فلم كانت الحيوانات تتبدل شعورها كل سنة ، بخلاف الإِنسان ؟

قيل : لضعف شعورها عن الدوام والبقاءِ ، بخلاف شعر الآدمى .

فإن قيل : فما سبب الجعودة والسبوطة ؟

قيل : أَما الجعودة ، فمن شدة الحرارة ، أَومن التواءِ المسام .

فالذى من شدة الحرارة فإنه تعرض منه الجعودة كما تعرض للشعر عند عرضه على النار .

وأما الذى لالتواء المسام ، فلأن البخار لضعفه ، لايقدر أن ينفذ على الاستقامة ، فيلتوى فى المنافذ . فتحدث الجعودة .

فإن قيل : فما السبب فى طول شعر الميت وأظفاره بعد موته ، إذا بقى مدة ؟

قيل : عنه جوابان :

أحدهما ، أنها لاتطول ، ولكن لما ينقص ماحولها ، يظن أنها زادت .

الثانى – وهو أصوب – أن ذلك الطول من الفضلات البخارية ، التى تتحلل وهلة من الميت ، فيمتد معها الشعر والظفر .

فإن قيل : فلم كان المريض – وخاصة المحموم – ينقص لحمه ، ويزيد شعره ؟

قيل : إن فى المرض تكثر الفضلات ، فتطول الشعور والأظفار بها ، ويثقل الغذاءُ فيذوب اللحم .

وأما فى الصحة ، فتقل الفضلات ، فلا تحتاج

الطبيعة إلى الغذاءِ وهضمها له ، وإذا قَلَّتِ الفضلات ، نفدت مادة الشعر ، فيبطئُ .

فإن قيل ، فما العلة فى انتصاب شعر الخائف والمقرور ، حتى يبقى كشعر القنفذ ؟

قيل : العلة فيه ، أَن الجلد ينقبض وتجتمع المسام على الشعر وتتضايق عليه فينتصب .

فإن قيل : فلم انتصب شعر البدن واللحية واللحيين ؟ (١) .

فإن قيل : فلم كانت كثرة الجماع ، تزيد فى شعر اللحية والجسد ، وتنقص من شعر الرأْس والأَجفان ؟

قيل : لأَن الشعر ، فيه مايكون طبيعيا من أَول الخلقة . كاللحية وسائر شعر البدن .

والأَول يكون من قوة الحرارة الأَصلية .

والثانى من قوة الحرارة الخارجية ، فلا جَرَمَ نقصت بسببه ، الشعور الأَصلية ، وتوفرت العرضية .

---

(١) سقط جواب هذا السؤال ، ولعله بقية جواب السؤال الذى قبله . فتحرف الكلام عنه إلى ما ترى . فتأمل .

فإن قيل : فلم كان الشعر فى الإنسان ، فى الجزء المقدم ، أكثر منه فى المؤخر ، وباقى الحيوانات بالعكس ؟

قيل : لأن الشعر إنما يكون ، حيث تكون الحرارة قوية ، ويكون تحلل الجلد أكثر ، وهذا فى الإنسان فى ناحية الصدر والبطن ، وأما جلدة الظهر فمتكاثفة .

وأما ذوات الأربع ، ففى الخلف ، شعورها أكثر ؛ لأن البخار فيها ، يرقى إلى الخلف ، وأن تلك المواضع ، هى التى تتلقى الحر والبرد ، فتحتاج إلى وقاء أكثر .

فإن قيل : فلم كان الرأس بالشعر ، أحق الأعضاء ونباته أكثر ؟

قيل : لأن البخار يتصاعد ، ويطلب جهة الفوق وهو الرأس .

ولا تستطل هذا الفصل ، فإن أمر الشعر من السمات والفضلات ، وهذا شأنه ، فما الظن بغيره من الأجزاء الأصلية ؟

فإذا كانت هذه قليلة من كثير ، من حكمة الرب تعالى فى الشعور ، ومواضعها ، ومنافعها ، فكيف بحكمته فى الرأس ، والقلب ، والكبد ، والصدر ، وغيرها ؟

ولا تضجر من ذلك ، فإن الخلق فيه من الفقه والحِكَم ، نظير ما فى الأَمر .

فالرب تعالى ، حكيم فى خلقه وأَمره ، ويحب من يفقه عنه ذلك ، ويستدل على كماله حكمته ، وعلمه ، ولطفه ، وتدبيره .

فإذا كان الله لم يضع هذه الفضلات فى الإِنسان سدى ، فما الظن بغيرها ؟

(٩٨) فصل

ونحن نذكر فصلا مختصراً فى حال الإِنسان من مبدئه إلى نهايته ، لنجعله مرآة له ينظر فيها قول خالقه وبارئه (٥١ الذاريات : وفى أَنْفُسِكُمْ أَفَلَاتُبْصِرُونَ ؟ ٢١)

لما اقتضى كمال الرب تعالى - جل جلاله - وقدرته التامة ، وعلمه المحيط ، ومشيئته النافذة ، وحكمته البالغة ، تنويع خلقه من المواد المتباينة . وأَنشأَهم من الصور المختلفة ، والتباين العظيم بينهم ، فى المواد والصور ، والصفات ، والهيئات والأَشكال والطبائع والقوى

اقتضت حكمته ، أَن أَخذ من الأَرض قبضة من

التراب ، ثم أَلقى عليها الماءَ ، فصارت مثل الحمأ(١) المسنون .

ثم أَرسل عليها الريح فجففها ، حتى صارت صلصالا كالفخار .

ثم قدر لها الأَعضاءَ والمنافذ والأَوصال والرطوبات ، وصورها ، فأَبدع فى تصويرها ، وأَظهرها فى أَحسن الأَشكال ، وفصَّلها أَحسن تفصيل ، مع اتصال أَجزائها ، وهيَّأَ كل جزءٍ منها ، لما يراد منه ، وقدره لما خلق له على أَبلغ الوجوه .

ففصلها فى توصيلها . وأَبدع فى تصويرها وتشكيلها .

والملائكة تراها ، ولا تعرف ما يراد منها .

وإبليس يُطِيف بها ، ويقول : لأَمر مَّا ، خلقت .

فلما تكامل تصويرها ، وتشكيلها ، وتقدير أَعضائها وأَوصالها ، وصارت جسدا مصورا مشكلا ، كأَنه ينطق ، إلا أَنه لاروح فيه ولا حياة ، أَرسل إليه روحه فنفخ فيه نفخة ، وانقلب ذلك الطين لحما ودما وعظاما وعروقا ، وسمعا وبصرا ، وشما ولمسا ، وحركة وكلاما .

---

(١) الحمأ : بفتحتين و « الحمأة » بسكون الميم : الطين الأسود ، والحمأ المسنون : المتغير المنتن اهـ من المختار عن الصحاح .

فأَول شيءٍ بدأَ به أَن قال : « الحمد لله رب العالمين ».

فقال له خالقه وبارئه ومصوره ، « يرحمك الله يا آدم » .

فاستوى جالسا أَجمل شيءٍ وأَحسنه منظرا ، وأَتمه خلقا ، وأَبدعه صورة .

فقال الرب تعالى لجميع ملائكته (اسْجُدُوا لِآدَمَ) فبادروا بالسجود ، تعظيما وطاعة لأَمر الواحد المعبود .

ثم قال لهم : لنا فى هذه القبضة من التراب شرع أَبدع مما ترون ، وجمال باطن ، أَحسن مماتبصرون .

فلنزينن باطنه ، أَحسن من زينة ظاهره ، ولنجعلنه من أَعظم آياتنا ، نعلمه أَسماءَ كل شيءٍ ، مما لاتحسنه الملائكة .

فكان التعليم زينة الباطن وجماله . وذلك التصوير ، زينة الظاهر فى أَكمل شيءٍ وأَجمله صورة .

ومعنى كل ذلك ، صنعته تبارك وتعالى فى قبضة من تراب .

ثم اشتق منه صورة ، هى مثله فى الحسن والجمال ، ليسكن إليها ، وتقر نفسه ، وليخرج من بينهما ، من لا يُحصِى عدده من الرجال والنساءِ ، سواهُ .

(٩٩) فصل

ثم لما أراد الله سبحانه أن يَذَرَّ نسلهما فى الأَرض ويكثره ، وضع فيهما حرارة الشهوة ، ونار الشوق والطلب ، وألهم كلا منهما اجتماعه بصاحبه .

فاجتمعا على أمر قَد قُدِر . فاسمع الآن عجائب ماهناك :

لما شاءَ الرب تعالى أَن يخرج نسخة هذا الإِنسان منه ، أَودع جسده حرارة ، وسلط عليه هيجانها ، فصارت شهوة غالبة .

فإذا هاجت حرارة الجسد ، تحللت الرطوبات من جميع أَجزاءِ الجسد ، وابتدأَت نازلة ، من خلف الدماغ ، فى عروق خلف الأُذنين إلى قفا الظهر .

ثم تخرج إلى الكليتين . ثم تجتمع فى أَوعية الْمَنِىّ ، بعد أَن طبختها نار الشهوة ، وعقدتها ، حتى صار لها قوام ، وغلظ ، وقصرتها حتى ابيضت ، وقدَّر لها مجارى وطرق تنفذ فيها .

ثم اقتضت حكمته سبحانه ، أَن قدر لخروجها أَقوى الأَسباب المستفرغة لها ، من خارج ، ومن داخل .

فقيَّض لها صورة ، حسَّنها فى عين الناظر ، وشوَّقه إليهـــــا .

وساق أَحدهما إلى الآخر ، بسلسلة الشهوة والمحبة .

فحنَّ كل منهما إلى امتزاجه بصاحبه ، واختلاطه به ، ليقضى الله أمراً كان مفعولا

وجعل هذا محل الحرث ، وهذا محل البذر . ليلتقى الماءان على أمر قد قُدِرَ .

وقدر بينهما تلك الحركات ، لتعمل الحرارة فى تلك الرطوبة والفضلة ، عملها .

واستخرجها من تحت الشعر والبشر والظفر . لتوافق نسخة الأَصل ، ويكون الداعى إلى التناسل فى غاية القوة ، فلا ينقطع النسل .

ولهذا لا تجد فى مَنِىِّ الاحتلام من القوة ، مافى مَنِىِّ الجماع .

وإنما هو من فضلة حرارة تذيب الرطوبة ، فتنفذ فيها الطبيعة إلى خارج ، من نوع تصور خيال ، بواسطة الشيطان . كما فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أَنه قال :

« والرؤيا الصالحة من الله ، والحلم من الشيطان » .

فإن قيل : فهذا اختيار منكم لقول من قال : إن المنى يخرج من جميع أجزاء البدن .

وهذا ، وإن كان قد قاله كثير من الناس ، فقد خالفهم آخرون ، وزعموا أنه فضلة تتولد من الطعام ، وهى من أعدل الفضلات .

ولهذا صلحت أن تكون مبدأ الإنسان ، وهو جسم متشابه الأجزاء فى نفسه .

قيل : القول الأول ، هو الصواب ، ويدل عليه وجـوه :

منها : عموم اللذة بجميع أجزاء البدن .

ومنها : مشاكلة أعضاء المولود ، لأعضاء الوالدين .

ومنها : أن المشابهة الكلية ، تدل على أن البدن كله ، أرسل المنى ، ولولا ذلك ، لكانت المشابهة بحسب محل واحـد .

فدل على أن كل عضو ، أرسل قسطه ونصيبه ، فلما انعقد وصلب ، ظهرت محاكاته ومشابهته له .

ومنها : أن الأمر لو كان كما زعمه أصحاب المقالة

الثانية : من أن المنى جسم واحد ،متشابه فى نفسه لم تتولد منه الأعضاءُ المختلفة . المتشكلة بالأشكال المختلفة . لأن القوة الواحدة ، لاتفعل فى المادة الواحدة إلا فعلا واحـدا .

فدل ، على أن المادة فى نفسها ، ليست متشابهة الأجزاء .

ومنها : أن المنى فضلة الهضم الآخر .

وذلك إنما يكون ، عند نضج الدم فى العروق ، وكونه مستعدا استعدادا تاما ، لأن يصير من جوهر الأعضاء .

وكذلك عقيب استفراغه من الضعف . أكثر مما يحصل من استفراغ أمثاله من الدم . ولذلك يورث الضعف فى جوهر الأعضاء الأصلية .

فدل على أنه مركب من أجزاء كل منهما ، قريب الاستعداد لأن يصير جزءًا من عضو . ولذلك سماه الله سلالة ، والسلالة : « فُعَالة » من « السل » وهو ما يسل من البدن ، كالبخار .

كما سمى أصله سلالة من طين ، لأنه استلها من

جميع الأَرض ، كما فى جامع الترمذى عن النبى صلى الله عليه وسلم ، « إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأَرض » .

قال أَصحاب القول الآخر – وهم جمهور الأَطباءِ وغيرهم : لو كان الأَمر كما زعمتم ، وأَن المنى يستل من جميع الأَعضاءِ ، لكان إذا حصل منى الذكر ومنى الأُنثى فى الرحم تشكل المولود بشكلهما معا ، ولكان الرجل لايلد إلا ذكرا دائما ، لأَن المنى قد استل عندكم ، من جميع أَجزائه ، فإذا انعقد ، وجب أَن يكون مثله .

وأَيضاً ، فإن المرأَة تضع من وطءِ الرجل فى البطن الواحد ، ذكراً وأُنثى .

ولا يمكن أَن يقال : إن ذلك بسبب اختلاف أَجزاءِ المنى .

قالوا : ولانسلم عموم اللذة ، لأَنها إنما حصلت حال الاندفاق ، بسبب سيلان تلك المادة الحارة ، جارية على تلك المجارى اللحمية التى لحمتها رخوة ، شبيهة باللحم القريب العهد بالاندمال . إذا سال عليه شيءٌ ، وهو معتدل السخونة .

ولو كانت اللذة إنما حصلت بسبب سيلان تلك تلك المادة ، لحصلت قبل الاندفاق .

قالوا : وأما احتجاجكم بالتشابه المذكور ، بين الوالد والمولود ، فالمشابهة قد تقع فى الظفر والشعر ، وليس يخرج منهما شئٌ .

وأيضاً ، فالمولود قد يشبه جدًّا بعيداً من أجداده .

كما ثبت فى الصحيح ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : أن رجلا سأله ، فقال : إن امرأتى ولدت غلاما أسود .

قال : « هل لك من إبل ؟ » قال : نعم .

قال « فما ألوانها ؟ » قال : سود .

قال « هل فيها من أورق (١)؟ » قال : نعم .

قال « فأنَّى له ذلك ؟ » قال : عسى أن يكون نزعه عرق .

قال « وهذا عسى أن يكون نزعه عرق » .

---

(١) أورق . يعنى : الذى فى لونه بياض إلى سواد . أى : كلون الرماد .
وفى القاموس : والأورق من الإبل : ما فى لونه بياض إلى سواد ، وهو من أطيب الإبل لحما ، لا سيراً وعملا . اهـ .

قالوا : ولو كان فى المنى من كل عضو أجزاءٌ ، فلا تخلو تلك الأجزاءُ .

إما أن تكون موضوعة فى المنى وضعها الواجب ، أو لاتكو ن كذلك .

فإن كانت موضوعة وضعها الواجب ، كان المنى حيوانا صغيرا .

وإن لم تكن كذلك ، استحالت المشابهة .

قالوا : وأيضاً ، فإن المنى ، إما أن يكون مركبا على تركيب هذه الأعضاءِ وترتيبها ، أو لا يكون كذلك .

فالأول باطل قطعا ، لأن المنى ، رطوبة سيالة ، فلا تحفظ الوضع ، والترتيب .

وإن كانت ثقيلة . فتعين الثانى .

ولابد قطعا ، أن يحال ذلك الترتيب والتصوير والتشكيل ، على سبب آخر ، سوى القوة التى فى المادة ، فإنها قوة ، لاشعور لها ولا إدراك ولا تهتدى لهذه التفاصيل التى فى الصورة الإنسانية .

بل هذا التصوير والتشكيل ، مستند إلى خالق عليم حكيم ، قد بهرت حكمته العقول ، ودلت آثار صنعته على كمال أسمائه وصفاته وتوحيده .

وقد اعترف بذلك ، فاضلا الأَطباءِ ، وهما ، بقراط ، وأَفلاطون . وأَقرا ، بأَن ذلك ، مستند إلى حكمة الصانع وعنايته ، وأَنه لم يصدر إلا عن حكيم عليم قدير ، ذكره جالينوس عنهما فى كتاب « رأْى بقراط وأَفلاطون » .

فأَبى جهلة الأَطباءِ ، وزنادقة المتفلسفة والطبائعيين ، إلا كفورا .

وقد ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم من حديث حذيفة بن أَسيد (١) .

« إن الله وكل بالرحم ملكا يقول : يارب نطفة ، يارب علقة ، يارب مضغة . فما الرزق ؟ فما الأَجل ؟ فما العمل ؟ فيقضى الله ما يشاءُ ، ويكتب الملك » .

---

(١) أسيد — بفتح الهمزة — قال فى الإصابة . أخرج له مسلم وأصحاب السنن . والحديث فى البخارى فى باب : « وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة » من « كتاب بدء الخلق » — عن أنس ابن مالك عن النبى ﷺ قال :

« إن الله وكل فى الرحم ملكاً ، فيقول : يا رب نطفة : يا رب علقة يا رب مضغة . فإذا أراد أن يخلقه قال : يا رب أذكر ؟ يا رب أنثى ؟ يا رب شقى أم سعيد ؟ فما الرزق ؟ فما الأجل ؟ فيكتب كذلك فى بطن أمه » .

وفى لفظ « يقول الملك الذى يخلقها » أى : يصورها بإذن الله ، أى : يصور خلقه فى الأرحام كيف شاء الله ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم .

فقال أصحاب القول الأول : نحن أحق بالتنزيه والتوحيد ، ومعرفة حكمة الخالق العليم وقدرته وعلمه ، وأسعد به منكم .

ومن أحال من سفهائنا وزنادقتنا هذا التخليق على القوة المصورة ، والأسباب الطبيعية ، ولم يسندها إلى فاعل مختار ، عالم بكل شىء ، قادر على كل شىء ، لا يكون شىءٌ إلا بإذنه ومشيئته .

والقوة والطبيعة ، خلق مسخر من خلقه ، وعبد من جملة عبيده ، ليس لها تصرف ، ولا حركة ولا فعل ، إلا بإذن بارئها وخالقها — فذلك الذى جهل نفسه وربه ، وعادى الطبيعة والشريعة .

والرب تعالى يخلق ما يشاءُ ويختار ، ويصور خلقه فى الأرحام كيف يشاءُ ، بأسباب قدرها ، وحكم دبرها .

وإذا شاء أن يسلب تلك الأسباب قواها ، سلبها .

وإذا شاء أن يقطع مسبباتها عنها ، قطعها .

وإذا شاءَ أَن يهيِءَ لها أَسبابا أُخرى تقاومها وتعارضها ، فعل ؛ فإِنه الفعال لما يريد .

وليس فى كون المنى مستلا من جميع أَجزاءِ البدن ، ما يخرج الحوالة على قدرته ومشيئته وحكمته ، بل ذلك أَبلغ فى الحكمة والقدرة .

وأَما قولكم : لو كان الْمَنِيُّ مستلا من جميع الأَعضاءِ ، لكان الولد يتشكل بشكلهما معا .

فقد أَجاب النبى صلى الله عليه وسلم عمن سأَله عن ذلك بما شفى . كفى .

ففى صحيح البخارى من حديث أَنس رضى الله عنه قال : بلغ عبدَ الله بن سلام مَقْدَمُ رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة . وهو فى أَرضه يخترف ، فأَتاه ، وقال : إِنى سائلك عن ثلاث ، لايعلمهن إلا نبى .

ما أَول أَشراط الساعة ؟ وما أَول طعام يأْكله أَهل الجنة ؟

ومن أَى شىءٍ ينزع الولد إلى أَبيه ؟

ومن أَى شىءٍ ينزع إلى أَخواله ؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَخبرنى بهن آنفا جبريل » .

فقال عبد الله : ذاك عَدوٌّ اليهود من الملائكة .

« أما أَشراط الساعة ، فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب .

وأَما أَول طعام يأْكله أَهل الجنة ، فزيادة كبد الحوت .

وأَما الشبه فى الولد ، فإن الرجل إذا غَشِىَ المرأَة ، فسبق ماؤه ، كان الشبه لها » .

فقال أَشهد أَنك رسول الله .

فهذا جواب جبريل أَمين رب العالمين ، لاجبريل الطبيب .

وفى صحيح مسلم ، من حديث ثوبان ، عن النبى صلى الله عليه وسلم « إذا علا ماء الرجل ، ماء المرأَة ، أَذْكَرَ بإذن الله وإذا علا ماءُ المرأَة ماءَ الرجل ، آنث بإذن الله » .

وقد يتفق الماءآن فى الإنزال والقدر : وذلك من أَندر الأَشياءِ ، فيخلق للولد ذكر كذكر الرجل وفرج كفرج المرأَة .

فإذا شاءَ الله أَن يغلب سلالة ماءَ الرجل على ماءِ المرأَة ، أَو سلالتها ، أَمر ملك الأَرحام بتصويره كذلك . فإن

ذلك لايخل بحكمته ، ولايخرق عادته ، ولو خرقها ، لم يخل بحكمة أحكم الحاكمين .

وأما منعكم عموم اللذة ، فشبيه بالمكابرة ، والمجامع يجد عند الإنزال شيئا قد استل من جميع بدنه ، وسمعه ، وبصره ، وقواه فى قالب الرحم . فيحس كأنه خلع قميصاً كان مشتملا به .

ولهذا اقتضت حكمة الرب تعالى فى شرعه وقدره ، أن أمره بالاغتسال عقيب ذلك ، ليخلف عليه الماءُ ، ما تحلل من بدنه من ماءٍ .

وإذا اغتسل ، وجد نشاطاً وقوة ، وكأنه لم ينقص منه شيءٌ . فإن رطوبة الماء ، تخلف على البدن ، ما حللته تلك الحركة من رطوباته .

وتعمل فيها الحرارة الأصلية عملها ، فتمدبها القوى ، التى ضعفت بالإنزال .

وأما التشابه الواقع بين الظفر والشعر فى الوالد والمولود ، ولم ينفصل بينهما شيءٌ ، فما أبردها منشبهة

فإن الظفر والشعر ، تابعان للأعضاء ، والمزاج الذى وقع فيه التشابه ، فاستتبع تشابه الأصل ، تشابه التبع .

وأما شبه المولود بالجد البعيد من أجداده ، فهو من أقوى الأدلة لنا فى المسألة ، لأن ذلك الشبه البعيد لم يزل يتنقل فى الأصلاب ، حتى استقر فى صورة الولد وبها حصل الشبه .

وأما قولكم : إن تلك الأجزاء لاتخلو .

إما أن تكون موضوعة فى المنى ، وضعها الواجب أولا ، إلى آخره .

فجوابكم ، أنكم ، إن عنيتم أنها موضوعة بالفعل ، فليس كذلك :

وإن أردتم أنها موضوعة بالقوة ، فنعم . وما المانع منه ، ويكون المنى حيواناً صغيرا ، بل كبيراً بالقوة ؟

وبهذا ظهر الجواب عن قولكم : إن المنى رطوبة سيالة ، لاتحفظ الوضع والترتيب .

وغاية مايقدر أن ذلك جزءٌ من أجزاءِ السبب ، الذى يخلق الله به الولد ، وجزءُ السبب لايستقل بالحكم

فالمستقل بالإيجاد ، مشيئة الله وحده ، والأسباب محال الظهور

(١٠٠) فصل

فإن قيل : فهذا تصريح منكم ، بأن المرأة لها منى ، وأن منها أحد الجزئين ، اللذين يخلق الله منهما الولد. وقد ظن طائفة من الأطباء أن المرأة لامنى لها .

قيل : هذا هو السؤال ، الذى أوردته أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ، وأم سلمة رضى الله عنها ، على النبي صلى الله عليه وسلم ، وأجابهما عنه بإثبات منى المرأة. فى الصحيح ، أن أم سليم رضى الله عنها قالت :

يارسول الله ، إن الله لايستحى من الحق ، هل على المرأة من غسل إذا هى احتلمت ؟ قال : « نعم ، إذا رأت الماء » .

فقالت أم سلمة : أو تحتلم المرأة ؟

فقال : « تربت يداك ، فبم يشبهها ولدها ؟

وفيهما ، عن عائشة رضى الله عنها ، أن أم سليم رضى الله عنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المرأة ، ترى فى منامها ما يرى الرجل ، هل عليها من غسل ؟

قال « نعم ، إذا رأت الماء » .

قالت ، فقلت له : أفترى المرأة ذلك ؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وهل يكون الشبه إلا من ذلك ؟ إذا علا ماؤها ماءَ الرجل ، أشبه الولد أخواله . وإذا علا ماءُ الرجل ماءَها ، أشبه أعمامه» هذا لفظ مسلم .

وقد ذكر جالينوس التشنيع على أرسطاليس ، حيث قال : إن المرأة لامنيَّ لها .

فلنحرر هذه المسألة طبعا . كما حررت شرعا فنقول :

منيُّ الذكر من جملة الرطوبات والفضلات ، التى فى البدن ، وهذا أمر يشترك بين الذكر والأُنثى ، منه رأسا يتخلق الولد ، وبواسطته يكون الشبه . ولو لم يكن للمرأة منى ، لما أشبهها ولدها .

ولا يقال : إن الشبه ، سببه دم الطمث . فإنه لاينعقد مع منى الرجل . ولا يتحد به .

وقد أجرى الله العادة بأن التوالد لايكون إلا بين أصلين ، يتولد من بينهما ثالث .

ومِنِيُّ الرجل وحده ، لايتولد منه الولد ، مالم يمازجه مادة أُخرى من الأُنثى .

وقد اعترف أَرباب القول الآخر بذلك ، وقالوا :

لابد من وجود مادة بيضاءَ لزجة للمرأَة ، تصير مادة لبدن الجنين .

ولكن نازعوا : هل فيها قوة عاقدة ، كما فى منى الرجل أم لا ؟

وقد أَدخل النبي ، صلى الله عليه وسلم هذه المسأَلة فى الحديث الذى رواه مسلم فى صحيحه ، من حديث ثوبان مولاه ، حيث سأَله اليهود عن الولد ، فقال :

« ماءُ الرجل أَبيض ، وماءُ المرأَة أَصفر ، فإذا اجتمعا ، فعلا منى الرجل منى المرأَة ، أَذْكَر بإذن الله . وإذا علا منى المرأَة منى الرجل ، آنث بإذن الله » .

نعم لمنى الرجل خاصة الغلظ والبياض ، والخروج بدفق ودفع .

فإن أَراد من نفى منى المرأَة ، انتفاءَ ذلك عنها ، أَصاب .

ومنى المرأَة خاصته الرقة ، والصفرة ، والسيلان بغير دفع .

فإن نفى ذلك عنها ، أَخطأَ .

وفى كل من الماءين قوة ، فإذا انضم أحدهما إلى الآخر ، اكتسبا قوة ثالثة، وهى من أسباب تَكَوُّنِ الجنين

واقتضت حكمة الخلاق العليم سبحانه ، أن جعل داخل الرحم خشنا كالسفنج ، وجعل فيه طلبا للمنى ، وقبولا له ، كطلب الأرض الشديدة العطش للماءِ وقبولها له . فجعله طالبا حافظا ، مشتاقا إليه بالعطش .

فلذلك إذا ظفر به ، ضمه ولم يضيعه ، بل يشتمل عليه أتم الاشتمال .

وينضم ، أعظم انضمام ، لئلا يفسده الهواءُ ، فيتولى القوة والحرارة ، التى هناك ، بإذن الله ، ملك الرحم .

فإذا اشتمل على المنى ، ولم يقذف به إلى خارج ، استدار على نفسه وصار كالكرة ، وأخذ فى الشدة إلى تمام ستة أيام .

فإذا اشتد ، نقط فيه نقطة فى الوسط ، وهو موضع القلب ، ونقطة فى أعلاه ، وهى نقطة الدماغ ، وفى اليمين ، وهى نقطة الكبد .

ثم تتباعد تلك النقط ، ويظهر بينها خطوط حمر ، إلى تمام ثلاثة أيام أُخر .

ثم تنفذ الدموية فى الجميع ، بعد ستة أيام أخر ، فيصير ذلك خمسة عشر يوما ، ويصير المجموع ، سبعة وعشرين يوما .

ثم ينفصل الرأس عن المنكبين ، والأطراف عن الضلوع ، والبطن عن الجانبين . وذلك فى تسعة أيام ، فتصير ستة وثلاثين يوما

ثم يتم هذا التمييز ، بحيث يظهر للحس ظهورا بيِّنًا ، فى تمام أربعة أيام . فيصير المجموع أربعين يوما تجمع خلقه . وهذا مطابق لقول النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث المتفق على صحته .

« إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما »

واكتفى النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الإجمال عن التفصيل ، وهذا يقتضى ، أن الله قد جمع فيها خلقها ، جمعا خفيا ، وذلك الخلق فى ظهور خفى على التدريج .

ثم يكون مضغة أربعين يوما أخرى ، وذلك التخليق يتزايد شيئا فشيئاً ، إلى أن يظهر للحس ظهوراً لاخفاء به كله .

والروح ، لم تتعلق به بعد ، فإنها إنما تتعلق به فى

الأَربعين الرابعة ، بعد مائة وعشرين يوما ، كما أَخبربه الصادق ، وذلك مما لاسبيل إلى معرفته إلا بالوحى ، إذ ليس فى الطبيعة ، مايقتضيه ، فلذلك حار فضلاء الأَطباء ، وأَذكياءُ الفلاسفة فى ذلك ، وقالوا : إن هذا مما لاسبيل إلى معرفته إلا بحسب الظن البعيد .

قال من وقف على نهايات كلامهم فى ذلك ، دأب فيه حتى كَلَّ ، وهو صاحب الطب الكبير ، فذكر مناسبات خيالية ثم قال :

وحقيقة العلم فيه ، عند الله تعالى ، لامطمع لأَحد من الخلق فى الوقوف عليه .

قلت : قد أَوقفنا عليه الصادق المصدوق ، صلى الله عليه وسلم ، الذى لاينطق عن الهوى ، بما ثبت فى الصحيحين .

« إن خلق أَحدكم ، يجمع فى بطن أُمه أَربعين يوما ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث إليه الملك ، فينفخ فيه الروح . ويؤمر بأَربع : يكتب رزقه ، وأَجله ، وعمله ، وشقى أَوسعيد » .

(١٠١) فصل

ورأيت لبعض الأَطباءِ كلامًا ، ذكر فيه سبب تفاوت زمن الولادة ، فأَذْكَرَه ، وأَذْكَرَ مافيه .

قال : إذا تم خلق الجنين فى مدة معينة ، فإنها إذا زاد عليها مثلها ، تحرك الجنين .

فإذا انضاف إلى المجموع مثلاه ، انفصل الجنين .

قال : فإذا تم خلقه فى ثلاثين يوما ، فإذا صار له ستون يوما ، تحرك .

فإذا انضاف إلى الستين مثلاها ، صارت مائة وثمانين يوما ، وهى ستة أَشهر ، وهى مدة ينفضل لها الحمل .

وإذا تم خلقه فى خمسة وثلاثين يوما ، تحرك لسبعين ، وانفصل ، لسبعة أَشهر .

وإذا تم خلقه لأَربعين ، تحرك لثمانين ، وانفصل لثمانية أَشهر .

وإذا تم لخمسة وأَربعين تحرك لتسعين . وانفصل لتسعة أَشهر وعلى هذا الحساب أَبدا .

وهذا الذى ذكره هـذا القائل ، يقتضى حركة الجنين قبل الأَربعين .

وهذا خطأٌ قطعا . فإن الروح ، إنما تتعلق به بعد الأَربعين الثالثة ، وحينئذ يتحرك ، فلاتثبت له حركة قبل مائة وعشرين يوما .

وما يقدر من حركة قبل ذلك ، فليست حركة ذاتية اختيارية ، بل لعلها حركة عارضة ، بسبب الأَغشية والرطوبات .

وما ذكره من الحساب ، لايقوم عليه دليل ، ولا تجربة مطردة ، فربما زاد على ذلك ، أَو نقص منه .

ولكن الذى نقطع به ، أَن الروح لاتتعلق به إلابعد الأَربعين الثالثة .

وما يقدر من حركة قبل ذلك ، إن صحت ، لم تكن بسبب الروح . والله أَعلم .

(١٠٢) فصل

وأما أَقل مدة الحمل ، فقد تظاهرت الشريعة والطبيعة ، على أَنها ستة أَشهر ، قال تعالى (٤٦ الأَحقاف :

وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْراً ١٥) وقال تعالى (٢البقرة : وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ٢٢٣) .

وقال جالينوس : كنت شديد الفحص عن مقادير أَزمنة الحمل ، فرأيت امرأة واحدة ، ولدت فى مائة وأَربع وثمانين ليلة .

وزعم صاحب الشفاءِ ، أَنه شاهد ذلك .

وأَما أَكثره فقال فى الشفاءِ : بلغنى من حيث وثقت ، أَن امرأَة وضعت بعد الرابع من رأْس الحمل ولداً ، قد نبتت أَسنانه وعاش .

(١٠٣) فصل

فإن قيل : فما سبب الإِذكار والإِيناث ؟

قيل : الذى نختاره أَن سببه مشيئة الرب الفاعل باختياره ، وليس بسبب طبيعى .

وكل ما ذكر أَصحاب الطبائع ، من الأَسباب فمنتقض مثل حرارة الرجل ورطوبته .

قالوا : وفساد المزاج أَيضاً ، يوجب إِيلاد الإِناث ، واستقامته ، توجب الإِذكار .

وهذا تخليط وهذيان . فليس للإذكار والإيناث إلا قول الله لملك الأرحام ، وقد استأذن « يارب ذكر ؟ يارب أنثى ؟ يارب شقى أم سعيد ؟ فما الرزق ؟ فما الأجل ؟ » .

والإذكار والإيناث ، قرين السعادة ، والشقاوة ، والرزق ، والأجل .

فإن قيل : فتلك أيضاً بأسباب ؟

قلنا : نعم ، ولكن بأسباب بعد الولادة ، ولاسبب للإذكار والإيناث قبل الولادة .

فإن قيل : فما تصنعون بحديث ثوبان ، الذى رواه مسلم فى صحيحه ، أن يهوديا سأل النبى صلى الله عليه وسلم عن الولد ، فقال :

ماءُ الرجل أبيض ، وماءُ المرأة أصفر ، فإذا اجتمعا فعلا مَنِيُّ الرجل مَنِيَّ المرأة ، أذكر بإذن الله ، وإذا علا منى المرأة منيَّ الرجل آنث بإذن الله » .

فقال اليهودى : صدقت ، وإنك لنبى .

قيل : هذا الحديث ، تفرد به مسلم فى صحيحه . وقد تكلم فيه بعضهم وقال :

الظاهر أن الحديث ، وهم فيه بعض الرواة ، وإنما كان السؤال عن الشبه ، وهو الذى سأل عنه عبد الله ابن سلام فى الحديث المتفق على صحته ، فأجابه بِسَبْق الماءِ ، فإن الشبه يكون للسابق فلعل بعض الرواة ، انقلب عليه شبه الولد بالمرأة ، بكونه ، أُنثى ، وشبهه بالوالد ، بكونه ذكرا ، لاسيما والشبه التام ، إنما هو بذلك .

وقالت طائفة : الحديث صحيح لامطعن فى سنده ، ولا منافاة بينه وبين حديث عبد الله بن سلام .

وليست الواقعة واحدة ، بل هما قضيتان ، ورواية كل منهما غير رواية الأُخرى .

وفى حديث ثوبان ، قضية ضبطت وحفظت . قال ثوبان :

كنت قائما عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاءَ حبر من أَحبار اليهود ، فقال : السلام عليك يامحمد . فدفعته دفعة ، كاد يصرع منها .

فقال لى : لم تدفعنى ؟

فقلت : أَلا تقول : يارسول الله ؟

فقال اليهودى : إنما ندعوه باسمه ، الذى سماه به أَهله.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن اسمى محمداً ، الذى سمانى به أهلى » .

فقال اليهودى : جئت أسألك .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أينفعك شئ إن حدثتك ؟ »

قال : أسمع بأذنى ، فنكت رسول الله صلى الله عليه وسلم بعود معه .

فقال اليهودى : أين يكون الناس ، يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هم فى الظلمة ، دون الجسر » .

قال : فمن أول الناس إجازة ؟

قال : « فقراءُ المهاجرين » .

قال اليهودى : فما تحفتهم حتى يدخلوا الجنة ؟

قال : زيادة كبد الحوت » .

قال : فما غذاؤهم على أثرها ؟

قال : « ينحر لهم ثور الجنة ، الذى يأكل من أطرافها »

قال : فما شرابهم عليه ؟

قال : « من عين فيها تسمى سلسبيلا » .

قال : صدقت . قال : وجئت أَسأَلك عن شيء لا يعلمه أَحد إلا نبي ، أَو رجل أَو رجلان .

قال : أَينفعك إن حدثتك ؟ » قال أَسمع بأُذني .

قال : جئت أَسأَلك عن الولد .

قال « ماءُ الرجل أَبيض ، وماءُ المرأَة أَصفر . فإذا اجتمعا ، فعلا منيُّ الرجل منيَّ المرأَة ، أَذْكَرَ بإذن الله . وإذا علا منيُّ المرأَة منيَّ الرجل ، آنث بإذن الله » .

قال اليهودي : لقد صدقت ، وإنك لنبي ثم انصرف فذهب .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لقد سأَلني هذا الذي سأَلني عنه ، ومالي علم به ، حتى أَتاني به الله » .

وأَما حديث عبد الله بن سلام رضي الله عنه ، ففي صحيح البخاري ، عن أَنس رضي الله عنه قال :

بلغ عبد الله بن سلام ، مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، فأَتاه ، فقال :

إنى سائلك عن ثلاث ، لايعلمهن إلا نبى : ما أول أشراط الساعة ؟

وما أول طعام يأكله أهل الجنة ؟ ومن أى شىء ينزع الولد إلى أبيه ، ومن أى شىء ينزع إلى أخواله ؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خَبَّرنى آنفا جبريل » .

فقال عبد الله : ذاك عدو اليهود من الملائكة ـ فقال : « أما أول أشراط الساعة ، فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب .

وأما أول طعام يأكله أهل الجنة ، فزيادة كبد الحوت .

وأما الشبه فى الولد ، فإن الرجل إذا غشى المرأة ، فسبقها ماؤه ، كان الشبه له . وإذا سبقت كان الشبه لها » .

قال : أشهد أنك رسول الله ، وذكر الحديث .

فتضمن الحديثان ، أمرين ، ترتب عليهما الأثران معاً .

وأيهما انفرد ، ترتب عليه أثره . فإذا سبق ماءُ الرجل وعلا ، أذكر وكان الشبه له .

وإن سبق ماءُ المرأة وعلا ، آنث ، وكان الشبه لها .

وإن سبق ماءُ المرأة وعلا ماءُ الرجل ، أَذْكَرَ ، وكان الشبه لهـا .

ومع هذا كله ، فهذا جزءُ سبب ، ليس بموجب . والسبب الموجب ، مشيئة الله .

فقد يسبب بضد السبب ، وقد يرتب عليه ، ضد مقتضاه ، ولا يكون فى ذلك مخالفة لحكمته ، كما لايكون تعجيزًا لقدرته .

وقد أَشار فى الحديث ، إلى هذا بقوله : أَذكر وآنث بإِذن الله » .

وقد قال تعالى (٤٢ الشورى : لِلّٰهِ مُلْكُ السَّمواتِ والْأَرْضِ يخْلُقُ ما يشَاءُ يهَبُ لِمنْ يشَاءُ إِنَاثًا ويهَبُ لِمنْ يشَاءُ الذُّكور ٤٩ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ٥٠) .

فأَخبر سبحانه أَن ذلك عائد إلى مشيئته ، وأَنه قد يهب الذكور فقط ، والإِناث فقط .

وقد يجمع للوالدين ، بين النوعين معا ، وقد

يخليهما عنهما معا ، وأن ذلك كما هو راجع إلى مشيئته ، فهو متعلق بعلمه وقدرته .

وقد وهب الله آدم ، الذكور والإناث ، وإسرائيل ، الذكور دون الإناث ، ومحمدا صلى الله عليه وسلم الإناث ، دون الذكور ، سوى ولده إبراهيم (١) .

وقال سليمان عليه السلام ، لأطوفن الليلة على سبعين امرأة ، تأتى كل امرأة منهن بغلام يقاتل فى سبيل الله

فطاف عليهن ، فلم تلد منهن إلا امرأة واحدة ، جاءت بشق ولد » .

قال النبي صلى الله عليه وسلم : « والذى نفسى بيده ، لو قال إن شاء الله ، لجاهدوا فى سبيل الله فرسانا أجمعون » .

فدل على أن مجرد الوطء ، ليس بسبب تام ، وإن كان له مدخل فى السببية .

وأن السبب التام ، مشيئة الله وحده . فهو رب

---

(١) قد ولد للنبى ﷺ ، من خديجة من الذكور ، القاسم - وهو أول أولاده ، وبه كان يكنى - وعبد الله ، والطيب ، والطاهر .
وقيل : إن الطيب والطاهر ، لقبا عبد الله .
وولد له من جاريته مارية ، إبراهيم . وكلهم ماتوا أطفالا .

الأسباب ، المتصرف فيها كيف شاء ، بإعطائها السببية ، إذا شاء ، ومنعها إياها ، إذا شاء ، وترتيب ضد مقتضاها عليها ، إذا شاء .

والأسباب هى مجارى الشرع والقدر ، فعليها يجرى أمر الله الكونى والدينى .

فإن قيل : فقد ظهر أن الولد مخلوق من الماءين جميعا .

فهل يخلق منهما على حد سواء ، أم يكون الولد من ماء الأب ، وبعضه من ماء الأم ؟

قيل : قد بين النبى صلى الله عليه وسلم هذه المسألة بأوضح البيان .

فقال الإمام أحمد فى مسنده : حدثنا حسين بن الحسين ، حدثنا أبو كريب ، عن عطاء بن السائب ، عن القاسم بن عبد الرحمن ، عن أبيه ، عن عبد الله ابن مسعود قال :

مَرَّ يهودى برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يحدث أصحابه .

فقالت قريش : يايهودى ، إن هذا يزعم أنه نبي .

فقال : لأَسأَلنَّه عن شيءٍ لايعلمه إلا نَبىٌّ ، فجاءَ حتى جلس ، ثم قال :

يا محمد ، مم يخلق الإنسان ؟ فقال : « من كُلٍّ يخلق ، من نطفة الرجل ، ومن نطفة المرأَة » .

فأَما نطفة الرجل فنطفة غليظة ، منها العظم والعصب .

وأَما نطفة المرأَة ، فنطفة رقيقة ، منها اللحم والدم »

فقام اليهودى فقال : هكذا يقول مَنْ قبلك .

(١٠٤) فصل

فإن قيل : قد ذكرتم أَن تعلق الروح بالجنين ، إنما يكون بعد الأَربعين الثالثة ، وأَن خلق الجنين ، يجمع فى بطن أُمه أَربعين يوماً ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك .

وبَيَّنتُم أَن كلام الأَطباءِ ، لا يناقض ما أَخبر به الوحى من ذلك .

فما تصنعون بحديث حذيفة بن أَسيد ، الذى رواه مسلم فى صحيحه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يدخل الملك فى النطفة ، بعدما تستقر فى الرحم بأَربعين ، أَو خمس وأَربعين ليلة ، فيقول :

أَى رب ، أَشقى أَم سعيد ؟ فيكتبان ، فيقول : أَى رب ، ذكر أَو أُنثى ؟ فيكتبان ، ويكتب عمله وأَثره وأَجله ورزقه ، ثم يطوى الصحيفة ، فلايزاد فيها ولا ينقص » ؟

قيل نتلقاه بالقبول والتصديق ، وترك التحريف .

ولا ينافى ما ذكرناه ، إذ غاية ما فيه أَن التقدير وقع بعد الأَربعين الأُولى .

وحديث ابن مسعود ، يدل على أَنه وقع بعد الأَربعين الثالثة وكلاهما حق ، قاله الصادق صلى الله عليه وسلم .

وهذا تقدير بعد تقدير .

فالأَول تقدير عند انتقال النطفة ، إلى أَول أَطوار التخليق ، التى هى أَول مراتب الإنسان . وأَما قبل ذلك ، فلم يتعلق بها التخليق .

والتقدير الثانى ، عند كمال خلقه ونفخ الروح .

فذلك تقدير عند أَول خلقه وتصويره .

وهذا تقدير عند تمام خلقه وتصويره .

وهذا أَحسن من جواب من قال : إن المراد بهذه الأَربعين ، التى فى حديث حذيفة ، الأَربعون الثالثة .

وهذا بعيد جداً ، من لفظ الحديث ، ولفظه يأباه كل الإباء . فتأمله .

فإن قيل : فما تصنعون بحديثه الآخر ، الذى فى صحيح مسلم ، عن عامر بن واثلة ، أنه سمع عبد الله ابن مسعود رضى الله عنه يقول : « الشقى من شقى فى بطن أمه ، والسعيد من وعظ بغيره » .

فأتى رجلا من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، يقال له حذيفة بن أسيد الغفارى ، فحدثه بذلك من قول ابن مسعود ، وقال له : وكيف يشقى رجل بغير عمل ؟

فقال له الرجل : أتعجب من ذلك ؟ فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« إذا مرَّ بالنطفة ، ثنتان وأربعون ليلة ، بعث الله إليها ملكا فصورها ، وخلق سمعها وبصرها وجلدها ، ولحمها وعظامها .

ثم قال : يارب ، أذكر ، أم أنثى ؟

فيقضى ربك ما يشاء ، ويكتب الملك بالصحيفة فى يده ، فلا يزيد على أمره ولا ينقص » .

وفى لفظ آخر فى الصحيح أَيضاً : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بأُذُنَىَّ هاتين يقول :

« إن النطفة تقع فى الرحم أَربعين ليلة ، ثم يتسور عليها الملك ، الذى يخلقها .

فيقول : يارب ، أَذكر أَم أُنثى ؟ أَسوىٌّ أَم غير سَوىّ ؟

فيجعله الله سويا أَو غير سَوىّ .

ثم يقول : يارب ، ما رزقه ؟ وما أَجله ؟ وما خلقه ؟

ثم يجعله الله عز وجل شقيا أَو سعيداً » .

وفى لفظ آخر فى الصحيح أَيضاً « أَن ملكا موكلا بالرحم إذا أَراد الله أَن يخلق شيئا بإذن الله لبضع وأَربعين ليلة » ثم ذكر نحوه .

قيل : نتلقاه أَيضاً بالتصديق ، والقبول ، وترك التحريف . وهذا يوافق ما أَجمع عليه الأَطباء ، أَن مبدأَ التخليق والتصوير ، بعد الأَربعين .

فإن قيل : فكيف التوفيق بين هذا وبين حديث

ابن مسعود ، وهو صريح فى « أن النطفة أَربعين يوما نطفة ، ثم أَربعين علقة ، ثم أَربعين مضغة » .

ومعلوم أَن العلقة والمضغة ، لاصورة فيهما ، ولاجلد ولا لحم ولا عظم .

وليس بنا حاجة إلى التوفيق ، بين حديثه هذا ، وبين قول الأَطباءِ .

فإن قول النبي صلى الله عليه وسلم ، معصوم ، وقولهم ، عرضة للخطإِ ، ولكن الحاجة إلى التوفيق ، بين حديثه ، وحديث حذيفة المتقدم ؟

قيل : لاتَنَافِىَ بين الحديثين بحمد الله ، وكلاهما خارج من مشكاة صادقة معصومة .

وقد ظن طائفة أَن التصوير فى حديث حذيفة إنما هو بعد الأَربعين الثالثة.

قالوا : وأَكثر مافيه ، التعقيب بالفاءِ ، وتعقيب كل شيءٍ بحسبه .

وقد قال تعالى :

(٢٢ الحج : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءًا فَتُصْبحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً ٦٣) .

بل قد قال تعالى(٢٣ المؤمنون : ثم خَلَقْنَا النُّطْفَةَ

عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا١٤) وهذا تعقيب بحسب مايصلح له المحل ، ولا يلزم أن يكون الثانى ، عقيب الأول ، تعقيب اتصال

وظنت طائفة أخرى ، أن التصوير والتخليق فى حديث حذيفة ، فى التقدير والعلم ، والذى فى حديث ابن مسعود ، فى الوجود الخارجى .

والصواب يدل على أن الحد ، ما دل عليه الحديث ، من أن ذلك فى الأربعين الثانية ، ولكن هنا تصويران .

أحدهما تصوير خفى ، لايظهر ، وهو تصويرتقديرى كما تصور حين تفصل الثوب ، أو تنجر الباب ، مواضع القطع والتفصيل .

فيعلم عليها ، ويضع مواضع الفصل والوصل .

وكذلك كل من يضع صورة فى مادة ، لاسيما مثل هذه الصورة ، ينشىء فيها التصوير والتخليق على التدريج ، شيئاً بعد شىء ، لاوهلة واحدة ، كما يشاهد بالعيان ، فى التخليق الظاهر فى البيضة .

فهنا أربع مراتب : أحدها : تصوير تخليق علمى ، لم يخرج إلى الخارج .

الثانية : مبدأ تصوير خفى ، يعجز الحس عن إدراكه .

الثالثة : تصوير يناله الحس ، ولكنه لم يتم بعد .

الرابعة : تمام التصوير ، الذى ليس بعده إلا نفخ الروح .

فالمرتبة الأُولى : علمية ، والثلاث الأُخر ، خارجية عينية .

وهذا التصوير بعد التصوير ، نظير التقدير بعد التقـدير .

فالرب تعالى ، قدر مقادير الخلائق تقديرا عاما ، قبل أن يخلق السموات والأَرض بخمسين أَلف سنة ، وهنا كتب السعادة ، والشقاوة ، والأَعمال ، والأَرزاق ، والآجـال .

(الثانى) تقدير بعد هذا ، وهو أَخص منه ، وهو التقدير الواقع عند القبضتين ، حين قبض تبارك وتعالى أَهل السعادة بيمينه ، وقال :

« هؤلاءِ للجنة ، وبعمل أَهل الجنة يعملون »

وقبض أَهل الشقاوة باليد الأُخرى وقال :

« هؤلاءِ للنار وبعمل أَهل النار يعملون » .

(الثالث) تقدير بعد هذا ، وهو أخص منه ، عندما يمنى به ، كما فى حديث حذيفة بن أسيد المذكور .

(الرابع) تقدير آخر ، بعد هذا ، وهو عندما يتم خلقه وينفخ فيه الروح ، كما صرح به الحديث الذى قبله.

وهذا يدل على سعة علم الرب تبارك وتعالى ، وإحاطته بالكليات والجزئيات ، وكذلك التصوير الثانى ، مطابق للتصوير العلمى .

والثالث مطابق للثانى ، والرابع مطابق للثالث .

وهذا مما يدل على كمال قدرة الرب تعالى ، ومطابقة المقدور للمعلوم .

فتبارك الله رب العالمين ، وأحسن الخالقين.

ونظير هذا التقدير ، الكتابة العامة قبل المخلوقات ، ثم كتابة مايكون من العام إلى العام ، فى ليلة القدر .

وكل مرتبة من هذه المراتب ، تفصيل لما قبلها وتنـوع .

وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يصدق بعضه بعضاً ، ويفسر بعضه بعضاً . ويطابق الواقع فى الوجود ولا يخالفه .

وإنما يخبر بما لايستقل الحس والعقل بإدراكه ، لا بما يخالف الحس والعقل .

وإنما يعرفه الناس ويستقلون بإدراكه ، على أمر عينى يتعلق به الإيمان ، أو على حكم شرعى يتعلق به التكليف ، والله أعلم .

(١٠٥) فصل

فإن قيل : أى عضو يتخلق أولا قبل سائر الأعضاء ؟

قيل : اختلف فى ذلك على أربعة أقوال :

(أحدها) ، أنه القلب ، وهو قول الأكثرين

(الثانى) : أنه الدماغ والعينان ، وهو قول بقراط .

(الثالث) : الكبد ، وهو قول محمد بن زكريا .

(الرابع) : أنه السرة ، وهو قول جماعة من الأطباء

قال أصحاب القلب : لاشك أن فى المنى قوة روحية ، بسبب تلك القوة سَعِدَ أن يكون إنساناً ، وحاجته إلى الروح ، الذى هو مادة القوى أشد .

فلابد أن يكون لذلك الروح مجمع خاص ، منه تنبعث إلى سائر الأعضاء .

فالجوهر الروحى ، أول شيء ينبعث من المنى ،

ويجتمع فى موضع واحد ، ويحيط به ، مايتصل إليه ذلك الجوهر الروحى ، من جميع الجوانب .

فيجب أن يكون مجمعها ، هو الوسط . وسائر الأجزاء يحيط به ، وذلك الوسط ، هو القلب .

قالوا : ولأن تمام البدن موقوف على الحرارة الغريزية ، التى بها البدن .

ولا بد أن يتقدم على ذلك العضو الذى منه القوة الغريزية ، التى بها ينمو ، وهو القلب .

قالوا : : ولأن أفعال القوى ، إنما تتم بالروح ، وهى لابد لها من متعلق تتعلق به ، ولابد أن يتقدم متعلقها عليها ، وهو القلب .

قالوا : وهذا هو الأليق والأنسب بحكمة الرب تعالى .

فإن القلب ملك ، والأعضاء جنود له وخدم ، فإذا صلح القلب ، صلحت جنوده ، وإذا فسد ، فسدت .

وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح ، إلى ما يرشد إلى ذلك فقال :

« إن فى الجسد مضغة ، إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ، ألا وهى القلب » .

فما أولى هذه المضغة ، بأن تكون متقدمة فى وجودها على سائر الأعضاء ، وسائرها ، تبع لها فى الوجود ، كما هى تبع لها فى الصلاح والفساد .

قالوا : وقد شاهد أصحاب التشريح فى المنى عند انعقاده ، نطفة فى وسطه .

قال أصحاب الدماغ : شاهدنا الفراخ فى البيض ، أول ما يتكون منها رأسها ، وسنة الله فى بروز الجنين ، أول مايبدو منه إلى الوجود ، رأسه .

قال أصحاب الكبد : لما كان المنى محتاجا إلى قوة مغذية تزيد فى جوهره ، حتى يصير بحيث يمكن أن تكون الأعضاءُ فيه ، كان أول الأعضاءِ وأسبقها ، إليه ، وهو محل القوة المغذية وهو الكبد .

قال أصحاب السرة : حاجة الجنين إلى جذب الغذاءِ ، أشد من حاجته إلى الأقوات وإدراكه ، ومن السرة ، يجذب الغذاءُ .

وأولى هذه الأقول ، القول الأول – فإن القلب ومنزلته ، وشرفه ، ومحله الذى وضعه الله به ، يقتضى أنه المبدوءُ به قبل سائر الأعضاءِ المتقدم عليها بالوجود . والله أعلم .

(١٠٦) فصل

فإن قيل : الجنين قبل نفخ الروح فيه ، هل كان فيه حركة وإحساس أم لا ؟

قيل كان فيه حركة النمو والاغتذاء كالنبات .

ولم تكن حركة نموه واغتذائه بالإرادة .

فلما نفخت فيه الروح ، انضمت حركة حسيته وإرادته ، إلى حركة نموه واغتذائه .

فإن قيل : قد ثبت أن الولد يتخلق من ماء الأَبوين ، فهل يتمازجان ويختلطان ، حتى يصيرا ماءًا واحداً ؟ أَو يكون أَحدهما هو المادة ، والآخر بمنزلة الأَنفحة ، التى تعقده ؟

قيل : هو موضع ، اختلف فيه أَرباب الطبيعة .

فقالت طائفة منهم : مَنِىُّ الأَب ، لا يكون جزءًا من الجنين ، وإنما هو مادة الروح السارى فى الأَعضاء ، وأَجزاءُ البدن كلها ، من مَنِىّ الأُم .

ومنهم من قال : بل هو ينعقد من منى الأُنثى ، ثم يتحلل ويفسد .

قالوا : ولهذا كان الولد جزءًا من أُمه . ولهذا جاءت الشريعة بتبعيته لها فى الحرية والرق .

قالوا : ولهذا ، لو نزا فحل رجل على جارية آخر ، فأولدها ، فالولد لمالك الأُم ، دون مالك الفحل ، لأَنه تَكَوَّن من أَجزائها وأَحشائها ، ولحمها ودمها ،

وماءُ الأَب ، بمنزلة الماءِ الذى يسقى الأَرض .

قالوا : والحس يشهد أَن الأَجزاءَ التى فى المولود من أُمه ، أَضعاف أَضعاف الأَجزاءِ التى فيه من أَبيه .

فثبت أَن تكوينه من منى الأُم ، ودم الطمث ، ومنى الأَب عاقد له كالأَنفحة .

ونازعهم الجمهور وقالوا : إنه يتكون من منى الرجل والأُنثى .

ثم لهم قولان :

أَحدهما : أَن يكون من منى الذكر ، أَعضاؤه وأَجزاؤه ومن منى الأُنثى ، صورته .

والثانى : أَن الأَعضاءَ والأَجزاءَ والصورة ، تكونت من مجموع الماءَين ، وأَنهما امتزجا واختلطا ، وصارا ماءً واحدا .

وهذا هو الصواب ، لأَننا نجد الصورة والتشكيل ، تارة إلى الأَب ، وتارة إلى الأُم . والله أَعلم .

وقد دل على هذا قوله تعالى (٤٩ الحجرات : يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ١٣) .

والأَصل هو الذكر ، فمنه البذر ، ومنه السقى .

والأُنثى وعاءٌ ، ومستودع لولده ، تربيه فى بطنها ، كما تربيه فى حجرها .

ولهذا كان الولد للأَب ، حكما ونسبا .

وأَما تبعيته للأُم ، فى الحرية والرق ، فلأَنه إنما تكوَّن وصار ولدا ، فى بطنها ، وغذته بلبنها ، مع الجزء الذى فيه منها .

وكان الأَب أَحق بنسبه وتعصيبه ، لأَنه أَصله ومادته ونسخته .

وكان أَشرفهما دينا ، أَولى به ، تغليبا لدين الله وشرعه

فإن قيل : فهلا طردتم هذا ، وقلتم : لو سقط بذر رجل فى أَرض آخر ، يكون الزرع لصاحب الأَرض دون مالك البذر ؟

قيل : الفرق بينهما أَن البذر ، مال متقوم فى أَرض آخر ، فهو لمالكه ، وعليه أَجرة الأَرض ، أَو هو بينهمـــا .

بخلاف المنى ، فإنه ليس بمال ، ولهذا نهى الشارع فيه عن المعاوضة .

واتفق الفقهاءُ على أن الفحل ، لو نزا على رمكة (١) كان الولد لصاحب الرمكة .

(١٠٧) فصل

فإن قيل : فهل يتكون الجنين من ماءَين وواطئين ؟

قيل : هذه مسألة شرعية كونية ، والشرع فيها تابع للتكوين .

وقد اختلف فيها شرعا وقدرا .

فمنعت ذلك ، طائفة ، وأبته كل الإباءِ ، وقالت : الماءُ إذا استقر فى الرحم ، اشتمل عليه وانضم غاية الانضمام ، بحيث لايبقى فيه مقدار رسم رأس إبرة إلا انسد ، فلا يمكن انفتاحه بعد ذلك، لِمَاءٍ ثان ، لامن الواطىءِ ، ولا من غيره .

قالوا : وبهذا أجرى الله العادة : أن الولد لا يكون ، إلا لأب واحد ، كما لا تكون الأم ، إلا واحدة . وهذا هو مذهب الشافعى .

---

(١) الرمكة . بفتحتين – الأنثى من البراذين . وجمعها : إرماك ، ورمكات وأرماك . مثل : ثمار ، وأثمار .

وقالت طائفة : بل يتخلق من ماءين فأكثر .

قالوا : وانضمام الرحم واشتماله على الماء لايمنع قبوله الماء الثانى ، فإن الرحم ، أشوق شىء وأقبله ، للمنى .

قالوا : ومثال ذلك ، كمثال المعدة ، فإن الطعام إذا استقر فيها ، انضمت عليه غاية الانضمام ، فإذا ورد عليها طعام فوقه ، انفتحت له ، لشوقها إليه .

قالوا : وقد شهد بهذا ، القائف بين يدى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فى ولد ادعاه اثنان ، فنظر إليهما وإليه ، وقال : ما أراهما ، إلا اشتركا فيه . فوافقه عمر وألحقه بهما . ووافقه على ذلك الإمام أحمد ، ومالك ، رضى الله عنهما .

قالوا : والحس يشهد بذلك ، كما ترى فى جراء الكلبة والسنور ، تأتى بها مختلفة الألوان ، لتعدد آبائها .

وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فلايسقى ماءه زرع غيره (١) »

يريد : وطء الحامل من غير الواطىء .

---

(١) روى أحمد وأبو داود والترمذى عن رويفع بن ثابت أن النبى صلى الله عليه وسلم . قال : يوم حنين « لا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر - إلخ » .

قال الإمام أَحمد : الوطءُ يزيد فى سمع الولد وبصره ، هذا بعد انعقاده .

وعلى هذا ، مسأَلة فقهية ، وهى : لو أَحبل جارية غيره بنكاح أَو زنى ، ثم ملكها ، هل تصير أَم ولد ؟ فيها أَربعة أَقوال ، وهى روايات عن الإمام أَحمد :

أَحدها : لا تصير أُم ولد ؛ لأَنها لم تعلق بالولد فى ملكه .

والثانى : تصير أَم ولد ، لأَنها وضعت فى ملكه .

والثالث : إن وضعت فى ملكه ، صارت أُم ولد ، وإن وضعت قبل أَن يملكها لم تصر ، لأَن الوضع والإحبال ، كان فى غير ملكه .

والرابع : إن وطئها بعد أَن ملكها ، صارت أُم ولد ، وإلا فلا .

لأَن الوطء ، يزيد فى خلقة الولد ، كما قال الإمام أَحمد : الوطءُ يزيد فى سمع الولد وبصره . وهذا أَرجح الأَقوال .

وقد ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم أَنه مَرَّ على امرأَة مُجِحٍّ على باب فسطاط فقال « لعل سيدها يريد

أَن يُلِمَّ بها ، لقد هممت أَن أَلعنه لعنة ، تدخل معه فى قبره . كيف يورثه وهو لايحل له ؟ » (١) .

والمجح الحامل المقرب .

وقوله ، كيف يورثه ؛ أَى يجعله له ، تركة موروثة عنه ، كأَنه عبده ، ولا يحل له ذلك ، لأَنه قد صار فيه جزءٌ من أَجزائه بوطئه ، وكيف يجعله عبده ولا يحل له ذلك ؟

فهذا دليل على أَن وطءَ الحامل إذا وطئت كثيراً ، جاءَ الولد عبلا ممتلئا .

وإذا هجر وطؤها ، جاءَ الولد هزيلا ضعيفا .

فهذه أَسرار شرعية موافقة للأَسرار الطبيعية ، مبنية عليها . والله أَعلم .

فإن قيل : فهل يمكن أَن يخلق من الماءِ ولدان فى بطن واحد ؟

قيل : هذه مسأَلة التوأَم ، وهو ممكن ، بل وقع ، وله أَسباب :

أَحدها كثرة المنى ، فيفيض إلى بطن الرحم دفعات ،

---

(٢) رواه أحمد ومسلم وأبو داود عن أبي الدرداء أن النبى صلى الله عليه وسلم ، مر فى غزوة على امرأة إلخ .

والرحم يعرض له عند الحركة الجارية المنى حركات اختلاجية مختلفة .

فربما اتفق أن كان الجاذب للدفعة الأُولى من المنى ، أحد جانبيه . وللثانية الجانب الآخر . ومنها أن بيت الأولاد فى الرحم ، فيه تجاويف ، فيكون المنى كثيراً ، فيغفل أحدها عن فضلة يشتمل عليها التجويف الثانى ، وهكذا الثالث .

قال أرسطو : وقد يعيش للمرأة خمسة أولاد فى بطن واحد .

وحكى عن امرأة ، أنها وضعت فى أربع بطون عشرين ولدا .

قال صاحب القانون : سمعت بجرجان أن امرأة أسقطت كيسا ، فيه سبعون صورة صغيرة جداً .

قال أرسطو : وإذا توأمت بذكر وأُنثى فقلما تسلم الوالدة والمولود ، وإذا توأمت بذكرين أو انثيين ، فتسلم كثيراً . قال : والمرأة قد تحبل على الحبل ، ولكن يهلك الأول فى الأكثر ، فقد أسقطت امرأة واحدة ، اثنى عشر جنينا ، حملا على حمل

وأما إذا كان الحمل واحدا ، أو بعد وضع الأول فقد يعيشان . والله أعلم .

فإن قيل : فما السبب المانع للحامل من الحيض غالبا ؟

قال الإمام أحمد وأبو حنيفة : إن ما تراه من الدم ، يكون دم فساد لاحيض .

والشافعى وإن قال : إنه دم حيض - وهو إحدى الروايتين عن عائشة - فلاريب أنه نادر بالإضافة إلى الأغلب ؟

قيل : دم الطمث ينقسم ثلاثة أقسام : قسم ينصرف إلى غذاء الجنين ، وقسم يصعد إلى البدن . وقسم يحبس إلى وقت الوضع ، فيخرج مع الولد . وهو دم النفاس ، وربما كانت مادة الدم قوية - وهو كثير - فيخرج بعضه لقوته وكثرته .

والراجح من الدليل ، أنه حيض ، حكمه حكمه ، إذ ليس هناك دليل عقلى ولا شرعى ، يمنع من كونه حيضا .

واستيفاء الأدلة من الجانبين ، قد ذكرناه فى مواضع أخر . والله أعلم .

فإن قيل : فما السبب ، فى أن النساءَ الحبالى ، يشتقن فى الشهر الثانى والثالث ، إلى تناول الأَشياءِ الغريبة التى لايعتد بها طِبًّا ؟

قيل : إن دم الطمث ، لما احتبس فيهن ، بحكمة قدرها الله ، وهى أن صرفه غذاءً للولد ، ومقدار ما يحتاج إليه يسير ، فتدفعه الطبيعة الصحيحة إلى فم المعدة ، فيحدث لهن شهوة تلك الأَشياءِ الغريبة .

فإن قيل : فكيف وضع الجنين فى بطن أُمه : قائما ، أَو قاعداً ، أَومضطجعا ؟

قيل : هو معتمد بوجهه على رجليه ، وبراحتيه على ركبتيه ، ورجلاه مضمومتان إلى قدميه . ووجهه إلى ظهر أُمه .

وهذا من العناية الإِلهية ، أَن أَجلسه هذه الجلسة فى المكان الضيق فى الرحم ، على هذا الشكل .

وأَيضاً ، فلو كان رأْسه إلى أَسفل ، لوقع ثقل الأَعضاءِ الخسيسة على الأَعضاءِ الشريفة ، وأَدى ذلك إلى تلفه ، ولأَنه عند محاولة الخروج إذا انقلب ، أَعانته على الخروج .

فإنه إذا خرج ، أول ما يخرج منه رأسه ، لأن الرأس إذا خرج أولا ، كان خروج سائر الأعضاء بعده سهلا ، ولو خرج على غير هذا الوجه ، لكان فيه تعويق وعسر .

فإن الرجلين لو خرجتا أولا ، انعاق خروج الباقى .

وإن خرجت الرجل الواحدة أولا ، انعاق عند الثانية ، وإن خرجتا معا ، انعاق عند اليدين .

وإن خرجت الرجلان واليدان ، انعاق عند الرأس ، فكان يلتوى إلى خلف ، وتلتوى السرة إلى العنق ، فيألم الرحم ، ويصعب الخروج . ويؤدى إلى مرضه أو تلفه .

فإن قيل : فما سبب الإجهاض الذى يسمونه الطرح ، قبل كمال الولد ؟

قيل : الجنين فى البطن ، بمنزلة الثمرة فى الشجرة ، وكل منهما ، له اتصاله قوى بالأم ، ولهذا يصعب قطع الثمرة قبل كمالها من الشجرة ، وتحتاج إلى قوة .

فإذا بلغت الثمرة نهايتها ، سهل قطعها ، وربما سقطت بنفسها ، وذلك لأن تلك الرباطات والعروق التى تمدها من الشجرة ، كانت فى غاية القوة والغذاء .

فلما رجع ذلك الغذاءُ إلى تلك الشجرة ، ضعفت تلك الرطوبات والمجارى ، وساعدها ، ثقل الثمرة ، فسهل أَخذها .

وكذلك الأَمر فى الجنين ، فإنه مادام فى البطن قبل كماله واستحكامه ، فإن رطوباته ، وأَغشيته ، تكون مانعة له من السقوط .

فإذا تم وكمل ، ضعفت تلك الرطوبات ، وانتهكت الأَغشية ، واجتمعت تلك الرطوبات المزلقة ، فسقط الجنين .هذا هو الأَمر الطبيعى ، الجارى على استقامة الطبيعة وسلامتها .

وأما السقوط قبل ذلك ، فلفساد فى الجنين ، ولفساد فى طبيعة الأُم ، أَو ضعف الطبيعة .

كما تسقط الثمرة ، قبل إدراكها لفساد يعرض ، أَو لضعف الأَصل ، أَو لفساد يعرض من خارج .

فإسقاط الجنين ، لسبب من هذه الأَسباب الثلاثة .

فالآفات التى تصيب الأَجنة ، بمنزلة الآفات التى التى تصيب الثمار .

فإن قيل : فكيف يخرج من الرحم – مع ضيقه – ماهو أَكبر منه بأَضعاف مضاعفة ؟

قيل : هذا من أعظم الأَدلة على عناية الرب تعالى وقدرته ومشيئته .

فإن الرحم لابد أَن ينفتح الانفتاح العظيم جدا .

قال غير واحد من العقلاءِ : ولا بد من انفصال يعرض للمفاصل العظمية ، ثم تلتئم بسرعة أَسرع من لمح البصر .

وقد اعترف فضلاءُ الأَطباءِ وحذاقهم بذلك ، وقالوا : لايكون ذلك إلا بعناية إلهية ، وتدبير تعجزالعقول عن إدراكه . وتقر للخلاق العظيم ، بكمال الربوبية والقدرة .

فإن قيل : فما السبب فى بكاءِ الصبى حالة خروجه إلى هذه الدار ؟

قيل : ههنا سببان ، سبب باطن ، أَخبر به الصادق المصدوق لا يعرفه الأَطباءُ .

وسبب ظاهر .

فأَما السبب الباطن ، فإن الله سبحانه ، اقتضت حكمته ، أَن وَكَّلَ بكل واحد من ولد آدم شيطانا .

فشيطان المولود ، قد خنس ينتظر خروجه ليقارنه ويتوكل به .

فإذا انفصل ، استقبله الشيطان ، وطعنه فى خاصرته ، تحرقا عليه وتغيظا ، واستقبالا له بالعداوة ، التى كانت بين الأبوين قديما .

فيبكى المولود من تلك الطعنة .

ولو آمن زنادقة الأطباء والطبائعيين ، بالله ورسوله ، لم يجدوا عندهم ، ما يبطل ذلك ولايرده .

وقد ثبت فى صحيح مسلم ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« صياح المولود حين يقع ، نزغة من الشيطان » .

وفى الصحيحين من حديثه أيضاً رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان ، فيستهل صارخا من نخسه ، إلا ابن مريم وأمه » .

وفى لفظ آخر « يمسه حين يولد ، فيستهل صارخا من مس الشيطان إياه »

وفى لفظ آخر « كل بنى آدم يمسه الشيطان يوم ولادته ، إلا مريم وابنها » .

وفى لفظ للبخارى « كل بنى آدم يطعن الشيطان فى

جنبه بأصبعه حين يولد ، غير عيسى ابن مريم ، ذهب يطعن ، فطعن فى الحجاب » .

والسبب الظاهر ، الذى لاتخبر الرسل بأمثاله لرخصه عند الناس ، ومعرفتهم له من غيرهم ، هومفارقته للمألوف والعادة ، التى كان فيها ، إلى أمر غريب .

فإنه ينتقل من جسم حار ، إلى هواءٍ بارد ، ومكان لم يألفه ، فيستوحش من مفارقته وطنه . ومألفه .

وعند أرباب الإشارات ، أن بكاءه ، إرهاص بين يَدَىْ مايلاقيه من الشدائد والآلام والمخاوف . وأنشد فى ذلك :

ويَبْكى بهَا الْمولُودُ حتَّى كَأَنَّهُ
بكُلِّ الَّذى يلْقَاهُ فيهَا يُهَدَّدُ

وإلَّا ، فما يُبْكيه فيهـا ، وإنَّها
لَأَوْسعُ ممَّا كان فيه وَأَرْغَدُ ؟

ولهم نظير هذه الإشارة ، فى قبض كفِّه عند خروجه إلى الدنيا ، وفى فتحها ، عند خروجه منها ، وهو الإشارة ، إلى أنه خرج إليها ، مركَّبًا على الحرص والطمع ، وفارقها ، صفْرَ اليدين منها . وأنشد فى ذلك :

وَفِى قَبْضِ كَفِّ الْمَرْءِ عِنْـدَ وِلَادِهِ
دَلِيلٌ عَلَى الْحِرْصِ الَّذِى هُوَ مَالِكُهْ
وَفِى فَتْحِهَا عِنْدَ الْمَمَاتِ إِشَـارَةٌ
إِلَى فُرْقَةِ الْمَـالِ الَّذِى هُوَ تَارِكُهْ

ولهم نظير هذه الإشارة فى بكاء الطفل ، وضحك من حوله : أن الأمر سيبدل ، ويصير إلى ما يبكى من حوله عند موته ، كما ضحكوا عند ولادته وأنشد فى ذلك :

وَلَدَتْكَ إِذْ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ بَاكِيًـا
وَالنَّاسُ حَوْلَكَ يَضْحَكُونَ سُرُورَا
فَاعْمَلْ لَعَلَّكَ أَنْ تَكُونَ إِذَا بَكَوْا
فِى يَوْمِ مَوْتِكَ ضَاحِكًا مَسْرُورَا

ونظير هذه الإشارة أيضاً قولهم :

إن المولود حين ينفصل ، يمد يده إلى فيه ، إشارة إلى تعجيل نزوله عند القدوم عليه ، بأنه ضيف ، من تمام إكرامه ، تعجيل قراه .

ويروى هذا البيتان على النحو التالى :
وَفى قبْض كَفِّ الطِّفْلِ عنْـدَ ولَادِه
دَليلٌ عَلَى الْحِرْصِ الْمُرَكَّب فِى الْحَىِّ
وَفِى بَسْطِهَا عِنْدَ الْمماتِ إِشَارَةٌ
أَلَا فَانْظُرُوا إِنِّى خَرَجْتُ بِلَا شَىٍّ

فأشار بلسان الحال ، إلى ترك التأخير ، وربما مَصَّ أصبعه ، إشارة إلى نهاية فقره ، وأنه بلغ منه إلى مص الأصابع .

ومنه قول الناس ، لمن بلغ به الفقر غايته : فهو يمص أصابعه ، وأنشد فى ذلك :

وَيَهْوى إلَى فِيهِ يَمُصُّ بَنَانَهُ
يُطَالِبُ بالتَّعْجيلِ خَوْفَ التَّشَاغُلِ
وَيُعْلِمُهُمْ أَنِّى فَقِيرٌ وَلَيْسَ لِى
مِنَ الْقُوتِ شَيْءٌ غَيْرُ مَصِّ الْأَنَامِلِ

ونظير هذه الإشارة ، أنه يحدث بالعجب ، ممن يظهر من الحدث :

ويُحْدِثُ بينَ الْحَاضِرينَ إِشَارةً
إلَى أَنَّهُ مِنْ حادِثٍ لَيْس يُعْصِمُ
يقُولُ : وعِنْدِى بَعْدهَا أَخَواتِهَا
وَمَا مِنْكُمْ إِلَّا وذُو الْعَرْشِ أَرْحَمُ

ونظير هذه الإشارة ، أنه يضحك بعد الأربعين ، وذلك عندما يتعقل نفسه الناطقة ويدركها .

وفى ذلك قصاص من البكاء ، الذى أصابه عند ولادته ، وتأخر بعده ، لكى يتأسَّى العبد إذا أصابته شدة . فالفرج كأُم يطلبها فى أثرها :

وَيَضْحَكُ بَعْدَ الْأَرْبَعِينَ إِشَارَةً
إِلَى فَرَجٍ وَافَاهُ بعْد الشَّدائِدِ
يقُولُ : هِيَ الدُّنْيا ، فَتُبْكِيكَ مَرَّةً
وَتُضْحِكُ أُخْرَى ، فَاصْطَبرْ لِلْعَوَائِدِ

قالوا : ويرى الأمانى بعد ستين يوما من ولادته ولكنه ينساها ، لضعف القوة الحافظة ، وكثرة الرطوبات

وفى ذلك لطف به أيضاً ، لضعف قلبه عن التفكر فيما يراه :

وَيَرَى بعَيْنِ الْقَلْب - إِذْ يَأْتِي لَهُ
سِتُّونَ يَوْمًا - رُؤْيَةَ الْأَحْلَامِ
لَكِنَّهُ يَنْسَاهُ بَعْدُ لِضِعْفِهِ
عَنْ ضَبْطِهِ فِى يَقْظَةٍ وَمَنَامِ

(١٠٨) فصل

ولما تكامل للنطفة أَربعون يوما ، فاستحكم نضجها ، وعقدتها حرارة الرحم ، استعدت لحالة هى أَكمل من الأُولى ، وهى الدم الجامد ، الذى يشبه العلقة ، ويقبل الصورة ، ويحفظها بانعقادها ، وتماسك أَجزائها .

فإذا تم لها أَربعون ، استعدت لحالة ، هى أَكمل من الحالتين قبلها ، وهى صيرورتها لحما ، أَصلب من العلقة ، وأَقوى ، وأَحفظ للمخ المودع فيها ، واللحم هو كسوتها ، والرباطات تمسك أَجزاءها وتشد بعضها بعضا .

والكبد الذى يأْخذ صفو الغذاءِ ، فيرسله إلى سائر الأَعضاءِ ، وإلى الشعر والظفر ، والأَمعاءِ ، التى هى مجارى وصول الطعام والشراب إلى المعدة ، والعروق ، التى هى مجارى منفذه ، وإيصاله إلى سائر أَجزاءِ البدن ، والمعدة ، التى هى خزانة الطعام والشراب ، وحافظته لمستحقيه .

والقلب الذى هو منبع الحرارة ، ومعدن الحياة ، والمستولى على مملكة البدن .

والرئة ، التى تُرَوِّحُ عن البدن وتفيده الهواءَ البارد الذى به حياته .

واللسان ، الذى هو بريد القلب ، وترجمانه ورسوله ،

والسمع ، الذى هو صاحب أَخباره .

والبصر ، الذى هو طليعته ، ورائده ، والكاشف له عما يريد كشفه .

والأَعضاءُ ، التى هى خدمه وخوله .

والرِّجْلاَنُ ، تسعى فى مصالحه ، واليد تبطش فى حوائجه .

والأَسنان تفصل قوته ، وتقطعه ، والعروق توصله إلى أَربابه ، والذكر آلة نسله ، وأَنثياه ، خزانة مادة النسل .

والكبد ، للغذاءِ وقسمته ، وهى فى الحيوان ، بمنزلة شرش الشجر والنبات ، تجذب الغذاءَ ، وترسله إلى جميع الأَجزاءِ ، وآلات الغذاءِ ، خدم له .

والقلب للأَرواح ، الذى به حياة الحيوان ، وآلات النفس خدم له .

والدماغ ، معدن الحس والتصور ، والحواس خدم له

والأُنثيان ، معدن التناسل ، والذكر ، خدم لهما .

وهذه الأَعضاء ، هى رأْس أَعضاءِ البدن .

(١٠٩) فصل

وأما آلات الغذاءِ فثلاثة أَقسام :

آلة تقبل الغذاءَ ، وتصلحه ، وتفرقه ، وترسله إلى جميع البدن .

وآلة تقبل فضلاته .

وآلة تعين فى إخراج ثُفْلِه ، وما لا منفعة فى بقائه .

فالآلات القابلة ، هى الفم ، والمرىء ، والبطن ، والكبد ، والعروق الموصلة إلى الكبد ، والعروق الموصلة منها إلى البدن .

(١١٠) فصل

وأما الآلات القابلة للفضلات ، فالمرارة ، تقبل مالطف منها ، والطحال ، يقبل كثيفها ، والكلى ، والمثانة ، يقبلان المتوسط .

والكبد ، موضوعة فى الجانب الأَيمن ، وتأْخذ يسيراً للجانب الأَيسر .

وهذا لحكمة بديعة ، وهى : أن القلب فى الجانب الأَيسر ، أَقرب ، وهو معدن الحار الغريزى ، فتجنب عنه الكبد قليلا ، لئلا يتأَذى بحرارتها .

وجعل فى أَوعية الغذاء ، قوى خادمة له .

فالفم مع كونه يقطع الغذاء ويطحنه – يحيله ويغيره

والمرىءُ – مع كونه منفذا إلى المعدة – يغيره تغييرًا ثانياً .

والمعدة – مع كونها خزانة حافظة له – تنضجه وتطبخه وتغيره تغييرا ثالثاً ، وتهضمه ، وتنفى منه ما لا يصلح ، وتخرجه ، وتدفعه إلى مخرج الثُّفْل .

فإن الطعام إذا استقر فى المعدة ، اشتملت عليه ، وانضمت غاية الانضمام ، ثم أَنضجته بحرارتها ، ثم تتولاه الكبد ، وتشتمل عليه ، وتقلبه دما خالصا ، ثم تقسمه على جميع الأَعضاء ، قسمة عدل ، لا جور فيها ، ولا حيف .

ولما كانت المعدة حوض البدن ، الذى يرده أَجزاءُ البدن من كل ناحية ، اقتضت الحكمة الإلهية ، جعلها فى وسطه .

وخالص الغذاءِ ، يتأَدى إلى الكبد ، من شعب كثيرة ، ويجتمع فى موضع واحد واسع ، يسمى باب الكبد .

وجميع العروق ، التى تتصل بالمعدة والأَمعاء والطحال ، تجتمع وترتقى إلى باب الكبد » .

والمعدة ، تجذب الموافق ، ويبقى المخالف المنافى ، الذى عجزت قوتها عنه .

ثم أَن الكبد ، تصفيه وتنقيه بعد اجتذابه ، مرة أُخرى . وتنفى عنه غير الموافق .

وقد أَعد الصانع الحكيم سبحانه ، لتنقية الدم من الكبد ، ثلاثة خدام فارهين قائمين بالمرصاد ، بلا كسل ولا فتور .

وقد وضع كلا منها ، فى المكان اللائق به ونصبه نصبة ، بها يكون أَمكن من عمله .

ولما استقر الغذاءُ فى المعدة ، وطبخته ، وأَنضجته ، صارت فضلاته ثلاثة .

فضلة كالدردى الراسب (١) .

---

(١) الدردى : ما يرسب من فضلات الزيت .

وفضلة كالرغوة والزبد الطافى وفضلة مائية .

فجعل كل خادم من هذه الخدام الثلاثة ، على فضلة لايتعداها إلى الأخرى ، ليجذبها من مجرى خادم الفضلة الخفيفة الطافية ، وهى للصفرة المرارة ، نصبها الرب تعالى فوق الكبد ، لأن المجتذب هو الفضلة الطافية ، ومكانها فوق مكان الدردى الراسب .

وخادم الفضلة ، التى هى كالدردى الراسب ، الطحال .

ونصبه الخلاق العليم ، أسفل من باب الكبد ، حيث كان مايجتذبه من أسفل .

ولم يكن فى الجانب الأيمن ، لأن المعدة قد شغلت ذلك الجانب ، وكان الجانب الأيسر خاليا فلم تَعْدُهُ .

فإذا نقى الدم من هاتين الفضلتين ، خدمه الخادم الثالث وهو الكبد - وقد بقى أحمر ، نقى اللون مشرقا نورانيا .

ويصل إليها من عرق عظيم ، يسمى الأجوف .

ثم يوزع من هناك ، على جهات البدن العليا والسفلى فى رواضع كثيرة العدد ، مابين كبير وصغير، ومتوسط ، كلها تتصل بالعرق الأجوف وتمتار منه .

ومادام الدم فى هذا العرق ، ففيه مائية ، غير محتاج إليها . لأنها كانت بتركب الغذاء .

فلما وصل إلى مستقره استغنى عنها . فاحتاج ولابد ، إلى إخراجها ودفعها ، ولو لم يبادر إلى ذلك ، أَضَرَّت به .

فخلق الله سبحانه ، الكليتين يمتصان هذه الفضلة ، بعنقين طويلين ، كالأنبوبتين ، ويفرغانها فى المثانة ، بعرقين آخرين ، وضعهما سبحانه ، أسفل من الكبد قليلا ، حيث يكون أمكن لتخليص المائية ، كما تروق العصارات .

وأما المرارة ، فوضعها الله سبحانه ، فوق الكبد لأنها بمنزلة السفنجة ، أو القطنة التى يقطف بها الدهن ، عن وجه الرطوبات .

وأما الطحال ، فوضعه أميل إلى أسفل ، لأنه بمنزلة مايجتذب الأشياء المصونة إذا رسبت .

(١١١) فصل

إذا تنقى الدم من هذه الفضلات كلها ، وعملت فيه هذه الخدم بقواها ، التى أودعها الله فيها هذا العمل ، وأصلحته هذا الإصلاح ، عمل ملك الأعضاء والجوارح

– وهو القلب – فيه عملا آخر ، فقصده بحرارة أُخرى ، وهى أَقوى من حرارة الكبد .

(١١٢) فصل

وجعل سبحانه فى المعدة أَربع قوى :

قوة جاذبة للملائم ، وقوة منضجة له .

وقوة ممسكة له ، وقوة دافعة للفضلة المستغنى عنها منه .

ورئيس هذه القوى ، هى القوة المنضجة ، وسائرها خدم لها .

وخصت المعدة عن سائر الأَعضاءِ ، بأَن أَودع فيها قوة ، تحس بالعوز والنقصان .

وخاصتها . تنبيه الحيوان ، لتناول الغذاءِ عند الحاجة .

وأَما سائر الأَعضاءِ ، فإِنها تتغذى بالنبات ، باجتذاب الملائم إِليها .

ولما احتاجت المعدة إِلى قوة وحس بالعوز ، ولم يكن ذلك إِلا من معدن الحواس ، وهو الدماغ ، أَتاها

روح لعصب عظيم ، فأنبت أكثرها فى فمها ، ومايليه ، وباقيه مستقيما ، حتى بلغ قعرها .

فإن قيل : فما الحكمة فى أن باعد الله سبحانه ، بين المعدة والفم ، وجعل بينهما ، مجرى طويلا وهو المرىءُ ، وهلا اتصلت المعدة بالفم . واستغنت عن المرىء ؟

قيل : هذا من تمام حكمة الخالق ، وفيه منافع كثيرة .

منها : أن يحصل للغذاء ، تَغيُّرُ ما فى طريق المجرى ، فيلطف قبل وصوله إليها .

ومنها : بُعْدُه عن آلة التنفس ، لئلا تعوقه ، وتعوق الصوت والكلام ، وأن لاتنقلب المعدة إلى خارج ، عند شدة الجوع ، كما يعرض ذلك للحيوان الشَّرِهِ ، إذا كان قصير العنق .

فإن قيل : فلم كانت إلى الجانب الأيسر أميل منها إلى الجانب الأيمن ؟

قيل : ليتسع المكان على الكبد ، ولا ينحصر .

فإن قيل : فهلا كانت مستقيمة فى وضعها ، بل مال أسفلها إلى الجانب الأيمن ؟

قيل : ليتسع المكان على الطحال ، حيث كان أخفض موضعا من الكبد .

فإن قيل : فلم جعلت مستطيلة مدورة ، وجعلت مما يلي الصلب ، مسطحة ؟

قيل : لما وضعها الله بين الكبد والطحال ، جعلها مستطيلة .

وكانت مستديرة ، لتتسع للطعام وللشراب ، وكان أسفلها أوسع من أعلاها ، لذلك ، وجعل لها مدخلا وهو المرىءُ ، ومخرجاً ، يسمى البواب .

وجعل البواب ، أضيق من المرىء ، لأن ما تبتلعه ، يكون أصلب وأخشن مما تخرجه .

فجعل مدخل الداخل ، أوسع من مخرج الخارج لإنضاجه فى المعدة ، ولينه ، ولحِكَم أُخَر :

منها : أن لاينزل منه الطعام والشراب قبل نضجه ، ولتقوى المعدة على حبسه ، وليخرج أولا فأولا ، لادفعة واحـــدة .

والمرىءُ يتسع بالتدريج ، حتى يبلغ المعدة ، ولذلك ، يظن أنه جزءٌ منها .

وأما البواب ، فإن الجزءَ الضيق منه يتصل بأسفلها ، الذى هو أوسعها ، ثم يتسع على التدريج ، ليسهل خروج الفضلة .

(١١٣) فصل

والكبد منطبقة على المعدة ، محتوية عليها بزوائدها ، لتسخنها .

والطحال ، يسخنها من الباب الأَيسر ، والصلب ، يسخنها من خلف ، والترائب من قدامها .

والترائب ، مؤلفة من طبقتين رقيقتين ، تنطبق إحداهما على الأُخرى ، بشحم كثير ، وهو غشاءُ الأمعاءِ كلها ولباسها .

ثم غشى البطن كله ، بغشاءٍ واحد يقى الأَحشاءَ ، ويمنع من انفتاح المعدة والأَمعاءِ بالرياح ، ويربط جملة آلات الغذاءِ .

ولم يجعل فى الكبد ، تجويف ، كتجويف القلب ، لتحتوى على الدم ، احتواءً ممكنا ، وتحيله إحالة بليغة .

وللكبد ثلاث شباك من العروق . —

شبكة بينها وبين المعدة والأَمعاءِ ،

وشبكة فى مفرعها ، وشبكة فى مجذبها .

فالشبكة الأُولى ، تجذب الغذاء ، وتحيله بعد أن أَحاله .

وفى الشبكة الثانية ، يصير دما .

وفى الشبكة الثالثة ، يزداد صفاءً وترويقا .

وللكبد بالقلب والدماغ ، اتصال بشظة من العصب خفية ، كنسج العنكبوت .

ولما كانت النفس المعدية ، بمنزلة حيوان عاد وحشىٍّ وكل جسم يموت ، فلابد أَن تتصل به هذه النفس وتغذوه .

بخلاف النفس المفكرة ، التى محلها الدماغ .

وبخلاف النفس الغضبية ، التى محلها القلب .

فالنفس المفكرة ، تستعين بالنفس الغضبية ، على تلك النفس الحيوانية العادية الوحشية .

فاقتضت حكمة الخالق سبحانه ، أَن وصل بين محل هذه الأَنفس الثلاثة ، ليذعن بعضها لبعض .

ولا تنكر تسمية هذه القوى نفوسا . فليس الشأْن فى التسمية .

فأنت تجد فيك نفسا حيوانية ، تطلب الطعام والشراب .

ونفسا مفكرة ، سلطانها على التصور والعلم والشعور .

ونفسا غضبية ، سلطانها على الغضب والإرادة . وتضرب كل واحد منها ، فيما جعلت إليه ، وبعضها عون لبعض .

فمحل النفس الحيوانية ، الكبد . ومحل المفكرة ، الدماغ ، ومحل الغضبية ، القلب .

(١١٤) فصل

وتأمل الحكمة ، فى أن جعلت صفاقات عروق الكبد ، أرق من صفاقات سائر عروق البدن ، لينفذ إلى الكبد ، جوهر الدم بسرعة .

وهى – مع ذلك – غير محتاجة إلى الوقاية ، لأن الكبد تحوزها بلحمها .

وإنما وضعت مجارى المُرَّة الصفراء بعد العروق ، التى تصعد الغذاء من المعدة ، وقبل العروق ، التى تأخذ الدم منها ، لأن هذا الموضع ، هو بين موضع كمال الطبخ ، وبين موضع انتقاله إلى العرق الأجوف .

وحينئذ يمكن انفصال المرة عن الدم .

وجمعت العروق كلها إلى عرق واحد هو الباب ، ثم عادت ، فتقسمت فى مقعر الكبد ، ثم عادت ، فجمعت فى مجدها إلى عرق واحد ، وهو الأجوف ، لتجيد بقسميها - إنضاج ما تحتوى عليه ، ولئلا ينفذ بسرعة .

وكذلك كل موضع ، احتيج فيه إلى طول مكث المادة هُيِّئ بقاؤها فيه ، بطول مسلكها ، وكثرة تعاريجه كما فعل فى مجارى المنى ، وشبكة الدماغ . وهذا شأن العروق الجواذب .

وأما العروق الضوارب ، فبالعكس من ذلك .

فإنها جمعت فى مقعر الكبد ، دون مجده بها ، لأنه موضع الدم ، وحاجته إلى التغذية بالحرارة ماسة .

قال جالينوس : ولا تقع العروق الضوارب فى مجذب يعلم الخالق سبحانه ، أن جذبه الكبد ، لأنها تتحرك دائما ، بمجاورة الحجاب ، فيقوم لها ذلك ، مقام حركة العروق الضوارب .

وجعلت هذه العروق الضوارب رقاقا ، لأنها إنما وضعت لترويح الكبد ، لا لتغذيتها ، ولا لا تصال روح إليها

إذ ليس بالكبد حاجة ، إلى قبول روح حيوانى كثير.
ولا يحتاج لحمها ، إلا إلى غذاءٍ لطيف بخارى .

(١١٥) فصل

وأحرز الصانع سبحانه ، موضع الكبد ووضعها ، بأن ربطها بالمعدة والأمعاءِ كلها بالعروق ، وبالغشاءِ الممدود على البطن ، الذى يشد جميعها .

ووصل بها ، رباطات من جميع النواحى ، وغشاؤها الرابط ، يتصل بالحجاب ، برباط قوى .

ورباط الكبد بالحجاب صلب وثيق ، لأن الكبد معلقة به ، وهو أصلب من غشاءِ الكبد ، لشدة الحاجة إلى صلابته ، لأنه يحرز الكبد .

والعرق الأجوف ، متى ناله آفة ، مات الحيوان ، كما تهلك أغصان الشجرة ، إذا أصاب ساقها آفة .

وجعل أرق هذه الرباطات ، من خلف ، لشده بالعظام .

وأغلظه من قدام ، حيث لا عظام هناك تقيه . وهذا من شدة الأسر الذى قال الله تعالى فيها (٧٦ الإنسان : نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ ٢٨) .

شد أوصالهم ، بالرباطات المحكمة ، وجعل خلقهم ، بعضه موصولا ببعض .

ولما كان الحجاب ، آلة شريفة للنفس ، بُوعِدَ من العضوين المجاورين له - وهما المعدة والكبد - بمقدار حاجته ، لئلا يزحماه ويعوقاه عن فعله .

فَبُوعِدَتْ المعدة عنه ، بطول مجراها .

(١١٦) فصل

وأما الطحال ، فبعضهم يقول : إنه لانفع فيه ، وإنما شغل المكان به ، لئلا يبقى فارغا ، فيميل ، أحد شِقَّيِ البدن بثقل الكبد ، فجعل موازنا للكبد .

قلت : وهذا غلط من وجه ، وصواب من وجه :

أما الصواب ، فمن الحكم العجيبة ، جعل الطحال في الجانب الأيسر ، على موازنة الكبد ، لئلا يميل الشق الأيمن بها .

ولا يمكن أن تقوم المعدة ، بموازنة الكبد ، لأنها دائماً تمتلىءُ وتخلو .

فتارة تكون أخف من الكبد ، وتارة أرجح منها .

فيصير البدن مترجحا ، أو يميل إلى شق الكبد وقتا ، وإلى شق المعدة وقتا آخر .

فجعل الخالق سبحانه ، الطحال يوازن الكبد ، وجعل المعدة بينهما ، فى الوسط ، لئلا يثقل جانب ، ويخف جانب آخر ، عند امتلائها وخلوها .

فلما جعلت وسطا ، لم يختلف وضع البدن ، باختلافها .

وأما الغلط فقوله : إنه لامنفعة فيه ، وإنما يشغل المكان ، لئلا يبقى فارغا ، فإنه – وإن لم يعلم فيه منفعة . لم يكن له أن ينفيها . فإن عدم العلم بالمنفعة ، لايكون علما بعدمها ، ولاشىء فى البدن ، خال عن المنفعة ألبتة

وفى الطحال من المنافع ، أنه يجذب الفضلة الغليظة العكرة السوداء من الكبد ، نوعا ، من جنس العروق ، كالعنق له .

فإذا حصلت تلك الفضلة عنده ، أنضجها وأحالها .

وهو ينضج غليظ الدم وعكره ، كما ينضج قولون ، غليظ الغذاء ويابسه .

ويستعمل فى فعله ، العروق الضوارب الكثيرة المبثوثة فيه كلها .

فما نضج واستحال إلى طبيعته ، صار غذاءً له :

وما لم يمكن أن ينقلب إلى الدم الموافق له ، قذفه إلى المعدة بعنق آخر ، من جنس العروق .

وإنما أمكنه جذب الفضل الأسود ، بقوة لحميته ، لأنه رخو متحلحل خفيف كالإسفنج .

ولما اتصلت به العروق الضوارب الكثيرة استغنى بها عن إنضاج الفضول السوداء ، ليبقى لحمه خفيفا متحلحلا . لأن دم الشرايين ، رقيق لطيف قريب ، طبيعته إلى البخار . فما اغتذى به ، كان نحيفا كالرئة .

ولكن الرئة ، تغتذى بما صفا ورق وأشرق ، وكان أحمر ناريا .

وكذلك الرئة ، كانت أخف وزنا منه ، وأسخف جرما ، ومائلة إلى البياض .

وأما الطحال ، فيغتذى بماءٍ لطيف ، من الخاط الأسود المنطبخ فى الشرايين ، فيستريح منه البدن ، ويغتذى به الطحال .

فالطحال ، يغتذى بغذاءٍ لطيف ، من غذاء الكبد ، لأَنه يرشح إليه من الشرايين التى صفا .

فأَيهما يحبه جدا (١) . ولأَجل سواد تلك الفضلة وكونها عكرة فى الأَصل ، لم يكن لون الطحال ، أَحمر ولا مشرقا .

فأَما الكبد فتتغذى ، بدم غليظ فاضل ، يرشح إليها من العروق غير الضوارب .

فلجودة غذائها ، كان لونها أَحمر ، ولفضلته ، كانت كثيفة .

فالكبد تغتذى بدم أَحمر غليظ .

والطحال ، بدم أَسود لطيف .

والرئة بدم صاف مشرق ، فى غاية النضج ، قريب من طبيعة الروح .

فجوهر كل عضو على ماهو عليه ، غذاؤه ، ملائم له.

فالغاذى شبيه بالمغتذى ، فى طبعه وفعله .

وهذا ، كما أَن حكمة الله سبحانه فى خلقه فيه ،

---

(١) كذا فى الأَصل .

جرت حكمته فى شرعه وأمره ، حيث حرم الأغذية الخبيثة على عباده .

لأنهم إذا اغتذوا بها ، صارت جزءًا منهم ، فصارت أجزاؤهم مشابهة لأغذيتهم .

إذ الغاذى شبيه بالمغتذى ، بل يستحيل إلى جوهره .

فلهذا كان نوع الإنسان ، أعدل أنواع الحيوان مزاجا ، لاعتدال غذائه .

وكان الاغتذاء بالدم ، ولحوم السباع ، يورث المغتذى بها قوة شيطانية ، سبعية ، عادية على الناس .

فمن محاسن الشريعة ، تحريم هذه الأغذية وأشباهها إلا إذا عارضها ، مصلحة أرجح منها ، كحال الضرورة . ولهذا لما أكلت النصارى لحوم الخنازير ، أورثها نوعا من الغلظة والقسوة .

وكذلك من أكل لحوم السباع والكلاب ، صار فيه قوتها .

ولما كانت القوة الشيطانية ، عارضة ثابتة ، لازمة لذوات الأنياب من السباع ، حرمها الشارع .

ولما كانت القوة الشيطانية عارضة فى الإبل ، أَمر بكسرها بالوضوء لمن أكل منها .

ولما كانت الطبيعة الحمارية ، لازمة للحمار ، حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم لحوم الحمر الأَهلية .

ولما كان الدم مركب الشيطان ومجراه ، حرمه الله تعالى تحريما لازما .

فمن تأَمل حكمة الله سبحانه فى خلقه وأمره ، وطبق بين هذا وهذا ، فَتَحَا له بابا عظيما من معرفة الله تعالى ، وأَسمائه وصفاته .

وهذا هو الذى حَرَّكَنَا ، لبسط القول فى هذا المقام ، الذى لايكاد يرى فيه إلا أَحد طريقين :

طريق طبيب ، معترض للوحى ، مقلد لبقراط .

وطائفته ، قد عبرت عينه على الرسل ، وما جاءُوا به . وهو ممن قال تعالى فيه (٤٠ غافر : فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ٨٣) .

وطريق من يجحد ذلك كله ، ويكذب قائله ،

ويظن منافاته للشريعة ، فيجحد حكمة الله تعالى فى خلقه ، وإبداعه فى صنعه .

وكلا الطريقين مذموم ، وسالكه من الوصول إلى الغاية محروم .

فلا نكذب بشرع الله ، ولا نجحد حكمة الله .

وأكثر ما أفسد الناس ، أنهم لم يروا إلا طبائعيا زنديقا ، مُنحَلاًّ عن الشرائع ، أو متساهلا قادحا ، فيما جرت به حكمة الله ومشيئته فى خلقه ، منكرا لِلقُوَى والطبائع والأسباب ، والْحِكَم والتعليل .

فإذا أراد الأول ، أن يدخل فى الإسلام ، صدَّه جهل هؤلاء ومكابرتهم للعقول والحس .

وإذا أراد الآخر أن يدخل فى معرفة الْحِكَم والغايات ، وما أودع الله فى مخلوقاته من المنافع والقوى والأسباب ، صدَّه زندقة هؤلاء وكفرهم ، وإعراضهم عما جاءت به الرسل ، وقدحهم فيما عندهم من العلم .

فيختار دينه على عقله ، ويختار ذلك عقله ، وما استقر عنده ، مما لا يكابر فيه حسه ولا عقله على الدين .

وهذا قد بَلِيَ(١) خلق الأَطباء والطبائعيين .

فهو عنده أَحد أَنواع أَدلة التوحيد والمعاد ، وصفات الخالق ، وما أَخبرت به الرسل ، هو من أَظهر أَدلته ، ولا يزداد الباطن فيه ، إلا إيمانا .

وما أَخبرت به الرسل ، لايناقض ماجرت به عادة الله وحكمته فى خلقه : من نصب الأَسباب ، وترتيب مسبباتها عليها ، بعلمه وحكمته .

فمصدر خلقه وأَمره ، علمه تعالى وحكمته .

وآلاءُ الرب تعالى ، لا تتعارض ولا تتناقض ، ولا يبطل بعضها بعضا . والله أَعلم .

(١١٧) فصل

والكبد والطحال متقابلان ، والمعدة ، بينهما والعروق الضوارب ، تتصل بها المعدة .

والقلب ، بمنزلة التنور . أَو بمنزلة ، أَتون الحمام ، يسخن ماءه .

---

(١) قوله : قد بلى إلخ . أى : قد اختبر وعلم علم اليقين أخلاق الأطباء والطبائعين . فاتخذ ذلك العلم سلاحاً ينافح به عن الدين ويقوى إيمانه برب العالمين .

وله إلى كل بيت ، منفذ ينفذ منه وهج النار إليه .

وكذلك الحار الغريزى ، الذى منبعه من القلب ، ينفذ فى مسالك ومنافذ ، إلى جميع الأعضاء فيسخنها .

(١١٨) فصل

وجعلت الأعضاءُ مسلكا مؤديا .

والمعدة ، هى الآلة لهضم الغذاءِ واستمرائه .

والأمعاءُ ، تؤدى ذلك إلى الكبد .

ولما كانت الأمعاءُ آلة الأداءِ والاتصال ، كثرت لفائفها وطولها ، وكانت العروق ، التى تأتيها من الكبد ، لاتحصى كثرة ، لينفذ فيها الغذاءُ أولا فأولا ، وتفيضه يسيراً يسيرا .

فلولا تطويل لفائف الأمعاءِ ، لكان يخرج قبل أخذ خاصيته ، وكان يعرض إليهم ، بشهوة الأكل دائما ، وكان الإنسان يعدم التفرغ لمصالحه وسائر أعماله ، وكان دائما ، مكبا على الغذاءِ .

ولهذا صار الحيوان الذى ليس لأمعائه استدارات ، بل له معًى واحد مستقيم ، مكبا على الغذاءِ دائما ، عديم الصبر عنه ، كالفيل .

وأما مالأمعائه استدارات فإنه إذا فارقه الغذاء أو بعضه فى الاستدارة الأولى ، صادفه فى الثانية .

فإن هو فاته فى الثانية ، صادفه فى الثالثة والرابعة ، والخامسة كذلك .

فيمكن صبره على الغذاء . حكمة بالغة .

وما ينفذ إلى الأمعاء يبعث من العروق الضاربة ، ويأخذ من الغذاء جزءا يسيرا لطيفا .

وأما العروق غير الضاربة ، فهى مجارى الغذاء بالحقيقة ، فأخذت أكثره .

وأما العروق الضاربة ، فجعلت مسلكا للأرواح المنبعثة من القلب ، فاستغنت بقليل الغذاء .

وجعل للقلب وصلة بالأمعاء ، ليحسنها أولا ، ويمدها بقوة الحار بإذن خالقه .

ثم يأخذ منها الجزء الملائم من الغذاء ، المستغنى عن فعل الكبد للطافة جوهره .

فإن هذا الجزء ، لو حصل فى الكبد .

لم يؤمن إحراقه وفساده ، فلا ينتفع به القلب .

ثم يأخذ منها ، عند شدة الحاجة وصدق المجاعة ، فيتعجل ذلك من أدنى المواضع .

ولذلك يشاهد من أكل مسنبة شديدة (١) يحس بزيادة ونماءٍ ، فى كل أعضائه ، حتى يمر الطعام بالمعدة قبل استقراره فيها .

فسبحان من أتقن ما صنع .

ولما كانت المعدة ، آلة هضم الغذاء ، والأمعاءُ ، آلة دفعه ، جعل للأمعاءِ طبقتان ، ليقوى دفعها بهما جميعا ، وليكون حرزا لها وحفظا .

ولذلك ، من تعرض له قرحة الأمعاءِ ، بانجراد أحد الصفاقين ، يبقى الآخر سليما .

وجعلت الأمعاءُ الغلاظ ، لقذف الثُّفْل ، والرقاق ، لتأْدية الغذاءِ .

والسبب فى أن صار الإنسان ، لايحتاج إلى تناول الغذاءِ دائما ، كثرة لفائف أمعائه .

والسبب المانع من قذف الفضول دائما ، سعة الأمعاءِ

---

(١) كذا فى الأصل .

الغلاظ ، التى تقوم لها مقام وعاءٍ آخر ، شبيه بالمعدة فى السعة .

كما أن المثانة وعاءٌ للبول كذلك .

(١١٩) فصل

ونحن نذكر فصلا مختصراً فى هذا الباب ، يجمع شتات ذلك بإيضاح وإيجاز إن شاء الله تعالى ، وبه الحول والقوة ، فنقول :

المرئ ، موضوع خلف الحلقوم ، ومما يلى فقار الظهر وينتهى فى ذهابه ، إلى الحجاب ، وهو مشدود برباطات .

فإذا أبعد ، مال إلى الجانب الأيسر واتسع . وذلك المتسع ، هو المعدة ، وأسفلها ، يعود مائلا إلى اليمين ، والمعدة مقر طبخه .

وفمها ، هو المسدف منها ، ويسمونه الفؤاد .

وهـذا من غلطهم ، إلا أن يكون ذلك اصطلاحا خاصا منهم .

والفؤاد – عند أهل اللغة – هو : القلب .

قال الجوهرى : الفؤاد القلب .

وقال الأصمعى : وفى الجوف ، الفؤاد ، وهو القلب .

وقد فرق بعض أهل اللغة بين القلب والفؤاد .

فقال الليث : القلب ، مضغة من الفؤاد ، معلقة بالنياط .

وقالت طائفة : مسدف القلب .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم « جاءكم أهل اليمن ، أرق قلوبا ، وألين أفئدة (١) » .

ففرق بينهما ، ووصف القلب بالرقة ، والأفئدة باللين .

وأما كون فم المعدة ، هو الفؤاد ، فهذا لانعلم أحدا من أهل اللغة قاله .

وتأمل وصف النبي صلى الله عليه وسلم ، القلب بالرقة التى هى ضد القساوة والغلظة .

---

(١) روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : « أتاكم أهل اليمن ، هم أرق أفئدة ، وألين قلوبنا . الإيمان يمان . والحكمة يمانية . والفخر والخيلاء فى أصحاب الإبل . والسكينة والوقار ، فى أهل الغنم » .

والفؤاد باللين ، الذى هو ضد اليبس والقسوة .

فإذا اجتمع لين الفؤاد ، إلى رقة القلب ، حصل من ذلك ، الرحمة ، والشفقة ، والإحسان ، ومعرفة الحق ، وقبوله .

فإن اللين ، موجب للقبول والفهم ، والرقة ، تقتضى الرحمة والشفقة .

وهذا هو العلم والرحمة ، وبهما كمال الإنسان ، وربنا وسع كل شئ ، رحمة وعلما .

فلنرجع إلى مانحن بصدده فنقول :

المعدة مع المرئ ، ذات طبقتين لطيفتين .

واللحم فى الطبقة فى الداخلة أقل ، ولهذا يغلب عليها البيـاض .

وهى عصبية حساسة ، وهى فى الطبقة الخارجة ، أكثر ، ولهذا يغلب عليها الحمرة .

وهى مربوطة مع الفقار ، برباطات وثيقة ، وتنتهى من جهة قعرها ، إلى منفذ ، هو باب المعدة .

وبوابها ، يغلق عند اشتماله على الغذاء ، مدة هضمه .

ويقال لباطن جرم المعدة : خمل المعدة .

والأمعاءُ : المصارين ، وهو جمع « مُصْران » - بضم الميم - وهو جمع « مصير » وسمى مصيراً ، لمصير الغذاء إليه .

والسفلى يقال لها : الأَقتاب . ومنه قوله صلى الله عليه وسلم « فتندلق أَقتاب بطنه » (١)

والعليا ، أرق من السفلى ، لما تقدم من الحكمة .

فأَعلى الرقاق ، يسمى الاثنى عشر ، لأَن مساحته ، اثنا عشر إصبعا .

ويليه ، المسمى بـ« الصائم » ، لقلة لبث الغذاء فيه ، لا لأَنه يوجد أبدا خاليا ، كما ظنه بعضهم . فإن هذا باطل ، حسا ، وشرعا ، كما سنذكره .

---

(١) روى البخارى ومسلم ، عن أسامة بن زيد ، رضى الله عنه قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم ، يقول : « يؤتى بالرجل يوم القيامة فتندلق أقتاب بطنه ، فيدور بها كما يدور الحمار فى الرحى ، فيجتمع إليه أهل النار . فيقولون : يا فلان مالك ؟ ألم تكن تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ؟ .

فيقول : بلى ، كنت آمر بالمعروف ولا آتيه ، وأنهى عن المنكر وآتيه » .

والأقتاب : الأمعاء . واحدها قتب - بكسر القاف - وتندلق : تخرج .

والثالث : المسمى بالرقيق واللفائف ، وهو أطول الأمعاءِ وأكثرها تلافيف . ولبث الغذاءِ فيه أطول ، والعروق التى تأتيه من الكبد ، أقل .

وأما اللذان قبله ، فمنتصبان فى طول البدن ، قصيران ، ويقل لبث الغذاءِ فيهما ، وهو فى الصائم ، أقل لُبْثًا .

وهذه الثلاثة ، تسمى الأمعاءَ العليا ، والأمعاءَ الرقاق ، وهى كلها ، فى سعة البواب .

وأما الدامع ، وهو الأول من الثلاثة السفلى ، فيسمى الأعور ، لأنه لامنفذ له .

بل هو كالكيس ، يخرج منه ما دخل ، من حيث دخـــل .

وحكمته سبحانه ، أنه يتم فيه ، ما يعسر هضمه من الأشياءِ الصلبة .

كما يتم ذلك فى قوانص الطيور .

ووضعه ، فى الجانب الأيمن .

والخامس ، المسمى بـ «قولون» ، يبتدئُ من الجانب

الأيمن ، ويأخذ عرضا ، إلى الأيسر ، ويحتبس فيه الثُّفلُ ، وربما يستقضى مافيه .

والسادس ، هو الآخر ، وهو المِعَى المستقيم ، لأنه مستقيم الوضع ، فى طول البدن ، وهو واسع جدا ، يجتمع فيه الثفل ، كما يجتمع البول فى المثانة ، وعايه الفضلة المانعة ، لخروج الثفل بدون الإرادة .

وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال « المؤمن يأكل فى معِىً ، واحد ، والكافر يأكل فى سبعة أمعاءٍ (١) » .

---

(١) روى مالك ، والبخارى ، ومسلم ، وابن ماجه وغيرهم ، عن أبى هريرة : أن رجلا كان يأكل كثيراً . فأسلم ، فكان يأكل أكلا قليلا فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : « إن المؤمن يأكل فى معى إلخ » واللفظ للبخارى .

إتماماً للفائدة ، وزيادة فى الإيضاح ، رأينا أن نذكر الحديث المتفق عليه بين البخارى ومسلم وحديث آخر ، رواه مسلم ، ونبسط القول فيهما بسطاً يجد القارىء فيه غناء ومقنعاً وتضمحل من أمامه كل الشبهات ، فتصبح كالهشيم الذى ذرته الرياح ، فلم تبق له من أثر ، ويكون بمثابة توضيح لكلام المؤلف ، ومساير لروح كلامه .

أما الحديث المتفق عليه بين البخارى ومسلم ، فهو ما روياه عن ابن عمر رضى الله عنهما ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « المؤمن يأكل فى معى واحد ، والكافر يأكل فى سبعة أمعاء » .

وأما الحديث الذى رواه مسلم ، فهو عن أبى هريرة أن ضيفاً ضاف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وهو كافر ، فأمر له بشاة ،

... ...

= فحلبت ، فشرب حلابها ، ثم بأخرى ، ثم بأخرى ، حتى شرب حلاب سبع شياه .

ثم إنه أصبح فأسلم ، فأمر له بشاة ، فشرب حلابها ، ثم بأخرى فلم يستتمها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المؤمن يأكل فى معى واحد، والكافر يأكل فى سبعة أمعاء » .

توضيح معنى الحـــديث

إن المؤمن حقاً ، الصادق فى إيمانه ، كثير التفكير فى الآخرة وفى عذابها ، كثير الخوف من الله ومن عصيانه وعقابه ، كثير الخضوع والعبادة ، كثير السهر والتهجد والصلاة والصيام ، كثير الجهـــاد فى سبيله وسبيل دينه ، كثير الورع والابتعاد عن الحرام وعن مظانه ، وعن الشبهات وموقعها ، كثير العناية بدينه وفهمه ، كثير البحث والتنقيب عما يرضى الله ويقرب منه ، وعما يغضبه ويباعد عنه ، كثير الاحتياط لعقيدته وإيمانه ، خوف أن يصـــيبه شىء من غبار البدع والشبهات ، كثير الرغبة فى الجنة والزهادة فى الدنيا ولذاتها .

فانشغال ذهنه وعقله فى هـــذه الأمور يقلل نصيبه من الدنيا : من مأكل ، ومشرب ، وملبس ، ومسكن ، وجمع مال . فهو يأكل فى معى واحد فقط .

وهذا كناية عن أنه قليـــل حظه من الدنيا ولذائذها بتعلقه بالأمور المذكورة اللازمة للإيمان الصحيح .

ولا يريد الحديث أن خلقته مخالفة خلقة الكافر ، ولا أن تركيب بدنه خلاف تركيب بدن غيره .

وأما الكافر الذى لا يبالى بالدين ، ولا بما يغضب الله ، أو ما يرضيه ، فهو عكس المؤمن فى ذلك كله . =

... ...

= فليس له شىء يهمه سوى الدنيا ، والاستكثار منها ، والجمع لها ، والتفنن فى تناول لذاتها ، واختراع المأكولات والمشروبات .

فلا يبالى أن يأكل حراماً وأن يجمع حراماً .

ولا يبالى بالفقراء والمحتاجين الذين يتضاغون حوله جوعاً وعرياً .

ولا يعرف لله ساعة يهب نفسه له فيها بعبادة ومناجاة أو تفكر فى آلائه وشئونه

وبالإجمال ، كل شىء فيه ، موقوف على الدنيا وعلى خدماتها .

فهو كثير الحظ منها ، كثيرة الحظ منه .

فهو يأكل منها بسبعة أمعاء . أى : إنه كثير الحظ منها ، لا . أن خلقته مغايرة خلقة المؤمن .

والسبعة الأمعاء هنا لا يراد بها حقيقتها ، فهى على حد قوله تعالى (وَلَوْ أَنَّ مَا فِى الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَانَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (سورة لقمان الآية : ٢٧) .

ولا مفهوم للعدد فى هـذه الآية ، وإلا يلزم أن تنفد كلمات الله ببحر ثامن .

بل المراد بالسبعة فى الحديث والآية : التكثير ، لا التحديد ، مثل (السبعين) فى قوله تعالى (إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِين مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ) .

كما تقول : لا يقبل الله من كافر عمله ، ولو عبده سبعين عاماً ، ولا من مبتدع بدعته ، ولو تقرب إليه سبعين عاماً .

ولا شك أن الله لا يريد بالآيتين : حقيقة السبعة ، ولا حقيقة =

... ...

= السبعين وإنما يريد مطلق الكثرة لما يقتضيه المفهوم من فساد المعنى .

وكذا الأكل هنا ، لا يراد به الأكل المعروف ، وهو ازدراد الطعام ، وإنما يراد معنى أعم ، وهو التمتع بالدنيا ، بالأكل ، أو اللبس ، أو الجمع والادخار ، وهو كقول الله سبحانه فى سورة البقرة ٢٧٥ .

(الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ٢٧٥) .

وقوله أيضاً (وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) (البقرة ١٨٨) .

وقوله أيضاً (إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً) (النساء آية ١٠)

فمما لا شك فيه أن هذه الآيات لا تعنى الأكل المعروف فقط ، وإنما تعنى شيئاً أعم من ذلك وهو ما تقدم ذكره .

وبهذا يسلم الحديث من الإشكال المشهور الذى أورد عليه وهو قصر الأكل على ازدراد الطعام .

والذين جعلوا الحديث مشكلا ، هم الذين حسبوا ، أن الأكل ، هنا ، هو الأكل المعروف ، وأن الكافر يأكل ، كما يأكل المؤمن سبع مرات .

ففهموا أن هذا المعنى ليس صحيحاً ، وذهبوا إلى أنه خلاف المشهور . فأجابوا عن الإشكال بأجوبة ليس فيها مقنع . =

... ...

= منها : أن طائفة قالت : إن هذا الحديث مراد به كافر معين ومؤمن معين .

ولعلك تقول : هذا الذى تذهب إليه فى الحديث حسن ، لولا أن الرواية الأخيرة تعانده فيما يبدو .

فإن ظاهرها أن الأكل مراد به الأكل المعروف . بدليل هذا الذى شرب سبع حلبات — وهو كافر — فلما أسلم شرب حلاباً واحداً .

فهذا كالتصريح أن الكافر يأكل كما يأكل المؤمن سبع مرات .
فالأكل هنا ، هو الأكل ، والسبع — هنا — هى السبع .

فأقول لك : إن الأكل — هنا — جنس يتناول أنواعاً . يتناول الأكل حقيقة ويتناول اللبس ، والسكن ، وجمع المال ، وادخاره وكل ما فيه تمتع . ودليل ذلك ، الآيات المتقدمة .

وإذا كان ذلك كذلك ، فأحد أنواع الأكل ، الأكل المعروف ، كما فعل الرجل المذكور فى كفره وإيمانه .

والأنواع الأخرى التى يتناولها لفظ « الأكل » دل عليها قوله : « والكافر يأكل فى سبعة أمعاء » . أى : التمتع بالأكل وغيره مما تقدم ذكره

وسبب الحديث لا يكون مخصصاً عمومه ، فالعموم باق على حاله وإن كان السبب خاصاً لاعموم له .

وبيان هذا ، أن الرسول عليه الصلاة والسلام ، لما رأى ذلك الكافر وكثرة ما يأكل ، ذكر خلقاً من أخلاق الكافرين ، وهو : التمتع بالذات المادية ، بشرَهٍ وشدّة . والمعانى تتداعى :

وتفسير هذا ، قول العلماء « العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب » . =

... ...

= يريدون : أن اللفظ ، يكون عاماً فى دلالته ، وإن كان خاصًّا فى سببه . وغالب عمومات الشرع ، أسبابها خاصة . هـذا من جهة الأكل .

وأما من جهة العدد ، فلا ريب أنه لا يريد فى مثل هذا الاستعمال تحديد العدد .

ومثل ذلك أن تقول : فلان يتكلم بسبعة ألسنة ، أو سبعة أفواه ، ويأكل فى سبعة بطون ، أو سبع أيدٍ ، وينظر بعيون كثيرة ، ويمشى بأرجل عديدة ، وأمثال ذلك .

لا شك أن القائل لذلك ، لا يقصد العـدد المذكور ، وإنما يريد المبالغـة .

ومن فهم من هذه الأقوال ، العدد ، فهو كمن فهم من قوله تعالى (تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا ـ سورة القمر آية ١٤) وقوله : (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ) سورة الذريات آية ٤٧) .

وقوله : أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا » سورة يس الآية ٧١) .

وكان كذلك الوزير الذي قال له الحجاج : اقطع لسـان هذا ، يشير إلى شاعر مدحه ونال إعجابه .

فأخذ الوزير ، الموسى ، وآلة القطع ، وأحضر الشاعر ، ليقطع لسانه ، وكان الحجاج يريد أن يعطيه مالا ، يكفُّ لسانه عن ذمه .

وبما ذكرنا ، صار الحديث واضحاً ، وقاعدة من قواعد الأخلاق الإسلامية ، وهى : أن المؤمن العاقل الحـكيم ، لا بد أن يكون مستقلا من الشهوات المادية ، مستقلامن خدمة الدنيا ، لذاتها . ليس =

فأطلق على المعدة اسم المعى ، تغليباً ، ولمشابهتها بالأمعاء ، لكون كل واحد من الأمعاء والمعدة ، محلا للغـــذاء .

وهذا لغة العرب كما يقولون : القمران ، والعمران ، والركنان اليمانيان ، والشاميان ، والعراقيان (١) ونظائر ذلك .

ولاسيما فإن تركيب الأمعاء ، كتركيب المعدة ، إذ هى مركبة من طبقتين : لحمية خارجة ،وعصبية داخلـــة .

والطبقة الداخلة ، فيها لُزوجات متصلة بها ، لتقيها

— بذلك ، الطماع الجشع ، ولا اللحز الشحيح ، ليس بعزيز عليــه أن يصرف ماله فى وجوه البر والخير .

بل له شأن أسمى من ذلك ، وغرض أعلى . وهو : تنمية الروح ، وتزكية العقل .

ولا أهدم لأخلاق الأمم ، وللمدنية الفاضـــلة ، من الحرص على الماديات والشهوات .

(١) يعنى للشمس والقمر ، ولأبى بكر وعمر ، وللركن الذى به الحجر الأسود والذى يليه ، من ظهر الكعبة .

والشاميان : هما اللذان بينهما الميزاب ، ويحاذيان حجر إسماعيل .

والعراقيان : هما الركن اليمانى ، والذى يليه من الجهـــة الغربية ، لأنهما يحاذيان العراق .

من حر ألم البراز ، ورداءته ، كثيفة ، فلاتمسكه ، ولا يتعلق بها شيءٌ منه .

ولما كان الكافر ، ليس فى قلبه شيءٌ من الإيمان والخير يغتذى به ، انصرفت قواه ونهمته كلها ، إلى الغذاءِ الحيوانى البهيمى ، لما فقد الغذاءَ الروحى القلبى .

فتوفرت أمعاؤه ، وقواه على هذا الغذاءِ ، واستفرغت أمعاؤه هذا الغذاءَ ، وامتلأت به ، بحسب استعدادها وقبولها ، كما امتلأت به العروق والمعدة .

وأما المؤمن ، فإنه إنما يأكل الحلقة ، ليتقوى بها على ما أمر به .

فهمته وقواه ، مصروفة إلى أمور ، وراءَ الأكل .

فإذا أكل مايغذيه ، ويقيم صلبه ، استغنى قلبه ، ونفسه ، وروحه ، بالغذاءِ الإيمانى ، عن الاستكثار ، من الغذاءِ الحيوانى ، فاشتغل معاه الواحد - وهو «قولان» - بالغذاءِ . فأمسكه ، حتى أخذت منه الأعضاءُ والقوى ، مقدار الحاجة ، فلم يحتج إلى أن يملأ أمعاءَه كلها من الطعام . وهذا أمر معلوم بالتجربة .

وإذا قويت مواد الإيمان ، ومعرفة الله ، وأسمائه ،

وصفاته ، ومحبته ، والشوق إلى لقائه ، فى القلب ، استغنى بها العبد ، عن كثير من الغذاء ، ووجد لها قوة تزيد على قوة الغذاء الحيوانى .

فإن كثف طباعك عن هذا ، وكنت عنه بمعزل ، فتأمل حال الفرح والسرور ، بتجدد نعمة عظيمة ، واستغناؤك مدة عن الطعام والشراب ، مع وفور قوتك ، وظهور الدموية على بشرتك ، وتغذيه بالسرور والفرح .

ولانسبة لذلك ، إلى فرح القلب ونعيمه ، وابتهاج الروح ، بقربه تعالى ، ومحبته ، ومعرفته ، كما قيل :

لَهَا أَحَادِيثُ مِنْ ذِكْرَاكَ تَشْغَلُهَا
عَنِ الطَّعَامِ ، وَتُلْهِيهَا عَنِ الزَّادِ

وقد قال صلى الله عليه وسلم فى الحديث المتفق على صحته .

« إنى أظل عند ربى ، يطعمنى ويسقينى (١) » .

---

(١) عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم ، نهى عن الوصال — فى الصوم — فقالوا : إنك تفعله .

فقال : « إنى لست كأحدكم ، إنى أظل إلخ » متفق عليه .

والوصال : أن يصل الليل بالنهار صوماً ، بدون أن يطعم شيئاً أو يشرب ، عدة أيام .

وصدق الصادق المصدوق ، صلوات الله وسلامه عليه .

فإن المقصود من الطعام والشراب ، التغذية الممسكة .

فإذا حصل له ، أَعْلَى الغذاءَين وأَشرفهما وأَنفعهما ، فكيف لايغنيه عن الغذاءِ المشترك .

وإذا كنا نشاهد أَن الغذاءَ الحيوانى ، يغلب على الغذاءِ القلبى الروحى ، حتى يصير الحكم له ، ويضمحل هذا الغذاءُ بالكلية ، فكيف لايضمحل غذاءُ البدن ، عند استيلاءِ غذاءِ القلب والروح ، ويصير الحكم له ؟

وقد كان صلى الله عليه وسلم ، يمكث الأَيام ، لا يطعم شيئا ، وله قوة ثلاثين رجلا ، ويطوف ، مع ذلك ، على نسائه كلهن ، فى ليلة واحدة ، وهن تسع نسوة .

وهذا المسيح بن مريم ، صلى الله عليه وسلم ، حيٌّ لم يمت .

وغذاؤه من جنس غذاءِ الملائكة .

وأَنت تشاهد المريض ، يمكث الأَيام العديدة ، لا يأْكل ولا يشرب .

لاشتغال نفسه ، بمحاربة المرض ومدافعته ، واكتفاء

الطبيعة ، ببقية الغذاء ، الذى فى الأمعاء والمعدة ، مدة الحرب .

فإذا وضعت الحرب أوزارها ، رأيت شدة طلبه للغذاء .

فالخائف ، والمحب ، والفرح ، والحزين ، والمستولى عليه الفكر ، لا تطالبه نفسه بشىء من الغذاء ، كالخالى من ذلك .

(١٢٠) فصل

والكبد ، عضو لحمى ، تتخلله عروق رقاق وغلاظ

وعلى الكبد ، غشاء عصبى حساس ، يحيط بها ، وينشئ إلى غلافه .

والكبد ، هى الأصل فى الغذاء ، وآلات الغذاء خدم لها ومعينات .

فإن الإنسان ، لما كان كالشجرة المستقلة ، جعل له مايقوم مقام النهر الجارى فى أصول الشجرة يسقيها ، وهو الأمعاء .

والمعدة بمنزلة العين ، وتجرى منها العروق ، مجرى السواقى .

وعروق الكبد المتصلة بالأمعاء ، بمنزلة عروق الشجرة المتصلة بأرض الساقية ، تمتص الماء منها ، وتؤديه إلى الشجرة وأغصانها ، وورقها ، وثمارها .

وهذه العروق ، تمص الماء من الطين والثرى .

وكذلك عروق الكبد ، تمتص صفو الماء وخالصه ، من كلوليته ، وتحيله إلى طبيعة الأعضاء ، كما تفعل عروق الشجرة .

وشكل الكبد ، شكل هلالى مُحَدَّب من ظاهره ، مُقَعَّر من باطنه .

وهى تحت الأضلاع الخمس . ولها خمس شعب . يقال لها ، الزوائد .

تحتوى على المعدة ، كما تحتوى الكف بأصابعها ، على الشيء المقبوض .

ويقال للشعبة الصغيرة منها خاصة ، زائدة الكبد .

وفى الصحيح ، عن النبي صلى الله عليه وسلم .

« إن سبعين ألفا من أهل الجنة ، يأكلون من زيادة كبد الحوت ، الذى هو أول طعامهم » .

وهذا يدل على عظم قدر هذه الزائدة .

فما الظن بالكبد ، التى هى زائدته ؟ فكيف بالحوت ، الذى حواها ؟

ومقعرها ، يسمى المورد ، لأنه يورد الغذاءَ من المعدة والأمعاء ، ويسمى باب الكبد .

ثم تتشعب هذه العروق ، من جانبيه ، بشعب تتصل بالأمعاء ، وتسمى الجداول ، لشبهها بالسواقى الصغار ، وتؤدى إلى نقرة عظيمة .

ولهذه الجداول ، أغشية من فوقها ، ومن تحتها ، فتستدير مع الأمعاء ، العروق المتصلة بها .

وتسمى هذه الأغشية وما تحتويه ، المرابط .

(١٢١) فصل

والعرق الثانى ينقسم فى مجذ بها ، إلى عروق صغار ، وأصغر منها ، حتى تبلغ غاية الرقة ، ثم تعود ، وتجتمع أول فأول ، على قياس ما تفرق ، وأخذ من كثرة إلى وحدة ، ومن رقة إلى غلظ ، حتى يجتمع منها العرق الخارج من الكبد المسمى بالأجوف ، ومنها يتأدى الدم إلى البدن كله ، وحين يخرج ينقسم إلى قسمين :

فيأْخذ أَحدهما ، نافذا فى الحجاب نحو القلب ، ويسمى الوتين .

قال أَهل اللغة : الوتين : عرق يسقى القلب .

« قال فى الصحاح : الوتين : عرق فى القلب ، إذا انقطع ، مات صاحبه . وأُصيب وتينه ، فهو موتون .

وقال الواحدى : الوتين ، نياط القلب ، وهو عرق يجرى فى الظهر ، حتى يتصل بالقلب ، إذا انقطع ، بطلت القوى ، ومات صاحبه .

وهذا قول جميع أَهل اللغة ، وأَنشدوا للشماخ :

إِذَا بلَغَتْنِى وَحَمَلَتْ رَحْلِى
عرَابَةُ فَاشْرَقى بدَم الْوَتِينِ

وقال ابن عباس ، وجمهور المفسرين : هو حبل القلب ونياطه .

وأَما الأَبهر ، الذى قال فيه النبى صلى الله عليه وسلم : « هذا أَوان انقطاع أَبهرى (١) ؛ فقال الجوهرى :

---

(١) عن عائشة رضى الله عنها . قالت : كان رسول الله ﷺ ، يقول : فى مرضه الذى مات فيه « يا عائشة ما أزال أجد الطعام الذى أكلت بخيبر ، وهذا أوان وجدت انقطاع أبهرى من ذلك السم » . رواه البخارى .

الأَبهر : عرق ، إذا انقطع ، مات صاحبه ، وهما أَبهران ، يخرجان من القلب ، ثم تتشعب منهما سائر الشرايين .

وأَنشدوا للأَصمعى :

وِلِلْفُؤَادِ وَجِيبٌ عِنْدَ أَبْهَـرِهِ
لِدَمِ الْغُلَامِ وَرَاءَ الْغَيْب بالْحَجر (١)

(١٢٢) فصل

والمرارة ، موضوعة على الكبد ، ولها مجريان :

أَحدهما ، متصل بتقعير الكبد ، يجتذب الْمُرَّةِ الصفراءِ .

والآخر ، متصل بالأَمعاءِ العليا ، يصب فى المرة ، ليغسلها ويجليها .

ويتصل منه السر بـأَسفل المعدة ، ليمتزج بالغذاءِ ، فيكون فيه معونة على هضمه .

(١٢٣) فصل

والقوة التى وكلها الله سبحانه وتعالى بتدبير البدن ، من أَعظم آياته الدالة عليه .

---

(١) كذا فى الأصل ، وليحرر .

فإنها تفعل فى الطعام والشراب الواردين عليه ،أَفعالا متنوعة ، من تقطيع ، وتفصيل ، وتمريخ ، وتحليل ، وتركيب .

فمبدأُ ذلك فى الفم ، وهو : تقطيعه بالأَسنان ، ومضغه واختلاطه بالرطوبات ، التى فيه ، وانهضامه فيه انهضاما تاما .

ثم بعد ذلك ، عند وروده إلى المعدة ، تهضمه هضما آخر ، ويسمى الهضم الأَول ، ويعينها على هضمه ، مايجاورها من الأَعضاء .

فالكبد عن يمينها ، والطحال ، عن يسارها ، والقلب من فوقها ، والمرىءُ أَمامها .

والأَمعاءُ ، السبل الموصلة إليها ، والعروق ، الطرق المؤدية منها .

والحرارة ، النار الطابخة للطعام فيها ، والقوة الهاضمة والجاذبة ، والغاذية ، والدافعة ، خدم لها .

فإذا انهضم الطعام فيها ، صار كيلوسًا شبيها بماء الكشك الثخين .

ثم تنهز صوبه ولطيفه ، فتقذفه العروق الرقاق الشعرية ، التى هى برقة الشعر ، وينجذب إلى الكبد.

فإذا ورد هذا اللطيف إلى الكبد ، اشتملت عليه بجملته ، فطبخته ، وهضمته ، وأحالته إلى جوهرها ، وصيرته دما . ويسمى هذا ، الهضم الثانى .

ولما كان هذا الإنضاج والطبخ يشبه طبخ القدر ، علاه شىءٌ كالرغوة والزبد ، وهو الصفراءُ ، ورسب منه شىءٌ ، مثل العكر ، وهو السوداءُ ، وتخلف عن تمام النضج شىءٌ ، بقى على فجوجته وهو البلغم .

والشىءُ الذى يصفى ، ويبقى من ذلك كله ، هو الدم .

فاندفع من الكبد ، فى العرق الأعظم المعروف بالأجوف ، بعد أن تصفت عنه المائية إلى آلة البول .

فيسلك هذا الدم ، فى الأوردة المتشعبة من الجوف . ثم فى جداول متثقبة من الأوردة .

ثم فى سواقى متثقبة من الجداول .

ثم فى رواضع مشتقة من السواقى . ثم فى عروق رقاق شعرية .

ثم يرشح من أفواهها فى الأَعضاءِ لتغتذى به ، فتحله الأَعضاءُ وتصيره لجوهرها .

فيصير فى اللحم ، لحماً ، وفى العظم ، عظما ، وفى العصب ، عصبا ، وفى الظفر ظفرا ، وفى الشعر شعرا ، وفى السمع والبصر وآلة الحس كذلك .

فتبارك من هذا صنعه ، فى قطرة من ماءٍ مهين .

(١٢٤) فصل

والدم هو الخليط الأَصلى والغذاءُ الحقيقى للبدن ، والمخلف عليه ، بدل ماينقص ويتحلل منه .

والأَخلاط الأُخر ، كالأَبازير ، والتوابل وهى صنفان :

صنف لطيف ، وهو دم القلب .

وغليظ ، وهو دم الكبد . ومثله ، مثل السلطان ، إذا كان وقورا حليما ساكنا ، عاشت به رعيته . وإذا غضب واحتد ، قتل .

(١٢٥) فصل

وأما البلغم ، فخليط فج مستعد ، لين ، يستكمل نضجه ، عند عوز الغذاء ، إذا تولته الحرارة الغريزية ، فهضمته وصيرته دما .

فيكون فى المعدة والأمعاء ، وفى الكبد عند قصور الهضم .

وفيه من المنفعة ، أنه يرطب البدن ، ويبل المفاصل ، لسلس حركاتها ، ويخالط الدم فى تغذية الأعضاء البلغمية المزاج ، كالدماغ .

ولما كانت الأعضاء محتاجة ، أن يكون قريبا منها لترطيبها ، لم يجعل له عضو يختص به ، لاسيما ، والأعضاء تغتذى به ، إذا أعوزها الغذاء .

(١٢٦) فصل

وأما الصفراء ، فخليط لطيف حار ، وحاجة البدن إليها ، فى أن تخالط الدم ، وترقه بلطفها ، وتنفذه فى المسالك الضيقة ، ولتعينه فى تغذية الأعضاء الحارة اليابسة .

وما ينفصل عنها ، مما يستغنى عنه ، يتصفى إلى المرارة ، لتأخذ نصيبها منه .

وما تستغنى عنه المرارة ، تصبه إلى الأمعاء ،ليغسلها عن لطخة الأثفال ولزوجتها ، ولتدع عضل المقعدة ، فيحس بالحاجة إلى التبرز .

(١٢٧) فصل

وأما المرارة السوداء ، فخليط بارد يابس .

وفيه من المنافع ، أنه ينفذ مع الدم فى العروق ، ليشده ويقويه ، ويكفيه ، ويمسكه ، ويمنعه من سهولة الحرمة ، عند الحاجة إلى ذلك .

ويعينه على تغذية الأعضاء المحتاجة ، أن يكون فى غذائها شىءٌ من السوداء ، كالعظام ، وما اتصل منه ، واستغنى عنه ، يصفى إلى الطحال ، فيصفيه الطحال جدا ، ويتغذى به .

ثم يجلب ، مايستغنى عنه الطحال إلى فم المعدة ، فيدغدغه بالحموضة التى فيه ، فتتحرك الشهوة ، ويحس بالجوع .

فتطلب الأعضاءُ القصوى ، معلومها وراتبها ، من الأعضاءِ التى تليها .

وتطلبه الأَعضاءُ ، التى تليها من التى تجاورها .

وهكذا ، حتى ينتهى الطلب إلى المعدة .

فالجوع ، طلب الأَعضاءِ القصوى معلومها ، من الأَعضاءِ الدنيا .

(١٢٨) فصل

ولما اقتضت حكمة الرب ، جل جلاله ، وتقدست أَسماؤه ؛ ولا إله غيره - حيث كان بدن الإنسان مشبها فى أَحواله بالمدينة - أَن يوجد فيه أَعضاءٌ رئيسية تقوم بمصالحها ، كما تقوم رؤساءُ المدينة بمصالحها ، وتكون لها بمنزلة الولاة والأُمراءِ ، وأَعضاء تكون خادمة لهذه الأَعضاءِ الرئيسية ، فإن الرئيس ، لا يكون رئيسا إلا بمرءُوس ، وهى : بمنزلة الشرط والجلاوزة (١) والنقباءِ ، وأَن يوجد فيها أَعضاءٌ كالرعية ، وهى قسمان :

ماله اتصال بالرؤساءِ ، وإن لم يكن له اتصال خدمة.

وما لا اتصال له بهم ، بل هو مستقل بنفسه .

فالأَعضاءُ إذاً ، بهذا التقسيم أَربعة :

---

(١) جمع جلواز - بكسر الجيم وسكون اللام - وهو الشرطى . قاموس .

أَحدها : الأَعضاءُ الرئيسية المخدومة .

الثانى : الأَعضاءُ المرءُوسة الخادمة .

الثالث : الأَعضاءُ المرءُوسة بلا خدمة .

الرابع : الأَعضاءُ ، التى ليست رئيسة ، ولامرءُوسة .

(١٢٩) فصل

والأَعضاءُ الرئيسية ، إنما استحقت الرياسة لشرفها ، إذ كانت ، هى الأُصول والمعادن والمبادئ ، للقوى الأَولية فى البدن ، المضطر إليها ، فى بقاءِ الشخص والنوع

وهى : بحسب بقاءِ الشخص – ثلاثة : القلب ، والكبد ، والدماغ .

وبحسب بقاءِ النوع ، أَربعة : الثلاثة المذكورة ، والأُنثيان .

وأَما القلب فهو الذى جعله الخلاق العليم ، قائما بأْمر البدن ، كقيام الملك بالرعية .

وهو أَول عضو يتحرك فى البدن ، وآخر عضو يسكن منه .

وهو مبدأُ جميع الخلق ، وما يلحقه من صلاح أَو فساد ، يتأَدى منه إلى غيره من الأَعضاءِ .

وأما الكبد فهى العضو ، التى تقوم لحفظ الحياة ، إذ كانت هى التى تملأُ الأَعضاء بالغذاء ، ليبقى البدن محفوظا ، ما أَمكن بقاؤه .

وأَما الدماغ ، فهو العضو القائم بأَمر الحس والإدراك وتكميل الحياة .

إذ فيه آلات الإحساس ، التى بها يعرف النافع من الضار ، والملائم من المنافر .

وبه صارت الحياة نافعة ، صالحة ، متجاوزة لزينة حياة النبات .

وأَما الأُنثيان ، فهما اللذان يقومان لحفظ بقاء النوع

(١٣٠) فصل

وأَما الأَعضاءُ الخادمة ، فالرئة ، والشرايين الحاملة المؤدية ، من القلب ، الحرارة الغريزية والقوى ، والأَرواح الحيوانية ، التى بها قوام البدن .

فهذان خادما القلب .

والمعدة والأَوردة ، خادمان للكبد .

والأَوردة ، تنفذ الدم الغاذى ، والقوى إلى جميع

البدن . والكبد ، خادمة الدماغ . وكذلك الأعصاب ، التى بها يحصل الحس والحركة .

والأنثيان ، يخدمهما الأعضاءُ المؤدية للمنى ، والمجارى المؤدية عنهما ، إلى موضع التوالد .

(١٣١) فصل

وأما الأعضاءُ المرءُوسة بلا خدمة ، فهى أعضاءٌ مختصة بقوى ، لها طبيعة .

بها يتم تدبيرها ، ويستقيم أمرها .

ولا يدفع ذلك ، أنه يقبض عليها من الأعضاء الرئيسية ، قوى تمدها ، بإذن الله تعالى ، كالأُذن ، والعين ، والأنف .

فإن كل واحد منها ، يقوم بأمر نفسه ، بما فيه من من القوة الطبيعية ، التى أعطاها إياها الخالق سبحانه .

ولا يتم ذلك ، إلا بأن تأتيها قوة حساسة ، تنزل عليها من الدماغ ، بإذن الله تعالى .

(١٣٢) فصل

وأما الأعضاءُ التى ليست برئيسة ، ولا مرءُوسة ،

فهى التى اختصت بقوى غريزية ، فيها من أَصل الخلقة فى أَول التكوين ، ليتم بها قوام أَمرها ، وتدبيرهافى جلب المنافع ودفع المضار ، كالعظام والغضاريف وسائر الأَعضاء المتشابهة الأَجزاء ، مثل الرباطات ، والأَعصاب والأَوتار ، والشرايين ، والأَوردة ، والأَغشية واللحم .

والعظام كالأَساس والأُسطوانات لبناء هيكل البدن .

فإن قيل : هل فى العظام قوة الإحساس وحياته أَم لا ؟

قيل : هذا موضع ، اختلف فيه أَرباب الشريعة . فيما بينهم ، وأَرباب الطبيعة ، فيما بينهم .

فقالت طائفة : لاحياة فى العظام ، وإن كان فيها قوة النمو والاغتذاء .

قالوا : إن الحياة ، إنما هى الروح الحيوانى ، ولاحظ للعظام فيه .

قالوا : ولأَن مركب الحياة ، إنما هو الدم المنبث فى العروق ، والأَعصاب ، واللحم . ولهذا لم يكن للشعر ، ولا للظفر نصيب من ذلك ، ولهـذا لم يأْلم الإنسان بأَخـذه .

قالوا : فحياة العظام والشعر ، حياة نمو واغتذاءٍ .

وحياة أَعضاءِ البدن ، حياة نمو وإِحساس .

قالوا : ولهذا قلنا : إِن العظام لا تنجس بالموت ، لأَنها لم يكن فيها حياة تزول بالموت .

قالوا : وزوال النمو ، لايوجب نجاسة ما فارقه ، بدليل يبس الزرع والشجر .

قال آخرون : الدليل على أَن العظام تحلها الحياة ، قوله تعالى :

(يس : ٣٦ قَالَ مَنْ يُحْيِى الْعِظَامَ وَهِىَ رَمِيمٌ ٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ٧٩) والحس، يدل على ذلك أَيضا .

فإِن العظم ، يأْلم ويضرب ، ويسكن، وذلك نفس إِحساسه .

قالوا : ولا يمكن إِنكار كون العظام ، فيها قوة حساسة ، تحس بالبارد والحار .

قال الآخرون : الإِحساس والأَلم ، ليس للعظم فى نفسه ، وإِنما هو ، لما جاوره من اللحم .

قال المنازعون لهم : هذا مكابرة ظاهرة .

فإن العظم نفسه ، يألم ، ولاسيما ، إذا تصدع .

ثم إن الأسنان والأضراس ، تحس بالألم ، والحار ، والبارد بأنفسها ، لا بمجاورها من اللحم .

ولهذا توسطت طائفة ثالثة ، وقالت : عظام الأسنان ، خاصة ، لها الإحساس ، بخلاف سائر العظام .

وهؤلاء قد سلموا المسألة ، من مكان قريب ، فإن الذى دل على إحساس الأسنان وحياتها ، هو الدال على حياة سائر العظام .

والشبهة التى ذكروها — لو صحت — لمنعت من إحساس الأسنان .

وأما حديث الطهارة والنجاسة ، فذاك لأمر آخر ، وراء الحياة .

من نجسها بالموت ، سوّى بينها وبين اللحم .

ومن لم ينجسها — وهو الراجح فى الدليل — فذاك لعدم علة التنجيس فيها .

وإن الموت ، ليس بعلة النجاسة ، وإنما هو ، دليل العلة وسببها .

والعلة ، هى احتقان الفضلات فى اللحم .

والعظم برىءٌ من ذلك . والدليل على هذا ، أَن الشارع لم يحكم بنجاسة الحيوان النامى ، الذى لانفس له سائلة ، لعدم احتقان الفضلات فيه .

فَلأَنْ لايحكم بنجاسة العظم ، أَولى وأَحرى .

فإن الرطوبات التى فى الذباب ، والعقرب ، والخنفساءِ ، أَكثر من الرطوبات ، التى فى العظم .

(١٣٣) فصل

والذى أَحصاه المشرحون من العظام فى البدن ، مائتان وثمانية وأَربعون عظما ، سوى الصغار السمسميات ، التى أَحكم بها مفاصل الأَصابع ، والتى فى الحنجرة .

وقد أَخبر النبي صلى الله عليه وسلم ، أَن الإنسان خلق من ثلاثمائة وستين مفصلا .

فإن كانت المفاصل ، هى العظام ، فقد اعترف جالينوس وغيره ، بأَن فى البدن عظاماً صغاراً ، لم تدخل تحت ضبطهم وإحصائهم .

وإن كان المراد بالمفاصل ، المواضع التى تنفصل بها الأَعضاءُ ، بعضها عن بعض ـ كما قال الجوهرى وغيره ،

المفصل واحد مفاصل الأَعضاءِ ـ فتلك أَعم من العظام ، فتـأَمله

وإن السُّلاميات المذكورة فى الحديث ، الذى رواه مسلم فى صحيحه من حديث أَبى ذر « يصبح على كل سلامى من أَحدكم صدقة . فكل تسبيحة صدقة ، وكل تحميدة صدقة ، وكل تهليلة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة » الحديث (١) .

فالسلامى : العظم ، وجمعه « سلاميات » ، فهنا ثلاثة أُمور :

أَعضاءٌ ، وعظام ، ومفاصل .

وجعل الله سبحانه ، العظام أَصلب شيءٍ فى البدن ، لتكون أُسًّا ، وعمدة فى البدن ، إذ كانت الأَعضاءُ كلها ، موضوعة على العظام ، حتى القلب ، كما سيأْتى ، بيانه ، إن شاءَ الله تعالى .

---

(١) تمامه « وأمر بالمعروف صدقة ، ونهى عن المنكر صدقة . ويجزىء من ذلك : ركعتان يركعهما من الضحى » .

قال فى المرقاة : ولعل وجه تخصيصهما بالإجزاء أنه وقت غفلة أكثر الناس عن الطاعة ، والقيام بمقام العبودية .

و[illegible] الشفع والوتر بهذه الصورة ، والوتر فى جوف الليل ، لكونهما وقت الاستراحة .

وهى حاملة للأعضاء ، والحامل أقوى من المحمول .

ولتكون وقاية ، وُجنَّة أيضاً ، كالقحف ، فإنه وقاية الدماغ ، وعظام الصدر ، وقاية له .

وجعلت العظام كثيرة ، لفوائد ومنافع عديدة . منها : الحركة ، فإن الإنسان ، قد يحتاج إلى حركة بعض أجزائه ، دون بعض .

وقد يحتاج إلى حركة جزءٍ من عضو .

ومنها أنه لو كان على عظمٍ واحد لكان إذا أراد أن يتحرك تحرك بجملته .

ومنها : أنه كان يتعذر عليه الصنائع ، والحل والربط .

ومنها : أنه إذا أصابته آفة ، عمت جميع البدن .»

فجعلت العظام كثيرة ، ليكون متى نال بعضها آفة ، لم تَسْرِ إلى غيره ، وقام غيره من العظام مقامه ، فى تحصيل تلك المنفعة .

ومنها : تعذر المنافع ، التى حصلت بسبب تعدد العظام .

ولولا كثرتها وتعددها ، لفاتت تلك المنافع .

ومنها : أن من العظام ، ما يحتاج البدن إلى كبيره .

ومنها : مايحتاج إلى صغيره ، ومنها : ما يحتاج إلى مستطيله .

ومنها : ما يحتاج إلى مجوفه ، ومنها : ما يحتاج إلى مَخْنِيِّهِ .

ومنها : مايحتاج إلى مستقيمه . ولا يحصل ذلك ، إلا بتعدد العظام .

ومنها : بديع الصنع ، وحسن التأْليف والتركيب ، وغير ذلك من الفوائد .

ثم شد الخالق بعضها إلى بعض ، بالرباطات ، والأَسْرِ الْمُحْكَمِ .

ثم كساها لحما ، حفظا لها ووقاية . ثم كسا اللحم جلدا ، صوناً له .

ولما كانت الفضلات ، تنقسم إلى لطيفة وغليظة ، جعل الله سبحانه للغليظة منها ، مجارى تنجذب فيها إلى أسفل ، ويخرج منها خروجا ظاهرا للحس .

وأما اللطيفة ، فهى الفضلات البخارية .

ولما كان من شأنها ، أن تصعد إلى فوق ، وتخرج عن البدن بالتحليل ، جعل فى العظام العليا منها ، منافذ يتحلل منها البخار المتصاعد .

فلم تكن تلك المنافذ محسوسة ، لئلا يضعف صوان الدماغ - وهو القحف - بوصول الأجسام المؤذية إليه .

فجعل الدماغ ، مركبة من عظام كثيرة . ووصل بعضها ببعض ، بوصل يقال لها : الشئون .

ومنه قولهم : فلان لم تجمع شئون رأسه (١) .

ويشتمل الرأس بجملة أجزائه ، على تسعة وخمسين عظما .

وجعل القحف مستديرا تاما ، فى مقدمه ومؤخره ، وجانبيه ، بمنزلة غطاء القدر .

وعظامه ستة ، وهى : عظم اليافوخ . وعظم الجبهة . وعظم مؤخر الرأس . والعظمان اللذان فيهما ، ثقبا السمع .

---

(١) الشئون جمع شأن ، وهو موصل قبائل الرأس . وأصله : عرق فى الجبل ينبت فيه النبع . ا هـ . من القاموس .

وفى كل واحد من الصدغين ، عظمان مصمتان .

وعظام اللحى الأَعلى ، أَربعة عشر عظما :

ستة منها ، فى محاجر العينين . واثنان ، للأَنف ، واثنان تحت الأَنف . وهما المثقوبان إلى الفم .

واثنان فى الوجنتين . واثنان تحت الشفة العليا .

وأَما العظم الشبيه بالوتد ، فهم واحد ، وهو كالقاعدة للرأْس .

وعظام اللحى الأَسفل ، اثنان : وهما متصلان فى وسط الذقن .

وبينهما بنيان ، ويتصلان من فَوْقُ باللحى الأَعلى ، اتصالا مفصليا .

والأَسنان : اثنان وثلاثو ن ، فى كل لحى ستة عشر .

أَربع ثنيات ، وتليها ، الرباعيات ، وتليها ، النابان ، ويليهما ، الأَضراس : خمسة من هنا ، وخمسة من هنـــا .

والنواجذ ، أَول الأَضراس ، وهما ناجذان ، فى كل ناحية ، ناجذ .

وربما نقصت النواجذ فى بعض الأَفراد ، وكان فى كل جانب ، أَربعة أَضراس .

وقد سلم الله غذاءَ الإِنسان إلى يده .

فتأْخذه ، فتسلمه إلى شفتيه ، فتسلمه الشفتان إلى الأَنياب والثنايا ، فتفصله .

ثم تسلمه إلى الأَضراس ، فتسلمه وتطحنه .

ثم تسلمه إلى اللسان والفم ، فيعجنه .

ثم يسلمه إلى الحلقوم والمرىء ، فيسلمه ويوصله إلى المعدة ، فتطبخه وتنضجه ، وتصلحه كما ينبغى .

ثم تسلمه إلى الكبد ، فيتسلمه منها .

ثم يرسل منه ، إلى كل عضو ، راتبه ، ومعلومه .

ثم تصب قربة الصفراءِ فى المرارة السوداءِ فى الطحال . والثفل يخرجه عنها ، كما تقدم بيانه

(١٣٤) فصل

والرأْس يقال بالعموم ، على ما يُقِلُّه العنق بجملته .

ويقال بالخصوص ، على الفروة . وهى جلدة الرأْس حيث منبت الشعر .

والجمجمة : العظم الذى يحوى الدماغ ، وهى مؤلفة ، من سبع قطع متقابلة ، تسمى القبائل .

وتسمى مواضع التآليف ، شئونا ، ووسط الجمجمة يسمى الهامة .

وحد الهامة من الجانبين ، قرن الرأس ، وحد الهامة من المقدم ، اليافوخ ، ومن المؤخر القمحدوة ، وهى : ما يصيب الأرض ، من رأس المستلقى على ظهره .

ولها ثلاث حدود : نقرة القفا ، والقذالان .

فنقرة القفا ، حدها ، من آخر الوسط . والقذالان ، جانبا النقرة . وقد تقدم تفصيل القبائل السبع .

وسنظهر الجمجمة عما يحيط بها : السمحاق ، وسطها غشاوتان :

إحداهما ، تلى الجمجمة ، وهو أثخنهما وأصلبهما والآخر ، يكتنف الدماغ ، ويحيط به ويخالطه ، ويقال لكل منهما : أم الدماغ ، ويسميان الأمان ، ومنه الآمة .

والمأمومة ، التى فيها ثلث الدية ، وهى الجراحة ، التى تبلغ أمَّ الدماغ ، ويقال لها : تجويف الدماغ .

وبطن ، وهى ثلاث بطون ، وبين بطنى الدماغ اللذين فى مؤخره ووسطه ، مجرى ، فيه قطعة من الدماغ مستطيلة ، شبيهة بالدودة ، ينسد ذلك المجرى ، وينفتح بها .

وتحت الدماغ ، سبلة مبسوطة مؤلفة من عروق ضوارب ، يتولد منها روح نفسانى ينفذ إلى البطنين ، اللذين فى مقدم الدماغ .

وفى الدماغ ، البركة ، والحوض ، والقمع ، والدودة ، والبطون ، والأَغشية ، ومبادئُ الأَعصاب .

ويحتوى الدماغ على ثلاث خزائن ، نافذ بعضها إلى بعض ، وتسمى بطونا ؛

فالأُولى : فى مُقَدَّمِهِ ، تنقسم إلى قسمين ، والثانية فى وسطه ، والثالثة فى مؤخره .

وجوهر الدماغ مُخِّىٌّ متزرد الشكل ، كأَنه زرد مجموع .

والروح النفسانى ، مثبت فى خلل الزرد والدماغ ، والدماغ ، مقسوم فى طوله ، لنصفين متضامين ، والتنصيف فى مقدم الدماغ ، أَظهر .

والغشاءان يدخلان فى فصول الدماغ ، وتزريده .

والصلب منهما ، يدخل بطونا بين جزءى البطن المقدم ، فيحجز بينهما .

وتحته مصفّى كالبركة ، تسمى المعصرة ، تصب فى العروق الدم المنضج ، وتنبعث فى جداول ، تسقى البطن المقدم ، وتجتمع إلى عرقين كبيرين ، يحملان الدم إلى البطن الأوسط ، والمؤخر .

والبطن الأوسط ، كدهليز ومنفذ ، بين المقدم والمؤخر ، وسقفه ، معقود كالأزج .

والدماغ موضوع طولا ، على زائدتين متقاربتين ، فيتماسّان ويتباعدان ، إلى الانفراج .

فينفتح الدهليز ، ويتراءى البطنان ، المقدم والمؤخر . والجزءُ المؤخر ، أَخفى تدويرا ، من المقدم ، وأَصغر زردا

وهو كُرِىُّ الاستطالة ، ويستدق على التدريج ، حتى يسيل منه النخاع ، كالجدول من العين .

وفى الدماغ مجريان :

أَحدهما فى آخر المقدم . والمؤخر فى الأَوسط ، لدفع فضوله ، ويجتمعان عند منفذ واحد عميق ، أَولهما فى الغشاءِ الرقيق ، والآخر فى الغشاءِ الصلب ، يأْخذ إلى ضيق كالقمع .

ولما كان الدماغ ، مبدأ حركات البدن إلى إرادته ، ولم يكن به حاجة إلى الحركة القوية ، فحوط عليه بسور من عظام .

بخلاف المعدة ، والكبد والرحم ، وسائر آلات الغذاءِ .

فإنها لما احتاجت إلى أَن تتسع وتمتلئ بالغذاءِ ، فتحمل مرة بعد أُخرى . وأَن تعصر الفضول فتخرجها ، والعظم يمنع من ذلك ، ويكفى فيه الفصل وحده ، فأُحيط عليه بسور من عظم .

وأَما الصدر ، فإنه لما احتاج إلى الوثاقة بالعظام ، وإلى الحركة بالفصل ، أَلف الصدر منهما .

وكان البطن أَوسع من الصدر ، لما يحل بها من آلات الغذاءِ ، والتنفس ، والطحال ، والمرىء وغيرها .

(١٣٥) فصل

فاستقبل الآن النظر فى نفسك .

وانظر إلى المبدإِ الأَول ، وهو النطفة ، التى هى قطرة مهينة ضعيفة ، لو تركت ساعة ، لبطلت وفسدت

كيف أَخرجها ، رب الأَرباب ، من بين الصلب والترائب ؟

وكيف أَوقع المحبة والأُلفة ، بين الذكور والإِناث .

ثم قادهما بسلسلة المحبة والشهوة ، إلى الاجتماع .

ثم استخرج النطفة من الذكر ، بحركة الوقاع ، من أَعماق العروق ، وجمعها فى الرحم ، فى قرار مكين ، لا تناله يد ، ولا تطلع عليه شمس ، ولا يصيبه هواءٌ .

ثم صرف تلك النطفة طورا بعد طور ، وطبقا بعد طبق ، وغذاها بماءِ الحيض .

وكيف جعل سبحانه النطفة ـ وهى بيضاءُ مشرقة ـ علقة حمراءَ .

ثم جعلها مضغة . ثم قسم أَجزاءَ المضغة ، إلى العظام ،

والأَعصاب ، والعروق ، والأَوتار ، واللحم ، فى داخل الرحم ، فى الظلمات الثلاث .

ولو كشف لك الغطاءُ ، لرأَيت التخطيط والتصوير ، يظهر فى تلك النطفة ، شيئا بعد شيءٍ ، من غير أَن ترى المصور ولا آلته ، ولا قلمه .

فهل رأَيت مصوراً ، لا تحس آلته ولا تلاقيها ؟ .

ثم تأَمل هذه القبة العظيمة ، التى قد ركبت على المنكبين .

وما أَودع فيها ، من العجائب ، وما ركب فيها من الخزائن .

وما أَودع فى تلك الخزائن من المنافع .

وما اشتملت عليه هذه القبة ، من العظام المختلفة الأَشكال ، والصفات ، والمنافع ، ومن الرطوبات ، والأَعصاب ، والطرق ، والمجارى ، والدماغ ، والمنافذ ، والقوى الباطنة . من الذكر ، والفكر ، والتخيل ، وقوة الحفظ .

ففيه القوة المفكرة ، و الذاكرة ، والمخيلة ، والحافظة .

وهذه القوى مودعة فى خزانتها ، مسخرة لمصالحها ، يستعملها ، ويستخدمها كيف أراد .

فتأمل كيف دَوَّر سبحانه ، الرأس ، وشق سمعه وبصره وأنفه وفمه ؟

وكيف ركب كرته فى بطن الأم ، من ثلاثة وعشرين عظما ، وخلق تلك العظام ، على كيفيات مختلفة .

وتأمل كيف انقلبت تلك النطفة اللينة الضعيفة ، إلى العظام الصلبة الشديدة ؟

ثم تأمل ، كيف قدر سبحانه ، كل واحد من تلك العظام ، بشكل مخصوص .

بحيث حصل من مجموعها ، مالو كان على خلافه ، لبطلت ، المنفعة وفات الغرض .

ثم ركب بعضها مع بعض ، بحيث حصل من مجموعها ، كرة الرأس على هذه الخلقة المخصوصة .

ولما كان الرأس أشرف الأعضاء الإنسانية وأجمعها للقوى ، والمنافع والآلات والخزائن ، اقتضت العناية الإلهية ، بأن صِينَ بأنواع من الصيانات .

وذلك : أن الدماغ ، يحيطه غشاءٌ رقيق .

وفوق ذلك الغشاء ، غشاءٌ آخر ، يقال له : السمحاق

ثم فوق ذلك الغشاء ، طبقة لحمية ، وفوق تلك الطبقة اللحمية الجلد . ثم فوق الجلد ، الشعر .

فخلق سبحانه ، فوق دماغك ، سبع طبقات ، كما خلق فوق الأَرض ، سبع سموات طباقا .

والمقصود من تخليقها ، الاحتياط فى صون الدماغ من الآفات .

والدماغ من الرأْس ، بمنزلة القلب من البدن .

وهو سبحانه ، قسمه فى طوله ثلاثة أَقسام .

وجعل القسم المقدم ، محل الحفظ والتخيل .

والبطن الأَوسط ، محل التأَمل والتفكر .

والبطن الأَخير ، محل التذكر والاسترجاع ، لما كان قد نسيه .

ولكل واحدة من هذه الأُمور الثلاثة ، أَمر مهم للإنسان ، لا بد له منه ، وأَنه محتاج إلى التفهم ، والتفهيم .

ولو لم يكن حافظا ، لمعانى التصورات وصورها

بعد غيبتها ، لكان إذا سمع كلمة وفهمها ، شذت عنه عند مجيء الأُخرى ، فلم يحصل المقصود ، من الفهم والإفهام .

فجعل له ، ربه وفاطره ، خزانة تحفظ له صور المعلومات ، حتى تجتمع له ، وتسمى القوة التي فيها ، القوة الحافظة ، ولا تتم مصلحة الإنسان ، إلا بها .

فإنه إذا رأى شيئا ، ثم غاب عنه ، ثم رآه مرة أُخرى ، عرف أن هذا الذى رآه الآن ، هو الذى رآه قبل ذلك .

لأنه فى المرة الأُولى ، ثبتت صورته فى الحافظة ، ثم تتوارى عنه بالحجاب .

فلما رآه مرة ثانية ، صارت هذه الصورة المحسوسة ، مطابقة للصورة المعنوية ، التي فى الذهن ، فحصل الجزم ، بأن هذا ، ذاك . ولولا القوة الحافظة ، لما حصل ذلك ، ولما عرف أحد أحداً بعد غيبته عنه .

ولذلك إذا طالت الغيبة جدا ، وانمحت تلك الصورة الأُولى من الذهن بالكلية ، لم يحصل له العلم ، بأن هذا ، هو الذى رآه أولا ، إلا بعد تفكر وتأمل .

وقد قال قوم : إن محل هذه الصور ، النفس .

وقال قوم : محلها القلب ، وقال قوم : محلها العقل ولكل فريق منهم ، حجج وأدلة ، وكل منهم أدرك شيئا وغاب عنه شيءٌ .

إذ الإدراك المذكور ، مفتقر إلى مجموع ذلك ، لا يتم إلا به .

والتحقيق ، أن منشأً ذلك ومبدأه ، من القلب ، ونهايته ومستقره ، فى الرأس . وهى المسألة التى اختلف فيها الفقهاءُ .

هل العقل فى القلب ، أو فى الدماغ ؟

على قولين : حكيا روايتين عن الإمام أحمد .

والتحقيق ، أن أصله ومادته من القلب ، وينتهى إلى الدماغ .

قال تعالى (٢٢ الحج : أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ٤٦)

فجعل العقل فى القلب ، كما جعل السمع بالأُذن ، والبصر بالعين .

وقال تعالى (٥٠ قٓ : إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ ٣٧) .

قال غير واحد من السلف : لمن كان له عقل .

واحتج آخرون : بأَن الرجل ، يضرب فى رأْسه ، فيزول عقله .

ولولا أَن العقل فى الرأْس ، لما زال . فإِن السمع والبصر لايزولان ، بضرب اليد أَو الرجل ، ولا غيرهما من الأَعضاءِ ، لعدم تعلقهما بهما .

وأَجاب أَرباب القلب عن هذا ، بأَنه لايمتنع زواله بفساد الدماغ ، وإِن كان فى القلب ، لما بين القلب والرأْس ، من الارتباط .

وهذا ، كما لايمتنع نبات شعر اللحية بقطع الأُنثيين وفساد القوة بفساد العضو ، قد يكون ، لأَنه محلها وارتباطه بها . والله أَعلم .

وعلى كل تقدير ، فذلك من أَعظم آيات الله ، وأَدلته ، وقدرته وحكمته ، كيف ترتسم صورة السموات والأَرض ، والبحار ، والشمس والقمر ، والأَقاليم ، والممالك ، والأُمم فى هذا المحل الصغير ؟

والإنسان يحفظ كتبا كثيرة جداً ، وعلوماً شتى متعددة ، وصنائع مختلفة .

فترتسم كلها فى هذا الجزء الصغير ، من غير أن يختلط بعض هذه الصور ببعض ، بل كل صورة منهن بنفسها ، محصلة فى هذا المحل .

وأَنت لو ذهبت تنقش صورا وأَشكالا كثيرة ، فى محل صغير ، لاختلط بعضها ببعض ، وطمس بعضها بعضا .

وهذا الجزءُ الصغير ، تنقش فيه الصور الكثيرة المختلفة ، والمتضادة ، ولايبطل منها صورةٌ صورةً .

ومن أَعجب الأَشياءِ أَن هذه القوة العاقلة ، تقبل ما تؤديه إِليها الحواس .

فتجتمع فيها ، ثم تعيد كل حاسة منها فائدة الحاسة الأُخرى .

مثاله : أَنك ترى الشخص ، فتعلم أَنه فلان ، وتسمع صوته ، فتعلم أَنه هو .

وتلمس الشىءَ فتعرفه ، وتشمه ، فتعرف أَنه هو .

ثم تستدل بما تسمعه من صوته ، على أَنه هو الذى رأَيتـه .

فيغنيك سماع صوته ، عن رؤيته ، ويقوم لك مقام مشاهدته .

ولهذا جوز أَكثر الفقهاءِ ، شهادة الأَعمى ، وبيعه ، وشرائه .

وأَجمعوا على جواز وطئه امرأَته ، وهو لم يرها قط ، اعتمادا منه على الصوت .

بل لو كانت خرساءَ أَيضاً ، وهو أَطرش ، جاز له الوطءُ .

وقد جعل الله سبحانه ، بين السمع والبصر والفؤاد ، علاقة وارتباطا ونفوذاً ، يقوم به بعضها مقام بعض .

ولهذا يقرن سبحانه ، بينهما كثيراً فى كتابه كقوله :

(١٧ الإسراءِ : إِنَّ السَّمْعَ والْبَصَرَ والْفُؤَادَ كُلُّ أُولٰئِكَ كَانَ عنْهُ مسْئُولًا ٣٦) .

وقوله تعالى : (٤٦ الأَحقاف : وجعلْنَا لَهُمْ سمْعًا وَأَبْصاراً وأَفْئِدةً ٢٦) .

وقوله (٧ الأعراف : لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يفْقَهُونَ بهَا ولَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بهَا ولَهُمْ آذَانٌ لَا يسْمَعُونَ بهَا ١٧٩) وهذا من عناية الخالق سبحانه ، بكمال هذه الصورة البشرية ، لتقوم كل حاسة منها ، مقام الحاسة الأُخرى ، وتفيد فائدتها فى الجملة ، لافى كل شيء .

ثم أَودع سبحانه ، قوة التفكر ، وأَمره باستعمالها فيما يُجْدِى عليه النفع ، فى الدنيا والآخرة .

فركب القوة المفكرة من شيئين ، من الأَشياء الحاضرة عند القوة الحافظة تركيبا خاصا ، فيتولد من بين هذين الشيئين ، شيءٌ ثالث جديد ، لم يكن للعقل شعور به ، كانت مواده عنده ، لكن بسبب التركيب ، حصل له الأَمر الثالث .

ومن ههنا ، حصل استخراج الصنائع ، والحرف ، والعلوم ، وبناءُ المدن والمساكن ، وأُمور الزراعة والفلاحة ، وغير ذلك .

فلما استخرجت القوة المفكرة ذلك ، واستحسنته ، سلمته إلى القوة الإرادية العلمية ، فنقلته من ديوان الأَذهان ، إلى ديوان الأَعيان .

فكان أمرا ذهنيا ، ثم صار وجوديا خارجيا .

ولولا الفكرة ، لما اهتدى الإنسان إلى تحصيل المصالح ، ودفع المفاسد .

وذلك من أعظم النعم ، وتمام العناية الإلهية .

ولهذا ، لما فقد البهائم والمجانين ونحوهم ، هذه القوة ، لم يتمكنوا مما تمكن منه أرباب الفكر .

ولما كان استخراج المطلوب ، بهذه الطريق ، يتضمن فكرا وتقديرا ، فيفكر فى استخراج المادة أولا ، ثم يقدرها ويفصلها ثانيا ، كما - يصنع الخياط . يحصل الثوب ، ثم يقدره ، ويفصله ثانيا ، قال تعالى عن الوحيد (٧٤ المدثر : ذَرْنِى ومنْ خَلَقْتُ وحِيدًا ١١ وجعلْتُ لَهُ مالًا ممْدُودًا ١٢ وبنِينَ شُهُودًا ١٣ ومهَّدْتُ لَهُ تَمْهيدًا ١٤ ثُمَّ يطْمَعُ أَنْ أَزيد ١٥ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآياتِنَا عَنِيدًا ١٦ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ١٧ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ١٨ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ١٩) فكرر سبحانه ، التقدير دون التفكير ، وذمه عليه دونه . وهذا منزل على مقتضى حال سواه .

فإنه بالفكر ، طالب لاستخراج المجهول . وذلك غير مذموم .

فلما استخرجه ، قدر له تقديرين : تقديرا كليا ، وتقديرا جزئيا .

فالتقدير الكلى ، أن الساحر ، هو الذى يفرق بين المرء وزوجه .

والتقدير الجزئى ، أن الذى يفرق بين المرء وزوجه ، مذموم .

فههنا تقدير بعد تقدير .

فلهذا كرره سبحانه ، وذمه عليه .

وأما التفكير ، فإن الفكر طالب لمعرفة الشىء . فلايذم .

بخلاف من قدر بعد تفكيره ، ما يوصله إلى تحقيق الباطل ، وإبطال الحق . فتأمله .

(١٣٦) فصل

ثم انْزِلْ إلى العين ، وتأمل عجائبها ، وشكلها ، وخلقها ، وإيداع النور الباصر فيها ، وتركيبها ، من عشر طبقات ، وثلاث رطوبات .

ولكل واحد من هذه الطبقات والرطوبات ، شكل مخصوص ، ومقدار مخصوص .

لو لم يكن عليه ، لاختلَّتْ المصلحة المقصودة .

وجعل سبحانه ، موضع الإبصار فى قدر العدسة .

ثم أَظهر فى تلك العدسة ، قدر السماءِ والأَرض ، والجبال والبحار ، والشمس والقمر .

فانظر كيف اتسعت تلك العدسة ، أَن يرتسم فيها ، مالا نسبة لها إليه أَلبتة ؟

وجعل تلك القوة الباصرة ، فى جزءٍ أَسود .

فتأَمل كيف قام الباصر بهذا الجزءِ الأَسود ؟

وجعل سبحانه ، الحدقة مصونة بالأَجفان ، لتسترها وتحفظها ، وتصقلها ، وتدفع الأَقذاء عنها .

وجعل شعر الأَجفان أَسود ، ليكون سواده ، سببا لاجتماع النور ، الذى به الإبصار ، ويكون مانعا من تفرقه ، ويكون أَبلغ فى الحسن والجمال .

وخلق سبحانه لتحرك الحدقة ، أَربعة وعشرين عضلة ، لو نقصت واحدة منهن ، لاختلَّ أَمر العين .

ولما كانت العين شبيهة بالمرآة - التى ، إنما ينتفع بها ، إذا كانت فى غاية الصقالة والصفاء - جعل سبحانه ،

الأَجفان متحركة إلى الانفتاح والإطباق أَبدا ، باختيار الإنسان وغير اختياره ، لتبقى الحدقة ، نقية صافية عن جميع الكدورات .

وجعل العينين بمنزلة المرآتين الصقيلتين ، اللتين تنطبع فيهما صور الأَشياءِ الخارجة .

فيتأَثر القلب ، ثم يظهر مافيه عليهما ، فيتأَثران به

فهما مرآة ، لما فى القلب ، يظهر فيهما ، ومرآة لما ، فى الخارج ، تنطبع صورته فيهما .

فالعينان على القلب ، كالزجاجتين الموضوعتين فى المرآة .

ولذلك يستدل بأَحوال العين على أَحوال القلب من رضاه ، وغضبه ، وحبه ، وبغضه ، ونفرته .

ومن أَعجب الأَشياءِ ، أَن العين من أَلطف أَعضاءِ البدن ، وهى لاتتأَثر بالحر والبرد ، تأَثُّرَ غيرها من الأَعضاءِ الكثيفة .

ولو كان الأَمر عائدا إلى مجرد الطبيعة ، لكان ينبغى أَن يكون الأَمر بالعكس ،لأَن الأَلطف ، أَسرع تأَثُّراً .

فعلم أَن حصول هذه المصالح ، ليس هو بمجرد الطبع .

(١٣٧) فصل

ثم اعْدِلْ إلى الأُذنين ، وتأَمل شقهما ، وخلقهما ، وإيداع الرطوبة فيهما ، ليكونا عوناً على إدراك السمع ، وجعلها مُرَّةً ، لتمتنع الهوام عن الدخول فى الأُذن .

وحوطهما سبحانه ، بصدفتين ، يجمعان الصوت ، ويؤديانه إلى الصماخ .

وجعل فى الصدفتين ، تعريجات ، لتطول المسافة ، فتنكسر حدة الصوت .

ولا تلج الهوام دفعة ، بل تكثر حركاتها ، فينتبه لها فيخرجها .

وجعل العينين مقدمتين ، والأُذنين مؤخرتين ، لأَن العينين ، بمنزلة الطليعة والكاشف ، والرائد ، الذى يتقدم القوم ليكشف لهم ، وبمنزلة السراج ، الذى يضىءُ للسالك ما أَمامه .

وأَما الأُذنان ، فيدركان المعانى الغائبة ، التى ترد على العبد من أَمامه ، ومن خلفه ، وعن جانبيه .

فكان جعلهما فى الجانبين ، أَعدل الأُمور . فسبحان من بهرت حكمته العقول .

وجعل للعينين غطاءً ؛ لأَن مدرك الأُذن ، الأَصوات ، ولا بقاءَ لها .

فلو جعل عليهما غطاءً ، لزال الصوت قبل ارتفاع الغطاءِ ، فزالت المنفعة المقصودة .

وأَما مدرك العين ، فأَمر ثابت . والعين محتاجة إلى غطاءٍ يقيها ، وحصول الغطاءِ ، لا يؤثر فى الإِدراك .

وقال بعض أَهل العلم : عينا الإِنسان ، هاديان ، وأُذناه ، رسولان إلى قلبه . ولسانه ترجمان ، ويداه جناحان ، ورجلاه ، بريدان ، والقلب ملك .

فإِذا طاب الملك ، طابت جنوده . وإِذا خبث ، خبثت جنوده .

(١٣٨) فصل

ثم انْزلْ إلى الأَنف ، وتـأَمل شكله وخلقته .

وكيف رفعه سبحانه ، فى وسط الوجنة ، بـأَحسن شكل ، وفتح فيه بابين .

وأَودع فيهما ، حاسة الشم ، وجعله آلة لاستنشاق الهواءِ ، وإِدراك الروائح على اختلافها .

فيستنشق بهما ، الهواءَ البارد والطيب . فيستغنى بالمنخرين ، عن فتح الفم أبداً ولولاهما ، لاحتاج إلى فتح فيه دائما .

وجعل سبحانه ، تجويفه واسعا ، لينحصر فيه الهواءُ وينكسر برده قبل الوصول إلى الدماغ . فإن الهواءَ المستنشق ، ينقسم قسمين :

شطرا منه — وهو أكثره — ينفذ إلى الرئة .

وشطرا ، ينفذ إلى الدماغ .

ولذلك يضر المزكوم استنشاقُ الهواءِ البارد .

وجعل فى الأنف أيضاً ، إعانة على تقطيع الحروف .

وجعل بين المنخرين ، حاجزا . وذلك أبلغ فى حصول المنفعة المقصودة ، حتى كأنهما أنفان ، بمنزلة العينين ، والأُذنين ، واليدين ، والرجلين .

وقد يصيب أَحدَ المنخرين آفةٌ ، فيبقى الآخر سالما .

وجعل تجويفه ، نازلا إلى أسفل ، ليكون مصبا للفضلات النازلة من الدماغ .

وستره بساتر أبدى ، لئلا تبدو تلك الفضلات ، فى عين الرائى .

تـأمل منفعة النَّفَس ، الذى لو قطع عن الإنسان لهلك ، وهو أربعة وعشرون ألف نَفَس ، فى اليوم والليلة ، قسط كل ساعة ، ألف نَفَس .

وتأمل كيف يدخل الهواءُ فى المنخرين ، فينكسر برده هناك .

ثم يصل إلى الحلقوم ، فيعتدل مزاجه .

ثم يصل إلى الرئة ، فيصفى ما فيها من الغلظ والكدرة ،

ثم يصل إلى القلب ، أصفى ما كان وأعدله ، فيروح عنه ، ثم ينفذ منه إلى العروق المتحركة ويتقدم إلى أقاصى أطراف البدن .

ثم إذا سخن جدا ، وخرج عن حد الانتفاع به ، عاد عن تلك الأقاصى إلى البدن .

ثم إلى الرئة ، ثم إلى الحلقوم ، ثم إلى المنخرين ،ثم يخرج ، ويعود مثله ، وهكذا أبداً . فمجموع ذلك ، هو النفس الواحد .

وقد أحصى الرب عدد هذه الأنفس ، وجعل مقابل كل نفس منها ، ما شاءَ الله من الأحقاب ، فى الجحيم ، أو فى النعيم .

فما أسفه من أضاع ما هذا قيمته ، فى غير شيءٍ !!

(١٣٩) فصل

وهو سبحانه ، جعل القلب أَمير البدن ، ومعدنا للحرارة الغريزية .

فإذا استنشق الهواءَ البارد ، وصل إلى القلب واعتدلت حرارته ، فيبقى هناك مدة .

فلما سخن واحترق ، واحتاج إلى إخراجه ، ودفعه منه ، لم يضيع أَحكم الحاكمين ، ذلك النفس ويخرجه بغير فائدة .

بل جعل إخراجه ، سببا لحدوث الصوت .

ثم جعل سبحانه ، فى الحنجرة واللسان والحنك ، باختلافها ، الصوت ، فيحدث الحرف .

ثم أَلهم الإنسان ، أَن يركب ذلك الحرف إلى مثله ونظيره ، فيحدث الكلمة .

ثم أَلهمه تركيب تلك الكلمة إلى مثلها ، فيحدث الكلام .

فتأَمل هذه الحكم الباهرة ، فى إيصال النفس إلى القلب ، لحفظ حياته .

ثم عند الحاجة إلى إخراجه ، والاستغناء عنه ، جعله سببا لهذه المنفعة العظيمة .

فتبارك الله أحسن الخالقين .

وخلق سبحانه ، هذه المقاطع والحناجر ، مختلفة الأشكال .

فكما أنه لا تتشابه صورتان ، كذلك لا يتشابه صوتان من كل وجه .

بل كما يحصل الامتياز بين الأشخاص بالقوة الباصرة ، فكذلك يحصل بالقوة السامعة ، فيحصل الامتياز ، للأعمى والبصير .

(١٤٠) فصل

ثم انزِلْ إلى الصدر ، تَرَ معدن العلم ، والحلم ، والوقار ، والسكينة والبر ، وأضدادها .

فتجد صدور العلية ، تعلو بالبر والخير ، والعلم والإحسان

وصدور السفلة ، تغلى بالفجور والشرور ، والإساءة والحسد والمكر .

ثم انفذ من ساحة الصدر ، إلى مشاهدة القلب ، تجد ملكا عظيما ، جالسا على سرير مملكته ، يأمر ،

وينهى ، ويُوَلِّى ، ويعزل . وقد حَفَّ به الأُمراءُ والوزراءُ والجند ، كلهم فى خدمته .

إن استقام ، استقاموا ، وإن زاغ زاغوا ، وإن صح صحوا ، وإن فسد فسدوا .

فعليه المعول ، وهو محل نظر الرب تعالى ، ومحل معرفته ، ومحبته وخشيته ، والتوكل عليه ، والإنابة إليه ، والرضا به ، وعنه ، والعبودية عليه أَولا ، وعلى رعيته وجنده تبعا .

فأَشرف مافى الإنسان قلبه . فهو العالم بالله ، الساعى إليه ، المحب له ، وهو محل الإيمان والعرفان .

وهو المخاطب المبعوث إليه الرسل ، المخصوص بأَشرف العطايا ، من الإيمان والعقل .

وإنما الجوارح أَتباع للقلب ، يستخدمها ، استخدام الملوك للعبيد ، والراعى للرعية .

والذى يسرى إلى الجوارح من الطاعات والمعاصى ، إنما هى آثاره .

فإن أَظلم ، أَظلمت الجوارح ، وإن استنار ، استنارت .

ومع هذا ، فهو بين إصبعين من أَصابع الرحمن ، عز وجل .

فسبحان مقلب القلوب ، ومودعها ما يشاءُ من أَسرار الغيوب ، الذى يحول بين المرءِ وقلبه ، ويعلم ما ينطوى عليه من طاعته ودينه ، مصرف القلوب كيف أَراد ، وحيث أَراد .

أَوحى إلى قلوب الأَولياءِ : أَن أَقبلى إلىَّ ، فبادرت وقامت بين يدى رب العالمين .

وكره عز وجل انبعاث آخرين ، فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين .

كانت أَكثر يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا وَمُقَلِّبِ القُلوب » .

وكان من دعائه « اللهم يا مقلب القلوب ، ثبت قلوبنا على طاعتك » .

قال بعض السلف : لَلْقَلْبُ أَشد تقلبا من القِدْرِ إذا استجمعت غليانها .

وقال آخر : القلب أَشد تقلبا من الريشة بأَرض فلاة ، فى يوم ريح عاصف .

ويطلق القلب على معنيين :

أحدهما : أمر حسي ، وهو العضو اللحمى الصنوبرى الشكل ، المودع فى الجانب الأيسر من الصدر، وفى باطنه تجويف ، وفى التجويف دم أسود ، وهو منبع الروح .

والثانى : أمر معنوى ، وهو لطيفة ربانية ، رحمانية ، روحانية ، لها بهذا العضو تعلق واختصاص . وتلك اللطيفة هى حقيقة الإنسانية .

وللقلب جندان : جند يرى بالأبصار ، وجند يرى بالبصائر .

فأما جنده المشاهد ، فالأعضاءُ الظاهرة والباطنة ، وقد خلقت خادمة له ، لا تستطيع له خلافا .

فإذا أمر العين بالانفتاح ، انفتحت .

وإذا أمر اللسان بالكلام تكلم .

وإذا أمر اليد بالبطش بطشت .

وإذا أمر الرِّجْلَ بالسعى ، سعت . وكذا جميع الأعضاءِ ذللت له تذليلا .

ولما خلق القلب للسفر إلى الله والدار الآخرة ، وحصل

فى هذا العالم ، ليتزود منه ، افتقر إلى المركب والزاد لسفره ، الذى خلق لأَجله .

فَأُعِين بالأَعضاءِ والقُوَى ، وسُخِّرتْ له ، وأُقيمت له فى خدمته ، لتجلب له مايوافقه من الغذاءِ والمنافع ، ويدفع عنه ما يضره ويهلكه .

فافتقر إلى جندين : باطن ، وهو الإِرادة ، والشهوة ، والقــوى .

وظاهر ، وهو الأَعضاءُ .

فخلق فى القلب من الإِرادات ، والشهوات ، ما احتاج إليه .

وخلقت له الأَعضاءُ ، التى هى آلة الإِرادة .

واحتاج فى دفع المضار إلى جندين : باطن ، وهو الغضب ، الذى يدفع المهلكات ، وينتقم به من الأَعداءِ .

وظاهر ، وهو الأَعضــاءُ التى ينفذ بها غضبه ، كالأَسلحة للقتال .

ولا يتم ذلك ، إلا بمعرفته ما يجلب ومايدفع ، فَأُعِينَ الجند من العلم ، بما يكشف له حقائق ماينفعه وما يضره .

ولما سلطت عليه الشهوة ، والغضب ، والشيطان ، أُعِينَ بجند من الملائكة .

وجعل له محل من الحلال ، ينفذ فيه شهواته .

وجعل بإزائه ، أعداءً له ، ينفذ فيهن غضبه .

فما ابتلى بصفة من الصفات ، إلا وجعل لها مصرفا ومحلا ، ينفذها فيه .

فجعل لقوة الحسد فيه مصرفا ، وهو المنافسة فى فعل الخير ، والغبطة عليه ، والمسابقة إليه .

ولقوة الكبر مصرفا ، وهو التكبر على أعداءِ الله تعالى وإهانتهم .

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لمن رآه يختال بين الصفين فى الحرب : « إنها لمشية يبغضها الله إلا فى هذا الموطن » وقد أمر الله سبحانه ، بالغلظة على أعدائه .

وجعل لقوة الحرص مصرفا ، وهو الحرص على ما ينفع ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « احرص على ما ينعك » . ولقوة الشهوة مصرفاً ، وهو التزوج بأربع والتَّسرِّى بما شاءَ .

ولقوة حب المال مصرفا ، وهو : إنفاقه فى مرضاته تعالى ، والتزود منه لمعاده .

فمحبة المال على هذا الوجه ، لاتذم .

ولمحبة الجاه مصرفا ، وهو : استعماله فى تنفيذ أوامره ، وإقامة دينه ، ونصر المظلوم ، وإغاثة الملهوف ، وإعانة الضعيف ، وقمع أعداءِ الله .

فمحبة الرياسة والجاه على هذا الوجه عبادة .

وجعل لقوة اللعب واللهو مصرفا ، وهو : لهوه مع امرأته ، أو بقوسه وسهمه ، أو تأديبه فرسه . وكل ما أعان على الحق .

وجعل لقوة التحيل والمكر فيه ، مصرفا ، وهو التحيل على عدوه ، وعدو الله تعالى بأنواع التحيل ، حتى يراغمه ، ويرده خاسئا ، ويستعمل معه من أنواع المكر ، ما يستعمله عدوه معه .

وهكذا جميع القوى ، التى ركبت فيه ، جعل لها مصرفا .

وقد ركبها الله فيه ، لمصالح اقتضتها حكمته ، ولايطلب تعطيلها .

وإنما تصرف مجاريها من محل إلى محل ، ومن موضع إلى موضع .

ومن تـأمل هذا الموضع ، وتفقه فيه ، علم شدة الحاجة إليه ، وعظم الانتفاع به .

(١٤١) فصل

وجماع الطرق والأبواب ، التى يصان منها القلب وجنوده ، أربعة .

فمن ضبطها وعدلها ، وأصلح مجاريها ، وصرفها فى محالها اللائقة بها ، استفاد منها قلبه وجوارحه ، ولم يشمت به عدوه . وهى :

الحرص ، والشهوة ، والغضب ، والحسد .

فهذه الأربعة هى أصول مجامع طرق الشر والخير .

وكما هى طرق إلى العذاب السرمدى ، فهى طرق إلى النعيم الأبدى . —

فآدم أبو البشر صلى الله عليه وسلم ، أُخْرِجَ من الجنة بالحرص ، ثم أدخل إليها بالحرص .

ولكن فرق بين حرصه الأول ، وحرصه الثانى .

وأبو الجن ، أُخرج منها بالحسد ، ثم لم يوفق لمنافسة وحسد ، يعيده إليها ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم :

« لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله مالا وسلطه على هلكته فى الحق ، ورجل آتاه الله القرآن ، فهو يقوم به آناءَ الليل وأَطراف النهار (١) » .

وأَما الغضب فهو غول العقل ، يغتاله كما يغتال الذئب الشاة ، وأَعظم مايفترسه الشيطان عند غضبه وشهوته . وإذا كان حرصه إنما هو على ما ينفعه ، وحسده منافسة فى الخير ، وغضبه لله على أَعدائه ، وشهوته مستعملة فيما أُبيح له وعونا له على ما أُمر به ، لم تضره هذه الأَربعة بل انتفع بها أَعظم الانتفاع .

(١٤٢) فصل

وإذا تأَملت حال القلب مع الملك والشيطان ، رأَيت أَعجب العجائب .

فهذا يُلِمُّ به مرة ، وهذا يلم به مرة .

فإذا أَلَمَّ به الملك ، حدث من لمته ، الانفساح ،

---

(١) رواه البخارى ومسلم ، عن ابن مسعود . والحسد يطلق ويراد منه تمنى زوال النعمة عن المحسود . وهذا حرام .

ويطلق ويراد منه الغبطة ، وهى : تمنى مثل الذى له . وهذا لا بأس به ، وهو المراد هنا .

والانشراح ، والنور ، والرحمة ، والإخلاص ، والإنابة ، ومحبة الله ، وإيثاره على ما سواه ، وقصر الأَمل ، والتجافى عن دار البلاءِ ، والامتحان ، والغرور .

فلو دامت له تلك الحالة ، لكان فى أهنإِ عيش ، وأَلذه وأَطيبه .

ولكن تأْتيه لمة الشيطان ، فتحدث له من الضيق ، والظلمة ، والهم ، والغم ، والخوف ، والسخط على المقدور ، والشك فى الحق ، والحرص على الدنيا وعاجلها والغفلة عن الله ــ ما هو من أَعظم عذاب القلب .

ثم للناس فى هذه المحنة ، مراتب ، لايحصيها إلا الله :

فمنهم من تكون لَمَّة الْمَلَكِ ، أَغلب من لمة الشيطان وأَقوى .

فإذا أَلَمَّ به الشيطان ، وجد من الأَلم والضيق . والحصر ، وسوءِ الحال ، بحسب ماعنده من حياة القلب .

فيبادر إلى طرد تلك اللمة ، ولايدعها تستحكم فيصعب تداركها .

فهو دائما ، فى حرب بين اللمتين ، يُدَالُ له مرة ، ويدال عليه مرة أُخرى . والعاقبة للتقوى .

ومنهم من تكون لمة الشيطان ، أَغلب عليه وأَقوى.

فلا تزال تغلب لمة الملك حتى تستحكم ، ويصير الحكم لها ، فيموت القلب ، ولايُحِسنُّ ما ناله الشيطان به

مع أَنه فى غاية العذاب ، والضيق ، والحصر ، ولكن سكر الشهوة والغفلة ، حجب عنه الإِحساس بذلك الأَلم .

فإذا كشف ، أَمكنه تداركه بالدواءِ ، وحَسْمُه .

وإن عاد الغطاءُ ، عاد الأَمر كما كان ، حتى ينكشف عنه وقت المفارقة للدنيا .

فتظهر حينئذ ، تلك الآلام والهموم ، والغموم ، والأَحزان ، وهى لم تتجدد له ، وإنما كانت كامنة ، تواريها الشواغل .

فلما زالت الشواغل ، ظهر ماكان كامناً ، وتجدد له أَضعافه .

(١٤٣) فصل

والشيطان يُلِمُّ بالقلب ، لما كان هناك من جواذب تجذبه ، وهى نوعان : صفات ، وإرادات .

فإذا كانت الجواذب صفات ، قوى سلطانه هناك ، واستفحل أمره ، ووجد موطنا ومقراً .

فتأْتى الأَذكار والدعوات ، والتعوذات ، كحديث النفس ، لا تدفع سلطان الشيطان. لأَن مركبه صفة لازمة

فإذا قلع العبد تلك الصفات ، وعمل على التطهر منها والاغتسال ، بقى للشيطان بالقلب خطرات ووساوس وَلَمَّات من غير استقرار وذلك يضعفه . ويقوى لمة الملك

فتأْتى الأَذكار ، والدعوات والتعوذات ، فتدفعه بأَسهل شيء .

وإذا أَردت لذلك مثالا مطابقا : فمثله مثل كلب جائع شديد الجوع ، وبينك وبينه لحم أَو خبز ، وهو يتأَملك ويراك لا تقاومه ، وهو أَقرب منك .

فأَنت تزجره ، وتصيح عليه ، وهو يأْبى إلا التّحوُّم عليك ، والغارة على ما بين يديك .

فالأذكار ، بمنزلة الصياح عليه والزجر له .

ولكن معلومه ومراده عندك ، وقد قربته عليك فإذا لم يكن بين يديك شيءٌ يصلح له ، وقد تأملك فرآك أقوى منه ، فإنك تزجره وتصيح عليه فيذهب .

وكذلك القلب الخالى عن قوة الشيطان ، ينزجر بمجرد الذكر .

وأما القلب ، الذى فيه تلك الصفات ، التى هى مركبه وموطنه ، فيقع الذكر فى حواشيه وجوانبه ، ولايقوى على إخراج العدو منه ، ومصداق ذلك تجده فى الصلاة .

فتأمل فى الحال ، وانظر ، هل تُخْرِجُ الصلاة بأذكارها وقراءتها ، الشيطان ، من قلبك ، وتفرغه كله لله تعالى بكليته ، وتقيمه بين يدى ربه ، مقبلا بكليته عليه ، يصلى لله تعالى ، كأنه يراه ، قد اجتمع همه كله على الله ؟

وصار ذكره ومراقبته ومحبته ، والأُنس به ، فى محل الخواطر والوساوس أم لا ؟ والله المستعان .

وههنا نكتة ينبغى التفطن لها ، وهى أن القلوب

الممتلئة بالأخلاط الرديئة . فالعبادات ، والأذكار ، والتعوذات ، أدوية لتلك الأخلاط ، كما يثير الدواءُ أخلاط البدن .

فإن لم يكن قبل الدواءِ وبعده حِمْيَةٌ ، لم يزد الدواءُ على إثارته ، وإن أزال منه شيئا ما .

فمدار الأمر على شيئين : الحمية ، واستعمال الأدوية

(١٤٤) فصل

وأول مايطرق القلب ، الخطرة .

فإن دفعها ، استراح مما بعدها ، وإن لم يدفعها ، قويت ، فصارت وسوسة ، فكان دفعها أصعب .

فإن بادر ودفعها ، وإلا قويت ، وصارت شهوة .

فإن عالجها ، وإلا صارت ، إرادة .

فإن عالجها ، وإلا صارت عزيمة .

ومتى وصلت إلى هذه الحال ، لم يمكن دفعها ، واقترن بها الفعل ولا بد .

وما يقدر عليه مرة ، بدون مقدماته .

وحينئذ ينتقل العلاج إلى أقوى الأدوية ، وهو الاستفراغ التام بالتوبة النصوح .

ولاريب أن دفع مبادىء هذا الداء من أوله ، أيسر وأهون ، من استفراغه بعد حصوله - إن ساعد القدر ، وأعان التوفيق ، وإن الدفع أولى به .

وإن تألمت النفس بمفارقة المحبوب ، فليوازن بين فوات هذا المحبوب الأخس المنقطع النكد المشوب بالآلام والهموم ، وبين فوات المحبوب الأعظم الدائم ، الذى لانسبة لهذا المحبوب إليه ألبتة ، لا فى قدره ، ولا فى بقائه .

وليوازن بين ألم فوته وبين ألم ، فوت المحبوب ، الأخس .

وليوازن بين لذة الإنابة والإقبال على الله تعالى ، والتنعم بحبه ، وذكره ، وطاعته ، ولذة الإقبال على الرذائل ، والأنتان والقبائح .

وليوازن بين لذة الظفر بالذنب ، ولذة الظفر بالعدو ، وبين لذة الذنب ، ولذة العفة ، ولذة الذنب ، ولذة القوة ، وقهر العدو ، وبين لذة الذنب ، ولذة

إرغام عدوه ، ورده خاسئاً ذليلا . وبين لذة الذنب ، ولذة الطاعة ، التى تحول بينه وبين مراده ، وبين فوت مراده ، وفوت ثناء الله تعالى وملائكته عليه ، وفوت حسن جزائه وجزيل ثوابه ، وبين فرحة إدراكه وفرحة تركه لله تعالى عاجلا ، وفرحة مايثنيه عليه فى دنياه وآخرته ، والله المستعان .

وهذا فصل ، جره الكلام فى قوله تعالى (٥١ الذريات : وَفِى أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ٢١) أشرنا إليه إشارة .

ولو استقصيناه ، لاستدعى عدة أسفار ، ولكن فيما ذكرناه ، تنبيه على ما تركناه . وبالله التوفيق .

(١٤٥) فصل

ولنرجع إلى المقصود ثم قال الله تعالى (٥١ الذاريات : وَفِى السَّماءِ رِزْقُكُمْ وما تُوعدُونَ ٢٢) .

أما الرزق ، ففسر بالمطر ، وفسر بالجنة ، وفسر برزق الدنيا والاخرة .

ولا ريب أن المطر من الرحمة ، وأن الجنة مستقر الرحمة .

فرزق الدارين ، فى السماء التى هى فى العلو .

وقوله تعالى : (وَمَا تُوعَدُونَ) قال عطاءٌ رضى الله عنه : من الثواب والعقاب .

وقال الكلبي : من الخير والشر .

وقال مجاهد : من الجنة والنار . وقال ابن سيرين : من أَمر الساعة .

قلت : كون الجنة والخير فى السماءِ ، فلا إشكال فيه

وكون النار فى السماءِ ، وما يوعد به أَهلها ، يحتاج إلى تبيين .

فإذا نظرت إلى أَسباب الخير والشر ، وأَسباب دخول الجنة والنار ، وافتراق الناس ، وانقسامهم إلى شقى وسعيد ، وجدت ذلك كله بقضاءِ الله وقدره ، النازل من السماءِ . وذلك كله مثبت فى السماءِ ، فى صحف الملائكة ، وفى اللوح المحفوظ ، قبل العمل وبعده . فالأَمر كله من السماءِ .

وقول من قال : من أَمر الساعة : يكشف عن هذا المعنى ، فإن أَمر الساعة يأْتى من السماءِ ، وهو الموعود بها

فالجنة والنار ، الغاية التى لأَجلها قامت الساعة . فصح كل ماقال السلف فى ذلك . والله أَعلم .

(١٤٦) فصل

ثم أقسم سبحانه أعظم قسم بأعظم مقسم به ، على أجل مقسم عليه .

وأكد الأخبار بهذا القسم ، ثم أكد ، بتشبيهه بالأمر المحقق ، الذى لا يشك فيه ذو حاسة سليمة . فقال : (٥١ الذاريات : فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ٢٣) .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : يريد إنه لحق واقع ، كما أنكم تنطقون .

وقال الفراءُ : إنه لحق ، كما أن الآدمى ناطق .

وقال الزجاج : هذا كما تقول فى الكلام : إن هذا لحق ، كما أنك ههنا .

قلت : وفى الحديث « إنه لحق كما أنك ههنا »

فشبه سبحانه ، تحقيق ما أخبر به ، بتحقيق نطق الآدمى ووجوده .

والواحد منا ، يعرف أنه ناطق ضرورة ، ولا يحتاج

نطقه إلى استدلال على وجوده ، ولايخالجه شك ، فى أنه ناطق .

فكذلك ما أخبر الله عنه من أَمر التوحيد ، والنبوة ، والمعاد ، وأسمائه ، وصفاته ، حق ثابت فى نفس الأَمر ، يشبه بثبوت نطقكم ووجوده .

وهذا باب ، يعرفه الناس فى كلامهم . يقول أَحدهم : هذا حقٌّ مثل الشمس .

وأفصح الشاعر عن هذا ، بقوله :

وَلَيْسَ يَصِحُّ فِى الْأَذْهَان شَيْءٌ
إِذَا احْتَاجَ النَّهَارُ إِلَى دَلِيلِ

وههنا أَمر ، ينبغى التفطن له ، وهو : أَن الرب تعالى ، شهد بصحة ما أَخبر به ، وهو أَصدق الصادقين. وأَقسم عليه ، وهو أَبر المقسمين ، وأَكده بتشبيهه بالواقع ، الذى لايقبل الشك بوجه .

وأَقام عليه من الأَدلة العيانية والبرهانية ، ماجعله معاينا مشاهدا بالبصائر ، وإن لم يعاين بالأَبصار .

ومع ذلك ، فأَكثر النفوس ، فى غفلة عنه ، لاتستعد له ، ولا تأْخذ له أُهبة .

والمستعد له ، الآخذ له أُهبة ، لا يعطيه حقه منهم ، إلا الفرد بعد الفرد .

فأَكثر الخلق ، لا ينظرون فى المراد من إيجادهم وإخراجهم إلى هذه الدار ، ولايتفكرون فى قلة مقامهم فى دار الغرور ، ولا فى رحيلهم وانتقالهم عنها ، ولا إلى أَين يرحلون ؟ وأَين يستقرون ؟

قد ملكهم الحس ، وقَلَّ نصيبهم من العقل ، وشملتهم الغفلة ، وغرتهم الأَمانى ، التى هى كالسراب ، وخدعهم طول الأَمل .

وكأَن المقيم لايرحل ، وكأَن أَحدهم ، لايبعث ولا يسأَل ، وكأَن مع كل مقيم ، توقيع من الله : لفلان ابن فلان ، بالأَمان من عذابه ، والفوز بجزيل ثوابه .

فأَما اللذات الحسية ، والشهوات النفسية ، كيفما حصلت ، فإنهم حصلوها ، ومن أَى وجه لاحت ، أَخذوها ، غافلين عن المطالبة ، آمنين من العاقبة . يسعون لما يدركون . ويتركون ماهم به مطالبون ويعمرون ماهم عنه منتقلون ، ويخربون ماهم إليه صائرون . وهم عن الآخرة ، هم غافلون .

ألهتهم شهوات نفوسهم ، فلاينظرون فى مصالحها .
ولا يأْخذون فى جمع زادها فى سفرها (٥٩ الحشر : نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ١٩) .

والعجب كل العجب ، من غفلة من تُعَدُّ عليه لحظاته ، وتحصى عليه أنفاسه ، ومطايا الليل والنهار تسرع به ، ولا يتفكر إلى أين يحمل ، ولا إلى أى منزل ينقل ؟ .

وكَيْفَ تَنَامُ الْعيْنُ وهِى قَرِيرةٌ
وَلَمْ تَدْرِ فِى أَىِّ المحَلَّيْن تَنْزِلُ ؟

وإذا نزل بأحدهم الموت ، قلق ، لخراب ذاته ، وذهاب لذاته ، لا لما سبق من جناياته ، ولا لسوء منقلبه بعد مماته .

فإن خطرت على أحدهم خطرة من ذلك ، اعتمد العفو أو الرحمة ، وكان يتيقن أن ذلك نصيبه ولابد .

فلو أن العاقل ، أحضر ذهنه ، ما استحضر عقله ، وسار بفكره ، وأمعن النظر ، وتأمل الآيات ، لفهم المراد من إيجاده ، ولنظرت عين الراحل إلى الطريق ، ولأخذ المسافر فى التزود ، والمريض فى التداوى .

والحازم ما يجوز أن يأتى . فما الظن بأمر متيفن ، كما أنه لصدق إيمانهم ، وقوة إيقانهم ، وكأنهم يعاينون الأمر .

فأضحت ربوع الإيمان من أهلها خالية ، ومعالمه على عروشها خاوية .

قال ابن وهب : أخبرنى مسلم بن على ، عن الأوزاعى قال :

كان السلف إذا طلع الفجر أوقبله ، كأنما على رءوسهم الطير ، مقبلين على أنفسهم ، حتى لو أنحبيبا لأحدهم ، غاب عنه حينا ، ثم قدم ، لما التفت إليه ، فلا يزالون كذلك ، إلى طلوع الشمس .

ثم يقوم بعضهم إلى بعض . فيتخلفون بأول ، ما يقتضون فيه أمر معادهم ، وماهم صائرون إليه ثم يأخذون فى الفقه .

(١٤٧) فصل

ومن ذلك قوله تعالى : (٥٠ : قٓ والْقُرْآنِ الْمَجِيد ١ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا

شَيْءٌ عَجِيبٌ ٢) الصحيح أن « قٓ » ، و « ن » و « ص » ، بمنزلة « حم » و « ألم » و « طس » : تلك حروف مفردة ، وهذه متعددة

وقد تقدمت الإشارة إلى بعض ما فيها قبل .

وههنا ، قد اتحد المقسم به والمقسم عليه ، وهو القرآن .

فأقسم بالقرآن ، على ثبوته ، وصدقه ، وأنه حق من عنده .

ولذلك حذف الجواب ، ولم يصرح به ، لما فى القسم ، من الدلالة عليه .

أو لأن المقصود ، نفس المقسم به كما تقدم بيانه .

ثم أخذ سبحانه فى بيان عجب الكفار من غير عجيب ، بل بما لاينبغى أن يقع سواء ، كما قال سبحانه (١٠ سورة يونس : الٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ١ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ ٢) فأى عجب من هذا حتى يقول الكافرون (إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ) ؟

وكيف يتعجب من رحمة الخالق عباده ، وهدايته ، وإنعامه عليهم ، بتعريفهم على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ، بطريق الخير والشر ، وما هم صائرون إليه بعد الموت ، وأمرهم ونهيهم ، حتى يقابل ذلك بالتعجب ، ونسبة ما جاء به إلى السحر ، لولا غاية الجهل والظلم .

وإن العجب كل العجب قولهم وتكذيبهم ، كما قال تعالى (١٣ الرعد : وَإِنْ تَعْجَبْ فَعجبٌ قَوْلُهُمْ ٥)

(١٤٨) فصل

ومن ذلك (٤٣ الزخرف : حمٓ والْكِتَابِ الْمُبِينِ ١) وقوله (٣٨ صٓ : والْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ ١) وقوله (٣٦ : يس ١ والْقُرْآنِ الْحكِيمِ ٢ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ٣) .

والصحيح أن (يٓس) بمنزلة « حم » و« الم » ، ليست اسماً من أسماء النبي صلى الله عليه وسلم .

وأقسم سبحانه بكتابه ، على صدق رسوله ، وصحة نبوته ورسالته .

فتأمل قدر المقسم به والمقسم عليه .

وقوله تعالى (٣٦ يس : عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٤) وجوز فيه ثلاثة : أن يكون خبرا بعد خبر .

فأخبر عنه ، بأنه رسوله ، وأنه على صراط مستقيم

وأن يكون متعلقا بالخبر نفسه ، تعلق المعمول بعامله ، أى أرسلتك على صراط . وهذا يحتاج إلى بيان تقدير : المجعولين على صراط مستقيم .

وكونه من المرسلين ، مستلزم لذلك ، فاستغنى عن ذكره .

(١٤٩) فصل

ومن ذلك قوله تعالى (٣٧ : والصَّافَّاتِ صَفًّا ١) أقسم سبحانه بملائكته الصافات للعبودية بين يديه ، كما قال النبى ﷺ لأصحابه :

« ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها ؟ تتمون الصفوف الأُول ، وتراصون فى الصف » .

وكما قالوا عن أنفسهم (٣٧ الصافات : وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ١٦٥) والملائكة الصافات أجنحتها فى الهواء ، والزاجرات ، الملائكة التى تزجر السحاب وغيره بأمر الله ، (فَالتَّالِيَاتِ) التى تتلو لكلام الله .

وقيل : الصافات : الطير : كما قال تعالى (٦٧ الملك :

أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّات وَيَقْبِضْنَ ١٩)

وقال تعالى (٢٤ النور : والطَّيْرُ صَافَّاتٍ ٤١) .

و « الزاجرات » : الآيات والكلمات الزاجرات ، عن معاصى الله .

و « التاليات » : الجامعات لكتاب الله تعالى .

وقيل : الصافات : للقتال فى سبيله .

فالزاجرات : الخيل ، للحمل على أعدائه .

فالتاليات : الذاكرين له عند ملاقاة عدوهم .

وقيل : الجامعات : الصافات أَبدانها ، فى الصلاة ، الزاجرات أَنفسها ، عن معاصى الله . فالتاليات : آياته .

واللفظ يحتمل ذلك كله ، وإن كان أَحق من دخل فيه وأَولى ،الملائكة .

فإن الإقسام كالدليل ، والآية ، على صحة ماأَقسم عليه من التوحيد .

وما ذكر من غير الملائكة ، فهو من آثار الملائكة ، وبواسطتها كان .

وأَقسم سبحانه بذلك ، على توحيد ربوبيته وإلهيته ، وقرر توحيد ربوبيته . فقال (٣٧ الصافات : إِنَّ إِلٰهكُمْ

لَوَاحِدٌ ٤ رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَـــا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ٥) من أَعظم الأَدلة على أَنه إِله واحد.

ولو كان معه إِله آخر ، لكان الإِله مشاركا له فى ربوبيته ، كما شاركه فى إِلهيته ، تعـــالى الله عن ذلك عُلُوًّا كبيرا .

وهذه قاعدة القرآن ، يقرر توحيد الإِلهية بتوحيد الربوبية .

فيقرر كونه معبوداً وحده ، بكونه خالقاً رازقا وحـــده .

وخص المشارق ههنا بالذكر ، إِما لدلالتها على المغارب ، إِذ الأَمر أَن المتضايفين كل منهما ، يستلزم الآخــر .

وإِما لكون المشارق ، مطلع الكواكب ، ومظاهر الأَنـــوار .

وإِما توطئة لما ذكر بعدها ، من تزيين السماءِ ، بزينة الكواكب ، وجعلها حفظا من كل شيطان .

فذكر المشارق ، أَنسب بهذا المعنى ، وأَليق . والله تعالى أَعلم .

(١٥٠) فصل

ومن ذلك قوله فى قصة لوط عليه السلام ، ومراجعته قومه له (١٥ الحجر : قالُوا أَولَمْ نَنْهَكَ عنِ الْعَالَمِينَ ٧٠ ؟ قَالَ هَؤُلَاءِ بنَاتِى إنْ كُنْتُمْ فَاعِينَ ٧١ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ٧٢) .

أَكثر المفسرين من السلف والخلف ـ بل لايعرف عن السلف فيه نزاعٌ ، أَن هذا ، قسم من الله ، بحياة رسوله صلى الله عليه وسلم .

وهذا من أَعظم فضائله ، أَن يقسم الرب عز وجل ، بحياته . وهذه مزية ، لاتعرف لغيره .

ولم يوافق الزمخشرى على ذلك ، فصرف القسم ، إلى أَنه بحياة لوط ، وأَنه من قول الملائكة ، فقال : هو على إرادة القول ، أَى : قالت الملائكة للوط ، عليه الصلاة والسلام : لعمرك : إنهم لفى سكرتهم يعمهون

وليس فى اللفظ ، ما يدل على واحد من الأَمرين ، بل ظاهر اللفظ وسياقه ، إنما يدل على ما فهمه السلف ، لا أَهل التعطيل والاعتزال .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : لعمرك ، أى وحياتك .

قال : وما أقسم الله تعالى بحياة نبي غيره .

والعَمر والعُمْر ، واحد ، إلا أنهم خصوا القَسَم بالمفتوح ، لإثبات الأخف ، لكثرة دوران الحلف على ألسنتهم .

وأيضاً ، فإن العمر حياة مخصوصة . فهو عمر شريف عظيم ، أهل أن يقسم به ، لمزيته على كل عمر من أعمار بنى آدم .

ولا ريب أن عمره وحياته ، صلى الله عليه وسلم ، من أعظم النعم والآيات ، فهو أهل أن يقسم به .

والقسم به أولى ، من القسم بغيره من المخلوقات (١)

---

(١) هذا إنما هو فى قسم الله تعالى به ، لا فى قسم الخلق وحلفهم به ، ﷺ ، وبغيره من المخلوقات . فإن هذا من أعظم المحرمات .

ففى الحديث المتفق عليه ، عن ابن عمر ، أن النبى ﷺ ، سمع عمر ، وهو يحلف بأبيه ، فقال : « إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم . فمن كان حالفاً ، فليحلف بالله أو ليصمت » .

وفى رواية للترمذى ، أن ابن عمر سمع رجلا يقول : لا والكعبة : فقال : لا تحلف بغير الله ، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول :

وقوله تعالى (يعمهون) أى : يتحيرون . وإنما وصف الله سبحانه اللوطية بالسكرة ، لأن سكرة العشق ، مثل سكرة الخمرة ، كما قال القائل :

سُكْرانِ : سُكْرُ هَوًى ، وسُكْرُ مُدامَةٍ
وَمَتَى إفَاقَةُ مَنْ بِهِ سُكْران ؟

(١٥١) فصل

ومن ذلك قوله تعالى (٤ النساء : فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ٦٥) .

أقسم سبحانه ، بنفسه المقدسة ، قسما مؤكدا بالنفى قبله ، على عدم إيمان الخلق ، حتى يُحَكِّمُوا رسوله ، فى كل ما شجر بينهم ، من الأُصول والفروع ، وأحكام الشرع ، وأحكام المعاد ، وسائر الصفات وغيرها .

ولم يُثْبِتْ لهم الإيمان ، بمجرد هذا التحكيم ، حتى

« من حلف بغير الله فقد كفر وأشرك » ، قال الترمذى : حسن ؛ وصححه الحاكم .

وورد مثل هذا ، عن ابن مسعود ، وقال ابن مسعود : لأن أحلف بالله كاذباً ، أحب إلىَّ من أن أحلف بغيره صادقاً .

ينتفى عنهم الحرج ، وهو : ضيق الصدر ، وتنشرح صدورهم لحكمه ، كل الانشراح ، وتنفسح له كل الانفساح ، وتقبله كل القبول .

ولم يثبت لهم الإيمان بذلك أيضا ، حتى ينضاف إليه ، مقابلة حكمه بالرضا والتسليم ، وعدم المنازعة ، وانتفاء المعارضة والاعتراض .

فهنا ، قد يُحكِّم الرجل غيره ، وعنده حرج من حكمه .

ولا يلزم من انتفاء الحرج ، الرضا والتسليم . والانقياد ، إذ قد يحكمه وينتفى الحرج عنه فى تحكيمه ، ولكن لاينقاد قلبه ، ولا يرضى كل الرضا بحكمه .

والتسليم ، أخص من انتفاء الحرج . فالحرج ، مانع ، والتسليم ، أمر وجودى .

ولا يلزم من انتفاء الحرج ، حصوله بمجرد انتفائه

إذ قد ينتفى الحرج ، ويبقى القلب فارغا منه ومن الرضا به ، والتسليم له . فتأمله .

وعند هذا يعلم ، أن الرب تبارك وتعالى ، أقسم على انتفاء إيمان أكثر الخلق .

وعند الامتحان تعلم : هل هذه الأُمور الثلاثة موجودة فى قلب أَكثر من يدَّعى الإِسلام أَم لا ؟

والله المستعان ، وعليه التكلان ، ولاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

وصلى الله على سيدنا محمد ، خاتم النبيين . وعلى آله وصحبه ، وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين ، والحمد لله رب العالمين .

تم – بحمد الله تعالى – طبع هذا الكتاب المستطاب : نسأل الله تعالى الرحمة والرضون لمؤلفه ولقارئيه وصلى الله تعالى وسلم على سيد الخلق محمد وآله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين ، والحمد لله رب العالمين .

فهرس

الجزء الثانى

(من كتاب التبيان فى أقسام القرآن للعلامة ابن القيم)

رقم الفصل	الموضوع	صفحة
٦٥	فصل قوله تعالى (والنجم إذا هوى)	٥
٦٦	فصل قوله تعالى (وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى)	١٣
٦٧	فصل صفات معلم الوحى	١٧
٦٨	فصل رؤية الرسول ﷺ كانت لجبريل	٢٤
٦٩	فصل رؤيته مرة ثانية عند سدرة المنتهى	٢٦
٧٠	فصل معنى قوله (ما زاغ البصر وما طغى)	٣٧
٧١	فصل أنواع الاستطراد وأمثلته من الكتاب العزيز	٣٨
٧٢	فصل قوله تعالى (والطور وكتاب مسطور)	٤٠
٧٣	فصل المقسم عليه فى هذه السورة	٥٠
٧٤	فصل نعيم أرباب العلوم النافعة	٥٤
٧٥	فصل من كمال نعيمهم إلحاق ذرياتهم بهم	٦١
٧٦	فصل قوله تعالى (والذاريات ذروا)	٦٤
٧٧	فصل الكلام على السحاب وجهة دلالته على قدرة الله	٦٩
٧٨	فصل قوله تعالى (فالمقسمات أمرا) وبيان من هم	٧٥
٧٩	فصل المقسم عليه وهو قوله (إنكم لفى قول مختلف)	٨٠

رقم الفصل	الموضوع	صفحة
٨٠	فصل جزاء من خلص من الفتن بالتقوى	٨٤
٨١	فصل أحب القيام إلى الله	٨٨
٨٢	فصل آيا ته تعالى فى الآفاق ، وفى الأنفس	٩١
٨٣	فصل اختلاف الآيات فى أجناسها وصفاتها ومنافعها	٩٥
٨٤	فصل السر فى تبصير الله تعالى العباد بأنفسهم	١٠٥
٨٥	فصل العينان ووظيفتهما	١٠٩
٨٦	فصل الأذنان وسر شقهما فى جانبي الوجه	١١٠
٨٧	فصل الأنف وسر نصبه فى وسط الوجه قائماً معتدلا	١١٢
٨٨	فصل الفم وأنه من العجائب	١١٤
٨٩	فصل اللسان والصلة بينه وبين القلب	١١٦
٩٠	فصل سر خلقه تعالى اللسان عضوا لاعصب فيه ولاعظم	١١٧
٩١	فصل الأسنان والشفتان ووظيفتهما	١١٨
٩٢	فصل سر جعل الفم أكثر الأعضاء رطوبة . وفائدة اللعاب	١١٨
٩٣	فصل العبرة من حال الشعر ومنابته	١٢٢
٩٤	فصل الحاجبان وأنهما وقاية العين مع الحسن والزينة	١٢٥
٩٥	فصل شعر اللحية وأنه زينة ووقار	١٢٦
٩٦	فصل شعر الأنف والإبط ومنافعهما	١٢٧
٩٧	فصل حكمة الرب تعالى فى إخلاء الكفين والجبهة من الشعر	١٢٨
٩٨	فصل حال الإنسان من مبدئه إلى نهايته	١٣٩
٩٩	فصل حرارة الجسد وإلهابها الشهوة والسر العجيب فى ذلك	١٤٢
١٠٠	فصل الكلام فى ماء المرأة وصفته ووظيفته فى تكوين الجنين	١٥٥
١٠١	فصل سبب تفاوت مدة الحمل	١٦١

رقم الصفحة	الموضوع	صفحة

١٠٢ فصل أقل مدة الحمل ١٦٢

١٠٣ فصل سبب الإذكار والايناث إرادة الله وحدها وتفنيد ما ذهب إليه الطبعيون ١٦٣

١٠٤ فصل متى ينفخ الروح فى الجنين ؟ ١٧٢

١٠٥ فصل أى عضو يتخلق من الجنين قبل الآخر ؟ ١٨٠

١٠٦ فصل هل للجنين حركة وإحساس قبل نفخ الروح فيه ؟ ١٨٣

١٠٧ فصل هل يتكون الجنين من ماءين وواطئين ؟ ١٨٦

١٠٨ فصل أدوار انتقال النطفة وأطوارها ٢٠١

١٠٩ فصل أعضاء الغذاء ثلاثة أقسام ٢٠٣

١١٠ فصل الأعضاء القابلة للفضلات : المرارة ، والطحال . والكبد ٢٠٣

١١١ فصل وظيفة القلب ٢٠٧

١١٢ فصل للمعدة أربع قوى : جاذبة ، ومنضجة ، وممسكة ، ودافعة ٢٠٨

١١٣ فصل موضع الكبد من المعدة ٢١١

١١٤ فصل الحكمة فى جعل صفاقات الكبد أرق من صفاقات سائر عروق البدن ٢١٣

١١٥ فصل أحرز الصانع سبحانه موضع الكبد ووضعها ٢١٥

١١٦ فصل الطحال وما فيه من الفوائد والرد على من زعم أنه لا فائدة فيه ٢١٦

١١٧ فصل الكبد والطحال متقابلان والمعدة بينهما ٢٢٣

١١٨ فصل المعدة هى الآلة لهضم الغذاء واستمرائه ، والأمعاء تؤديه إلى الكبد ٢٢٤

١١٩ فصل مختصر يجمع شتات ما سبق بإيضاح وإيجاز ٢٢٧

رقم الصفحة	الموضوع	صفحة
١٢٠	فصل الكبد عضو لحمى تتخلله عروق غلاظ ورقائق	٢٤٢
١٢١	فصل العروق الموصلة إلى القلب : الوتين ، والأبهر	٢٤٤
١٢٢	فصل المرارة وضعها على الكبد. ولها مجريان	٢٤٦
١٢٣	فصل القوة العامة التى جعلها الله فى البدن لتنظيمه	٢٤٦
١٢٤	فصل الدم وهو الغذاءُ الحقيقى للبدن	٢٤٩
١٢٥	فصل المادة البلغمية ووظيفتها	٢٥٠
١٢٦	فصل المادة الصفراوية وحاجة البدن إليها	٢٥٠
١٢٧	فصل المرارة السوداءِ وما فيها من المنافع	٢٥١
١٢٨	فصل حكمة الله فى أن جعل فى البدن أعضاء رئيسية	٢٥٢
١٢٩	فصل السر فى استحقاق الأعضاءِ الرئيسية للرياسة	٢٥٣
١٣٠	فصل الأعضاءِ الخادمة : الرئة والشرايين. والمعدة والأوردة	٢٥٤
١٣١	فصل الأعضاءُ المرءُوسة بلا خدمة	٢٥٥
١٣٢	فصل الأعضاءُ التى ليست برئيسة ولا مرءوسة	٢٥٥
١٣٣	فصل عدد العظام على ما أحصاه المشرحون	٢٥٩
١٣٤	فصل لفظ الرأْس وله إطلاقان	٢٦٥
١٣٥	فصل على الإنسان أن ينظر فى نفسه ليعرف ربه وصانعه ، فيوحده ويعبده	٢٧٠
١٣٦	فصل عجائب العين	٢٨١
١٣٧	فصل عجائب الأُذنين	٢٨٤
١٣٨	فصل عجائب الأَنف	٢٨٥

رقم الصفحة	الموضوع	صفحة
٢٨٨	فصل ملك القلب البدن ومعدن الحرارة الغريزية	١٣٩
٢٨٩	فصل الصدر معدن العلم والحلم	١٤٠
٢٩٦	فصل جنود القلب وأبوابه وطرقه	١٤١
٢٩٧	فصل حال القلب مع الملك والشيطان	١٤٢
٣٠٠	فصل إلمام الشيطان بالقلب	١٤٣
٣٠٢	فصل كيف يطرق الشيطان قلبك وكيف تدفعه ؟	١٤٤
٣٠٤	فصل ثم قال الله تعالى (وفى السماء رزقكم)	١٤٥
٣٠٦	فصل قوله تعالى (فورب السماء والأرض إنه لحق)	١٤٦
٣١٠	فصل ومن ذلك قوله (والقرآن المجيد)	١٤٧
٣١٢	فصل ومن ذلك قوله تعالى (حم والكتاب المبين)	١٤٨
١٤٩	فصل ومن ذلك قوله تعالى (والصافات صفا)	١٤٩
٣١٦	فصل قصة لوط عليه السلام مع قومه	١٥٠
٣١٨	فصل قوله تعالى (فلا ، وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم . الاية)	١٥١

(تم الفهرس)

تصويب خطأ الجزء الثانى من كتاب التبيان

الصفحة	سطر	خطأ	صواب
٥	١٥	تُسُمُّىٌ	تُسَمِّى
٧	١٨	هرياً	هويًّا
٩	٢	تَعُدُّ	تَعُدُّ
١٠	٣	بِالْبَيِّنِ	بِالْبَيِّنِ
١٢	١٦	أُنَبِّئُكُمْ	أُنَبِّئُكُمْ
٢٢	٩	أَفَتُمَارُونَهُ	أَفَتُمَارُونَهُ
٢٣	١	أَفَتَمْرُونَهُ	أَفَتَمْرُونَهُ
٢٤	١٤	قَوْسَيْنِ	قَوْسَيْنِ
٣٧	٤	ما أَمر	مَا أُمِرَ
٤١	٥	كتابٌ	كِتابٍ
٥٣	١٦	اصلوُهَا	إِصْلَوْهَا
٥٣	١٦	إنِّما	إِنَّمَا
٥٣	١٧	تَعْلَمُونَ	تَعْمَلُونَ
٨١	٣	جاءَهم فى أمر	فَهُمْ فى أَمْرِ
١٠٦	٧	بَابَى	بَابَىِ
١١٣	١٥	ويـبلغ	ويبلغ
١١٥	٤	ليـ ىدى	ليؤدى
١١٨	١٧	مُرٌّ	مُرًّا
١٥١	٩	كفى	وكفى
١٦١	٣	فَأَذْكَرَه	فَأَذْكُرُهُ

الصفحة	سطر	خطأً	صواب
١٦١	٣	وَأَذْكَرَ	وَأَذْكُرُ
١٧٣	١٥	عند كمال	، تقديرعند كمال
١٩٦	١٤	ىمسه	يمسه
١٩٨	٢٠	فَانْظَرُوا	فَانظُرُوا
١٩٩	١٤	أَخَوَاتِها	أَخَوَاتُهَا
٢١٦	١٤	الأَمن	الأَيمن
٢١٨	٧	منحلحل	متحلحل
٢٢٨	١٧	قلوبنا	قُلُوباً
٢٣٠	٨	إصعا	إصبعا
٢٣٠	١٢	بَعْدِ	بَعْدِهِ
٢٣٤	١٢	شَجَرَةِ	شَجَرَةٍ
٢٣٨	١٣	وغرص	وغرض
٢٤٠	٤	كثف	كثفت
٢٥٥	١٠	الرئيسية	الرئيسة
٢٥٨	٢	العظيم	العظم
٢٦٦	١٥	الأمـان	الأُمَّان
٢٦٧	١٧	والدماغ	—
٢٧٤	٥	إلا ىها	إلا بها
٢٨٤	١٧	ىهرت	بهرت
٢٨٧	١٤	يحزج	يخرج
٣٢٠	٩	والرضون	والرضوان

رقم الإيداع بدار الكتب ٣٢٣٠ لسنة ١٩٧٩

مطابع الدجوي
القاهرة - عابدين
ت ٩٠٠٤٩٨ / ٩٢٤٢٦٨